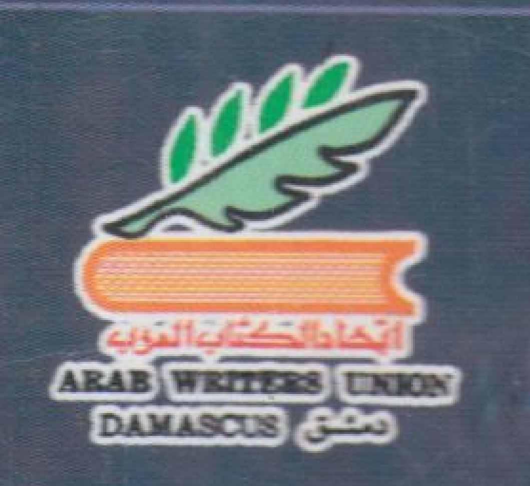


الثقافة والتنمية المستقلة في عصر العولمة

(التخلف العربي ثقافي أم تكنلوجي)

محمد سعيد طالب



دراسة

E-mail : البريد الالكتروني
unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

تصميم الغلاف للفنان : حازم عودة

محمد سعيد طالب

الثقافة والتنمية المستقلة في عصر العولمة

(التخلف العربي ثقافي أم تكنولوجي)

- دراســـة -

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2005

إننا على أبواب عصر مهم عصر من التخمر، عندما يتقدم الفكر قفزة ، فإنه يتعالى على شكله السابق ويتخذ له شكلاً جديداً . إن مجمل التصورات والمفاهيم والروابط السابقة التي تربط عالمنا تتلاشى وتحل، وكأنه لوحة حلم هناك مرحلة ذهنية جديدة. فعلى الفلسفة بشكل خاص أن

تستقبل ظهورها، وتتعرف إليها، بينما يتمسك الآخرون الذين يعارضونها ولو بشكل ضعيف بالماضي. الفيلسوف الألماني فريدريك هيغل. [1]

مقدمة

-1-

ثـــلاث دراسات حول العلاقة بين الثقافة والتخلف، وثقافة التبعية، والثقافة والتغييـــر والإصلاح . يضمها هذا الكتاب الذي عمدت فيه إلى التركيز على أن التبعـــية والتخلف هما نتيجة لثقافة فقدت نبضها الإبداعي، و أصبحت في حالة أزمـــة تبحـــث في تاريخها عن مبررات وجودها أكثر مما تبحث عن حاضرها ومســـتقبلها فـــي تنمية معاييرها القيمية والعملية لمواجهة التحديات والتطورات العاصـــفة الجاريـــة في العالم الذي تقدم كثيراً وخلفها وراءه تبحث عن هويتها، وتحـــاول إعادة تشكيلها في عالم سريع التحول والتغيير. إلا أنها تجد نفسها من جديـــد علـــى أعـــتاب مرحلة أكثر تطوراً فهي تسابق الزمان والتاريخ، ولكنها تـــزحف ببطء فتتسع المسافة بينها وبين الثقافة الحديثة. فالثورة الثقافية التي هي اللحظـــة التاريخـــية لتغيـــير مســـار العملية التاريخية الجارية والمحددة للتبعية

---

[1] من أحد دروسه في 18 تشرين الثاني 1806م.

والتخلف ما تزال متعثرة، بسبب الحس التاريخي المسيطر على أي خطوة للانفلات من سيطرة الماضي المجيد الذي أصبح هو المستقبل في أيديولوجيا الخلاص المتوهمة، تسد الآفاق المتوهجة بالتصميم على ضرورة التقدم بثبات للخلاص من حالة العجز والوهن. بالاعتراف أولاً بالضرورة الحتمية لقلب صفحة التاريخ الزاهر، والبدء بكتابة صفحة جديدة متميزة وحديثة من إبداع الأمة العربية في حاضرها ومستقبلها الذي يجب صنعه بالعلم الحديث والتكنولوجيا المتطورة والأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أخرجت العالم الحديث في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية إلى الوجود فيما سمي بعصر النهضة والثورة .

إن التخلف التكويني لهذه الثقافة يترك في العقل فجوات في مفاهيم الزمان والمكان والعمل الاجتماعي والتاريخ ، ونقاطاً سوداء تتراكم فيها أكوام التراث وتشكل ثقلاً معنوياً وروحياً على النهضة والثورة، فيردمها هذا العقل بمقولات التبرير، أو يعبر بها بمقولات التلفيق والتوليف ليعيد صياغتها وتفسيرها وترتيبها لتتلاءم مع فكر الحداثة. ولكنه لا يبتعد كثيراً عن التقاليد ولا يصل إلى ما هو جوهري وموضوعي وحقيقي للانتقال إلى التحديث كمناهج واستراتيجيات وأساليب عمل وسياسات. وحاولت في هذا السياق أن أجد أو أن أحدد نقطة الانطلاق لبداية تاريخ التخلف العربي. فكانت الدراسة الأولى عن أثر الحروب ضد الفرنجة (الصليبيين)على السياسة والاقتصاد والمجتمع والثقافة العربية. وخلصت إلى القول بأن للتخلف العربي بداية هي انهيار الإقطاعية العربية الإسلامية وحليفتها الرأسمالية التجارية التي ساهمت في بناء دولة الخلافة العربية-الإسلامية (العهد الراشدي والأموي والعباسي الأول أي حتى خلافة المتوكل). لتحل محلها الإقطاعية العسكرية الغازية، التي تعززت في الحروب الطويلة ضد الفرنجة والتي استمرت ما يزيد عن القرنين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، القرنين السادس والسابع الهجريين). ثم في مواجهة الغزو التتري والمغولي، وخلال حقبة الاحتلال العثماني.

لقد شرحت كيف أجهضت هذه الإقطاعية النمو والتحول نحو الرأسمالية، وقضت على مظاهر التقدم والارتقاء الاقتصادي، والعمالة الحرفية المؤهلة والمدربة، وتجارة المسافات البعيدة، وساندت الثقافة السلفية التي وضع قواعدها الإمامان الغزالي والباقلاني ومن اتبعهما من الفقهاء والمتكلمين. مما ساهم في الانغلاق والعزلة، لتغلق الأبواب والنوافذ كي لا تدخل الثقافات الحديثة

والقديمة، من أجل حماية عقيدة الأمة(الشريعة الإسلامية التي أسس عقائدها أبو الحسن الأشعري بعد تركه للاعتزال كمذهب وطريقة وعودته إلى أهل الحديث)ولتتركز حول كيفية الحفاظ على الذات في حقبة تاريخية مأزومة هددت وحدة الأمة والدولة والوجود. كما جرى التركيز في هذه الدراسة على النتائج الكارثية للحروب ضد الفرنجة والغزو التتري والمغولي والعثماني على التقدم العربي. بالإشارة إلى الدور الكابح الذي لعبته البيروقراطية التي برزت في هذا العصر كطبقة اجتماعية وقوة سياسية وإدارية ذات نفوذ وهيمنة ثقافية وفكرية تولت إدارة الدولة والإمارات والإقطاعيات والاقتصاد والأشغال العامة في الإقطاعية العسكرية، وإعادة الإنتاج الاجتماعي، الذي صار الواجب الرئيس في سلسلة القرارات المالية والضريبية والأمنية، لتوفير مستلزمات الإنتاج المادية والروحية، وتوزيع هذا الناتج على الفئات والطبقات والأفراد. ونتيجة للانقسام الطبقي والجنسي بين الحكام والرعايا، كانت البيروقراطية التي هي عربية على وجه العموم وليست إسلامية في كثير من الأحيان، هي التي تتولى العبء الأكبر من المسؤولية حول علاقة الحكام بالرعايا؛ الحكام الذين يحوزون على فائض القيمة من الناتج الاجتماعي، بل لنقل الضروري في أزمان القحط والجدب والمجاعات التي تكررت بسبب تدهور القوى المنتجة بشرياً وتكنولوجياً وخراب أنظمة الري والجفاف وغزو الجراد الذي لا يبقي ولا يذر، والأوبئة الفتاكة التي كانت دورية ومزمنة كالطاعون؛ فلا يتركون للرعايا سوى الكفاف أو الموت جوعاً. (وكتب التاريخ العام(الكامل لابن الأثير) والخاص(تجارب الأمم لابن مسكويه)[1] لهذه الفترة مليئة بذكر المجاعات الدورية وأهمها كتاب المقريزي(كشف الغمة بإغاثة الأمة) وفي حوليات من جاء بعده من المؤرخين. فالرعايا ليس لهم حقوق لا في الملكية ولا في إبداء الرأي أو المشاركة في عملية الإنتاج الاجتماعي. وكان هذا من الأسباب الكافية لانتفاء المصلحة في التجديد والتطوير.

فالحكام يتمتعون بسعادة الإنفاق عن سعة والتبذير لحيازة مواد الرفاهية

---

(1) -الأوبئة مثلاً عام 346-و394هج، وحصلت الحرائق 308 و309 و328و332و341 هج، وكما حصلت الفيضانات عام 328و330 و367 و370، وحصل غزو الجراد الذي أتلف المواسم 342هج.نقلا عن محمد اركون نزعة الأنسنة في الفكر العربي-جيل مسكوية والتوحيدي ص 304 -307ترجمة هاشم صالح -دار الساقي الطبعة الأولى 1997م

والكماليات والعيش الرغيد، بينما لا يمتلك الرعايا إلا أن يزدادوا فقراً وجهلاً وتخلفاً. فيتعاظم الانفصال بين الحكام والمحكومين لتتسع سلطات البيروقراطية، ويتخلف الحكام وينصرفوا عن إدارة شؤون الدولة والاقتصاد والسياسة والثقافة، وهمهم الوحيد هو الحفاظ على حكمهم. ويظهر العجز المؤسساتي والقانوني في ممارسات البيروقراطية العاجزة عن إحداث أي قفزة إلى الأمام للتحديث والتطوير، وفي الوعي الذاتي والموضوعي للمرحلة التاريخية. فقد أخر عمل السخرة في الإقطاعيات على نمو هذا الوعي الكامن بالحرية وأجهض الحركة نحو العمل المأجور والتعاقد الحر.

إن مظهر حرية العمل وتطوير الأسواق الحرة وحرية العمالة بشكل خاص لها دلالة تاريخية خاصة في الانتقال من نمط إنتاجي إلى آخر وبخاصة إلى الرأسمالية، وتلازم العمل القائم على السخرة مع المديونية أفضى إلى انعدام الحريات، وإلى العودة إلى الاقتصاد الطبيعي. ولقد قيّم ماركس أهمية التطورات من السخرة إلى العمل المأجور من وجهة نظر تاريخية للعبور من العصر الوسيط إلى العالم الحديث.

ولعب تحكم السياسة بالاقتصاد في عالم افتقدت فيه البرجوازية العربية الأفق الطموح لتحقيق إنجازات سياسية مرموقة مثل (استعادة دولة الخلافة العربية، أو تأسيس دولة مستقلة عن حكم العساكر وفق مبادئ وقواعد الشورى بعدما دمرت كل المحاولات في هذا الاتجاه التي قامت في المدن العربية سواء في الأندلس أو الشام). فاستكانت لحكم دويلات المماليك التي شكل الجيش قوامها ودافعت عن البلاد وكانت القوة الوحيدة القادرة على القيام بهذا العمل في ظل انهيارات المجتمع والخلافة، ثم خضعت للاحتلال العثماني، تاركة السياسة للسلاطين والقادة من العساكر الغازية وزعماء الإقطاعيات والزعماء القبليين. واحتكار السياسة من قبل هؤلاء كان يعني احتكار المنافع والمغانم وملكية الأرض ومن عليها. وقد وصف ابن خلدون في مقدمته أحوال هذه الدول وصاغ انطلاقاً منها نظريته في العصبية والعمران البشري والقوانين التي تتحكم بالسياسة فيها، فوضع العديد من المبادئ والقواعد لما اعتبره سبل الاستقرار والأمن والازدهار من مثل: إن احتكار التجارة من قبل السلطان مضر بالرعايا ومفسدة للجباية. وفي مبدأين مشهورين وضع نظريته عن أسباب التخلف التي شاهدها وسجلها حول تدهور الأوضاع الاقتصادية في الدول العربية والإسلامية التي نشأت على أنقاض الخلافة العربية في الأندلس وفي

العراق والشام ومصر والمغرب العربي.

المبدأ الأول في أن الظلم مؤذن بخراب العمران فكتب يقول (اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرون حينذاك من أن غايتها ومصيرها إنتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب. فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض في الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق أسواقه. وإنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين جائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقصت الأحوال و ابذعر الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق . . فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حالة الدولة والسلطان)[1]. وفي نصه هذا يصف واقع الحال في الدول التي كانت قائمة في عصره في مغرب الوطن العربي ومشرقه.

أما المبدأ الثاني فهو كثرة الجباية والمكوس، وهي من نتائج المبدأ الأول، أي الظلم والعدوان ومصادرة أموال الناس وأرزاقهم(فالمعاش هو ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله، والعدوان هو أخذ ما بيد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه ويسمى مغرماً وجباية. ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق والتسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع. . . والظلم والعدوان ليس فحسب أخذ المال من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم أعم من ذلك وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه ما لم يفرضه الشرع

---

[1] مقدمة ابن خلدون ص 139-140.

فقــد ظلمـــه فجــباة الأموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة. . . . .)[1].

فالدولـــة السلطانية العسكرية الغازية التي احتكرت السلطة السياسية أباحت لنفسها احتكار المؤسسات الاقتصادية، وتخلت عن واجباتها في توفير الأمن في الأســواق وعلـــى الطـــرقات الـــبرية ، وزادت من المغارم و الجبايات، لتلبية حاجاتهـــا المـــتزايدة إلى المال للإنفاق على عساكرها ورجالها ولجمع الثروات والأمـــوال، ومـــا يتبع من شراء الأعوان والتابعين للدفاع عن استمرارها، مما ســـبب الخراب والدمار وإفقار الأمصار من السكان إما بالرحيل والهجرة وإما نتـــيجة الأوبئة والمجاعات، فلا حقوق سياسية إذا لم تكن هناك حقوق اقتصادية وبـــالعكس(إذ إن الـــترابط المتبادل والمتداخل بين الحريات السياسية والحاجات الاقتصـــادية لـــيس هو ارتباطات أداتية بل بنيوية. ودور المشاركة في صياغة اســـتراتيجيات الجماعـــة هـــو دور الأداة المعززة والمساعدة للنهج الاقتصادي والـــدور الفـــاعل البناء في صياغة المفاهيم العامة وبناء الدولة والمجتمع الحر والمـــتطور. [2] . فلقـــد انعكســـت الانهيارات السياسية في انهيارات الاقتصاد .والجماعـــات الحرفـــية والمهنية، فتناقص عدد السكان، وانعكس ذلك على بنية القـــوى العاملة والمنتجة، من حيث الكم والنوع. وهذا ما حاولت التركيز عليه فـــي الدراســـة الأولـــى حـــول دور الحـــروب ضد الفرنجة الغزاة فيما عُرِف بالغـــزوات الصـــليبية للوطن العربي. الدور الايجابي الفعال في خوض حروب الـــتحرير واســـترداد كل شبر وكل مدينة وكل حصن من الأرض العربية التي احـــتلها الغزاة. والدور السلبي والمدمر للثقافة والاقتصاد والإنسان بسبب غياب المشـــروع الحضاري المستقبلي وانهيار الطبقة الاجتماعية حاملة هذا المشروع بعد سيطرة الإقطاعية العسكرية الغازية التي أنتجت التخلف الثقافي والاقتصادي والتكنولوجـــي، باســـتيلائها على الأرض والسياسة والدولة، وقضت على جميع مظاهـــر الحـــياة المدنية بتحويلها السكان إلى رعايا يعملون لحسابها في الريف والمديـــنة، بالسخرة والتكليف بالأعمال، تابعين يعيشون في مدن مغلقة وأرياف معـــزولة مـــنقطعة وضـــائعة تفصلها عن بعضها مساحات واسعة من البوادي

---

[1] *المرجع السابق ص279- 280.*

[2] *التنمـــية حـــرية تألـــيف أماراتيا صن ترجمة شوقي جلال -كتاب عالم المعرفة الكويت حزيران 2004.ص181.*

والجبال والقفار التي كانت يوماً ما عامرة. فإذا هي خراب يباب كما يذكر الرحالة والجغرافيون العرب ومؤلفو قواميس ومعاجم البلدان والمؤرخون العرب والأجانب. في كتابه الصليبيون في الشرق كتب ميخائيل زابوروف المستشرق والمؤرخ الروسي يقول(كانت الحملات الصليبية بالنسبة لبلدان شرقي المتوسط كارثة حقيقية لأن الصليبيين حملوا إليها الخراب في سياق عشرات السنين فاجتاحوا ونهبوا القرى والمدن في آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين. لقد تسبب الغزاة بالانحطاط لمراكز الشرق الأدنى المزدهرة اقتصادياً وثقافياً)[1].

لم يتبدل الاتجاه العام لسير الأحداث بعد هزائم الصليبيين وطردهم من آخر قلاعهم في المشرق العربي، فلم تؤثر إعادة إحياء النشاط التجاري إلى الطريق البري والنهري عبر الفرات، بعد انهيار خلافة بغداد وسقوطها بيد التتار 1258م واستيلائهم على العراق والشام ثم هزيمتهم في عين جالوت 1260م على يد جيش المماليك بقيادة المظفر قطز، لم تؤثر على منحى التراجع والانهيار. فخلال فترة ازدهار قصيرة استطاعت فيها الإرستقراطية القبلية العربية أن تبسط نفوذها على القوافل التجارية المارة عبر طريق الحرير الذي افتتحته الإمبراطورية المغولية عبر آسيا الوسطى إلى الصين ، وتحصل على حصة من العائدات، فانتعشت إماراتا آل مهنا وآل فضل من قبيلة طي في البادية السورية-العراقية اللتان تحالفتا مع دولة المماليك في الحروب ضد بقايا الصليبيين وفي صد الغزوات التترية المتتالية لإعادة السيطرة على بلاد الشام. ثم عادت الأمور لتسير في السياق العام للتدهور والتخلف العام. فقد وصف المؤرخ ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ الذي عاصر احتلال هولاكو لبغداد والعراق وغزو الشام ما حل بالبلاد من خراب، فبكى على أطلالها في الدساكر والقرى المهجورة التي تحولت إلى مراع لخيول الغزاة بعد أن كانت عامرة بالسكان والبساتين والمزارع والحرف والصناعات الدقيقة والمتقدمة. وأشار إلى كيف أُفقرت وأقفرت بعد خراب أقنية الري والسدود والمصانع التي ترويها وتحولت إلى حفريات جافة لا حياة من حولها ولا ماء فيها.

أما ما قام به تيمورلنك في غزوه للشام في القرن الخامس عشر الميلادي فقد ذكر بعضاً منه ابن خلدون الذي كان في دمشق عندما حاصرها جيش

---

[1] الصليبيون في الشرق .ميخائيل -زابوروف- .دار التقدم -موسكو ص338.

تيمور وشهد اقتحامها وهو في صحبته(فقد خرَّب القلعة وطمس معالمها وصادر أهــل الــبلد على قناطير من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلفه هناك صاحب مصر من الأموال والظهر والخيل، ثم أطلق يد النهابة على بيوت أهــل المديــنة فاســتوعبوا أثاثهــا وأمتعتها وأضرموا النار فيما بقي من سقط الأقمشــة والحــرف فاتصلت النار بحيطان الدور القائمة حتى اتصلت بالمسجد الأعظــم)[1]. (وأخــذ تــيمور كل ماهر في فن من الفنون بارع من النساجين والخياطيــن والحجاريــن والنجاريــن والإقياعية والبياطرة والخيمية والنقاشين والقواســين والــناردارية، وبالجملــة فــي أي فن كان وأخذ جملة من العلماء والأعــيان والنبلاء وكذلك فعل كل أمير من أمرائه)[2]. كما يتحدث ابن تغري بــردي عمــا خــربه التركمان في غزوهم لدمشق فيقول (كثرت المصادرات بدمشــق أيــام هذه الفتن810هج، وأُخرجت الأوقاف عن أربابها وخربت بلاد كثــيرة بمصــر والشــام لكثرة التجاريد وسرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطــاع)[3]. وينقل محمد كرد علي عن الأسدي(بأن السبب في خراب الشام في القــرن الثامــن الهجــري الــرابع عشر الميلادي هو النزاع بين قيس ويمن، بالإغراء والتسلط على الفلاحين بالظلم وطلب العاجل والعسف في الحكم والميل مــع القــوي. فاضطر كثير من أهل الزرع والضرع من الفلاحين إلى التمرد والتشــرد، ونهبــت الأموال وقتلت الرجال، وتخلت العشائر وعظمت الفتن بين القبائل وجلا أكثر أهل الزرع والضرع عن أراضيهم، فأوجب ذلك الخراب في كثــير مــن أرجاء الشام، وصارت دمناً يشهد على ذلك خلو الديوان من أسماء القــرى التي صارت مزارع تسمى بالخراب الدائر. إلى أن صار الحكم لمقدمي الفلاحين ورؤساء العشران جمع عشير(وهو لقب أطلق على بعض القبائل التي ســكنت البقاع وجبل لبنان. قال المقريزي عشير الشام قيس ويمن لا يتفقان)[4]. ويذكر نعمان القساطلي في كتاب (الروضة الغناء في تاريخ دمشق الفيحاء)وهو مــن مؤرخي القرن التاسع عشر-أن صناعة السيوف الدمشقية قد انقرضت في دمشــق بعد مذابح تيمورلنك، وقد أجلى أكثر من ثمانمائة شخص فيهم الأعيان وأصحاب الفضل وكل ماهر من النساجين والخياطين والذين يصنعون السيوف

[1] *التعريف بابن خلدون ص347.تأليف ابن خلدون*
[2] *خطط الشام محمد كرد علي ج2-ص 173.*
[3] *المرجع السابق-ص-180.*
[4] *المرجع السابق ص158.*

البواتر ممن اشتهرت دمشق بهم)[1]. وقد ذكر إنجلز في مقدمته للكتاب الثالث من رأس المال لماركس(لقد دُمرت التجارة مع الشرق فعلاً بسبب الغزو المغولي والتركي، وسرعت الاكتشافات الجغرافية والتجارة الكبرى منذ 1492م هذه الخسارة وجعلتها نهائية بالنسبة لأمم حوض البحر المتوسط ولصالح الأمم الأطلسية)[2]. فلقد سيطر اتجاه عام هو التحول إلى البدو نتيجة هذه الأحداث المؤسسة للتاريخ الحديث للوطن العربي معاكساً للاتجاه الذي أسس له الإسلام كثورة وأيديولوجيا وهو الاتجاه نحو المدينة والحضارة.

في إطار هذه التبدلات الجذرية والتحولات الاقتصادية والسياسية، كانت الثقافة العربية-الإسلامية المؤسسة للنهضة العلمية والمعرفية والفقهية التشريعية والفلسفية والشعرية والأدبية، زمن التأسيس الأول تتحول من الإبداع إلى التقليد، ومن التفكر الحر والنظر العميق إلى إعادة إنتاج النص المؤسس، بالتأويل والتفسير على منهج وأصول المؤسسين، فأصبحت هذه عقيدة جديدة التزم بها منتجو الفكر، لتقوم مقام تعميق المنهج والفكر وإنتاج نصوص إبداعية ملائمة لحاجات العصر والأمة. فتعالت سلطة المحدثين والنص المنقول على حساب النص المعقول. فأُحرقت كتب المعتزلة والفلاسفة وكتب الفرق المخالفة ووضعت خارج العقيدة القويمة التي أعاد تأسيسها أبو الحسن الأشعري ومن أتى بعده من أئمة المتكلمين وبخاصة بعد صدور المنشور القادري-الذي أصدره الخليفة القادر بالله العباسي408هج وقُرئ في الدواوين سنة433هج 1041م وكتب الفقهاء فيه خطوطهم وذكروا أن هذا هو اعتقاد المسلمين وأن من خالفه فقد فسق وكفر[3]، وبعد وصول طغرل بك مؤسس الدولة السلجوقية إلى بغداد 1055م – 4471هج، وقضائه على البويهيين الفرس الذين تسلطوا على الخلافة منذ 334-447هج. وضع الخليفة نفسه تحت حماية الغازي الجديد وعهد إليه بالسلطنة والحكم. فتبنى المنشور وعقائده وقد قضى المنشور بتحريم

---

[1] *المرجع المذكور ص132.*

[2] *رأس المال الكتاب الثالث -كارل ماركس الطبعة الأولى -وزارة الثقافة دمشق 1978 م ترجمة أنطون حمصي*

[3] *الكامل لابن الأثير مجلد 7-ص219.وامتثل يمين الدولة محمود بن سبكتكين أمر القادر بالله وبث كلمته في عماله في خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم ونفاهم وأمر بلعنهم على المنابر وشردهم من ديارهم. تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن ج3-ص 98*

فكـر المعـتزلة ومفكريهم والفلسفة والمنطق وقام الوزير نظام الملك فيما بعد بتأسـيس المدرسة النظامية لتدريس وترسيم هذه العقيدة ، وقضي على مدرسة حـران الفلسفية في هذا السياق. فبرزت السلفية وهي التعلق بالسلف الصالح أي بـالعودة إلى جيل الصحابة الأوائل واتباعهم لا الإبداع انطلاقاً منهم، وهذه هي عقيدة أهل الحديث.

كمـا ظهـرت اللاأدرية والريبية والشكية التي تطعن في مصداقية المعرفة العقلـية، لتتخلف الثقافة تلك عن تقديم أجوبة صحيحة على الإشكاليات المعرفية المطـروحة، وفي مقدمتها طبيعة وجوهر الأسباب التي أوصلت إلى الأوضاع الكارثـية التـي آلـت إلـيها الدولة والمجتمع العربيين. وكان الشكاك العرب المسـلمون قد أسسوا مدرسة فلسفية –كلامية تقول بتكافؤ الأدلة، أي عدم القدرة والإمكانـية لمعرفة يقينية على وجه الدقة وتمييزها عن الأوهام التي يُظن أنها الصـواب وهي ربما غير ذلك. فلا سبيل في هذه الحال لمعرفة الحقيقة. ولذلك يجب تعليق الأحكام، لأن معارفنا التي اصطلحنا على تسميتها بالعلم هي مجرد تصـورات، ولا حقـيقة موضوعية على وجه اليقين ، بل تهيؤات ينزلها العقل مـنزلة العلـم بدون برهان قاطع. ونتج عن هذه المدرسة موقف من اللامبالاة تجاه الأحداث السياسية والعلمية. كما أدى نفي وجود قوانين وطبائع في الأجسام وفي العالم إلى العدمية العلمية وإلى العزوف عن العلم الطبيعي الذي هو أساس كـل تقـدم معرفي وتقني وعقلاني. وبذلك تأسس زمن ثقافي جديد معاد للعلوم الطبيعـية وللفلسفة ليصبح منهجاً ثابتاً في العقيدة الأشعرية التي أصبحت عقيدة أهل السنة بعد أن جعلها السلاجقة عقيدة الدولة والجماعة القويمة. فنفيت السببية والعلـل وأُبعـد العقـل الإنسـاني عن معرفة الحقائق البرهانية والكلية بل و الجزئيات. وسيطرت هذه العقيدة والإيديولوجيا على الثقافة والفكر وهيمنت على الموضوعات الثقافية .

وأكمـل الغزالـي و الباقلاني والفخر الرازي هذه المنظومة الفكرية. ولم يـنجُ ابـن خلـدون من أثرها في مقدمته التي انتهج فيها منهجاً علمياً وعقلانياً موضـوعياً، ووجد نفسه مضطراً لمسايرتها خوف الاتهام بالكفر والخروج عن أهـل السنة والجماعة، فقال عن العلم الطبيعي والفلسفي(إنه واد يهيم فيه الفكر ولا يخـرج مـنه بطائل ولا يظفر بحقيقة) وما أوتيتم من العلم إلا قليلا، ولذلك أُمـرنا بقطـع الـنظر عـنها، وإلغائها جملة والتوجه إلى مسبب الأسباب كلها وفاعلها وموجدها لترسيخ صفة التوحيد في النفس. فاتهم إدراكك ومدركاتك في

الحصـــر واتبع ما أنزل الشارع من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك واعلـــم بمـــا يـــنفعك لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلـــك)[1]. وزاد الأمـــور تعقـــيداً أزمة الفلسفة العربية، التي لم تستطع تجاوز الفلسفة الأرسطية، أو المزيج الذي حاولت تركيبه من الإفلاطونية والأفلوطينية المحدثـــة و الأرســطية، وأعادت إنتاجه بأطياف استشراقية. مما عمق أزمتها المفهومـــية. وأفصـــحت أزمة علم الكلام المعتزلي الذي تحول على المتكلمين الأشـــاعرة إلـــى أداة سفســطائية للجـــدال ضد الفلسفة والعلم الطبيعي والعقل. أفصـــحت عن حدود المناهج الجديدة التي جعلت هدفها هدم عقل الخصم وليس بناء فكر جديد. فالفلسفة وعلم الكلام لم يستطيعا تطوير موضوعات الميتافيزيقا وطرق التفكير العلمي و موضوعات علم السياسة ولا نظرية المعرفة.

فتقدمت علوم اللغة عند ابن فارس وابن جني لتصبح هي محور العلم. لقد تغلغـــل نظـــام اللغـــة في نظام الفكر حيث إن اللغوي يحيل إلى الفكري ليعرفه ويحـــدد له سماته وصفاته وهويته. لتصبح اللغة كلسان ونسق وكلام هي أساس الفكـــر الدينـــي المـــثقل بالموروث والثقافة المأزومه بانهيارات الواقع السياسية والاقتصـــادية والاجتماعـــية ، لتصـــبح علوم التفسير والتأويل والتصوف هي الـــثقافة. لـــيعاد ديـــوان الشعر العربي الجاهلي والمخضرم والأموي والعباسي بأفكـــاره وهمومـــه ومنظومـــته القيمية والمعرفية والأخلاقية، ليصبح المؤسس للزمن الثقافي الجديد.

وقـــد حالـــت هـــذه الملابسات دون طرح الإشكاليات المعرفية على العقل المشغول أساساً ، بعلوم الدين بعد أن وصل العقل التأويلي إلى طريق مسدود ، فالفكـــر منغلق على ذاته يتحرى هويته في مساجلات كلامية مع الفرق المختلفة التـــي اخترعـــت لهـــا مرجعيات خاصة. وأدار ظهره للعالم الخارجي والواقع المعـــاش ومشكلاته. ومنغلق في نفس الوقت على أزمانه وأزماته ونسقه والفكر الآخـــر، بمـــا لا يدع أية إمكانية للخروج من هذا الوضع إلا بالتجاوز إلى فكر جديد وإشكاليات معرفية جديدة، فاختار أسهل الحلول وأسوأها وهو التخلي عن مسؤولياته الإبداعية، والاحتماء بالتراث. وهذا هو الحل الذي اخترعه أبو حامد الغزالـــي إمام أهل السنة والجماعة والصوفي والفيلسوف والفقيه، معلناً انحيازه إلـــى علـــوم الديـــن على حساب علوم الدنيا التي انطلق البحث فيها من الثقافة

---

[1] المقدمة ص459-460

العربية إلى الثقافة الجديدة في أوروبا، التي حملت لواءها لتكون أساس النهضة والثورة والحضارة الحديثة. في حين تخلفت الثقافة العربية الإسلامية التي أصبح هدفها ترويع الإنسان وترويضه للعيش في ظل الدولة المستبدة والأمراء المتغلبين أمراء الشوكة والعساكر المرتزقة. فطويت صفحة المقاومة والجهاد، التي انتعشت في فترة الحروب ضد الفرنجة، وعبرت عن نفسها بالخطاب السياسي والديني، والشعر الحماسي وفتاوى الجهاد، وكتب السير والملاحم الشعبية، ليعلو شأن الثقافة الصوفية وأعلام التصوف في هذه الثقافة ، بما يشير ويشهد على موت الإنسان العربي، بسلبه المسؤولية والعقل والحرية، واختياراته الإرادية التي تعبر عن جوهره كمصير يبحث عن تحققه، وبجعله تابعاً في الاقتصاد وفي السياسة والثقافة لمنظومة عقائدية وفكرية، تجبره على العيش والعمل وفق ما تزيده السلطات المعرفية والسياسية والعسكرية المتحالفة، لسحقه وتدميره ككائن حر.

فالأزمة التي أفرزتها الانهيارات في الخلافة والاقتصاد والثقافة، كأنها حولت كل شيء، وعكسته إلى ضده كما أرخ لها ابن خلدون في المقدمة، فكتب(هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف[1] الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها وجاء الدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل. . . وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث)[2] .

أعاد الغزالي صياغة وتعريف العقل مبتعداً عن مفهومه الفلسفي في الثقافة العربية الإسلامية الذي أسس له كبار المتكلمين من المعتزلة والفلاسفة العرب المسلمين من قبل، بعد أن ترك الفلسفة وتحول إلى التصوف، فجعله مجرد أداة أو (اسم يطلق على بعض العلوم الضرورية ذاع مفهومها عند الأشعري والقاضي أبو بكر الباقلاني بضرورة الضرورات أو وجوب الواجبات أو جواز

---

[1] *أي أصابها الحيف وهو الظلم والجور*

[2] *المقدمة ص32-33.*

الجائـزات واستحالة المستحيلات ووجوب الكل أكثر من الجزء وجواز الممكن أن يكـون أو لا يكون واستحالة أن يكون الجزء أكبر من الكل والقوة التي يتهيأ بها الإنسان لإدراك العلوم النظرية والعقليات والأصول والأحكام والقوانين التي تنظم البحث في الطبيعة والعلوم المستفادة من التجربة) [1] . وهذه الأداة الشكلية كمـا عرفها الغزالي غير قادرة على إنشاء العلم والوصول إلى الحقيقة لأنها لا تستطيع معرفة الأسباب والعلل الكامنة في الوجود، فهي جزء من منظومة علم الكـلام الأشـعري المنقح، تفيد منهجياً في السجال والقياس، لتهديم فكر الخصم أكثر من أهميتها كأداة معرفية موثوقة.

فالحاضـر المأزوم كما يتبين لنا من هذه الثقافة لم يدفع إلى المستقبل كما هـو منتظر بل صار يحيل إلى الماضي الذي أُحيط بهالات القداسة والأساطير المـبجلة له علـى أنه هوية الأمة ووحدتها. فالأمل كله صار معلقاً ببعث ذلك الماضـي مـن أجل ضمان المستقبل المشكوك بأمره، لأن الحاضر عاجز عن تهيـئة الشـروط المطلوبة لتجاوز الأزمة، التي هي أزمته. فغربة الإنسان عن تاريخـه الأيديولوجـي المصـنوع خصيصـاً لهذه الغاية ، جعل المنظومات التاريخـية بالـروايات والأسانيد التي كثرت في هذا العصر ، أشياء بلا ذاتية، فـتحول الـتاريخ إلى رموز و ميثيولوجيا تجعل التفكير بالمستقبل مجرد ترديد هـذه المقـولات لخدمة غرض وحيد هو استعادة ذلك المقدس بالروح والإحياء التمثيلي فحسب.

إن وضـع علوم الدنيا مقابل علوم الدين وتحريم العمل بالأولى ، من أجل إحـياء الثنائـية وجعلها محور العلم والثقافة وإحياءها والعمل على صيانتها. قد أخل بالمعادلة الثقافية التي أنتجها العقل المؤسس لهذه الثقافة بالتأكيد على الجمع بيـنهما في وحدة متكاملة غير منفصمة. وكان انعطافاً موضوعياً ومنهجياً نحو الـتقوقع والانغـلاق، خلّـف التخلف العلمي والتقني وترك آثاره المدمرة على الاقتصـاد والسياسـة، وأنتج التبعية التي جعلت تاريخنا سلسلة من المحاولات الفاشـلة على العموم تخللتها محاولات ناجحة للحاق بمن سبقنا. في حين حملت أوروبا الغربية راية العلم الطبيعي والفلسفة والتقنية والتحديث .

---

[1] *مفهوم الحد في مقدمة المستصفى في الأصول للغزالي –آلان ردمير –مجلة الفكر العربي– آذار 1986م*

-2-

حاولت في الدراسة الثانية حول (التبعية وسياسات التنمية المستقلة في عصر العولمة) إنشاء مفاهيم محددة عن التبعية، في المجال الاقتصادي والسياسي والثقافي والتقني، واقتراح استراتيجيات معينة للخروج من مأزق التبعية. وتعرضت لمظاهر التبعية وتظاهراتها في المجتمع التابع، وللعولمة، وللإمبريالية والاستعمار والرأسمالية، وأنظمة إنتاج وأنماط وتشكيلات اجتماعية وسياسية، تأتي في قمتها الإمبراطورية الأمريكية، وقاعدتها مجموعة من الدول المتقدمة المشاركة، والدول الأقل أهمية والتي تقوم بدور الوكيل السمسار في الإمبراطورية. فالعولمة هي إيديولوجيا النخبة الأمريكية من رجال الأعمال والسياسيين الأمريكيين، كما يعرفها بريجينسكي في كتابه الاختيار، وتلعب الدولة الأمريكية دور العامل المتحمس لنشر العولمة. وتنطلق منها كمذهب وإطار مرجعي لتحديد العالم المعاصر وعلاقة أمريكا به. فتستخدم منظمة التجارة العالمية (الغات G A T)، والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي كمظاهر مؤسساتية على النطاق العالمي لتكريس العولمة وجعلها نافذة الأثر في العلاقات الاقتصادية والمالية الدولية على النطاق العالمي.

إن التوحيد النمطي للعالم يعود بالنفع على القوة المسيطرة. فالسوق العالمية هي نتاج سياسات مخطط لها عن وعي. فالإمبراطورية الأمريكية تجعل من الديموقراطية والسوق متصلين متكاملين، وتقوم بتصدير هذه الثقافة الصناعية كمعايير قيمية لطبيعة السلطة والدولة في العالم. مع إعطاء الأولوية للقيم الاقتصادية، بحيث تظهر الشركات الإمبريالية الشاملة على المستوى العالمي لمن هو الأكثر قدرة على المنافسة على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، وصياغة عقد عالمي حديث وجديد، عن طريق المؤسسات الأهلية الدولية والشركات متعددة الجنسيات، واللجان والمنتديات الاقتصادية تكريساً للعولمة كاستراتيجيات وثقافة أمريكية واحدة. فاللجنة الثلاثية التي هي نخبة متميزة ذات نظرة عالمية وولاء يتخطى الحدود تتميز بأنها تتكلم الإنجليزية بلكنة أمريكية ونمط حياة كوزموبوليتاني، والتزام بمكان العمل الذي هو مقر الشركة متعددة الجنسية والمؤسسة المالية. . . وبات من الشائع الآن أن نخبة مدراء تنفيذيين غير محليين رفيعي المستوى في مثل هذه الشركات هم الذين يديرونها حتى أن 20% من الشركات الأوروبية يديرها أفراد كانوا يعتبرون من الأجانب ذات يوم. كما أصبح اللقاء السنوي للمنتدى الاقتصادي العالمي (منتدى دافوس) في

الواقع جلسة حزبية للنخبة العالمية الجديدة-قادة سياسيون وأقطاب مال وأرباب تجارة وأقطاب الإعلام والأكاديميون البارزون ونجوم الفن-لنرى بروز مجتمع عالمـــي له مصلحة مشتركة في الاستقرار والازدهار ، يتحكم أقطابه ب70% من التجارة العالمية، وعاصمته المالية الاقتصادية هي أمريكا). [1]

إن إيديولوجيا العولمة كمرحلة أعلى لتطور الرأسمالية العالمية تعتمد على سلســـلة من المتناقضات والمغالطات المفيومية والإجرائية، فهي من جهة تستند إلـــى التطورات التكنولوجية في مجال الاتصالات وثورة المعلومات والأسواق المالـــية الدولـــية وكـــثافة الصـــفقات المالية، وإلى ثقافة الاستهلاك والمعايير الأمريكـــية والشركات متعددة الجنسيات، وتجاوز سيادة الدول، في نفس الوقت الـــذي تجعـــل الإمـــبراطورية الأمريكية من أمنها واقتصادها وقوتها العسكرية الشاملة والمتفوقة، مسألة قومية داخلية لا تسمح لأي كان التدخل فيها. وبمقدار إنجـــاز تحولهـــا إلى إمبراطورية تعمل على تهديم سيادة الدول وتدمير هويتها القومـــية، لجعلهـــا توابع تدور في فلكها من أجل خدمة سياساتها واستراتيجياتها الكونـــية. وتتـــبدل ديموقراطيـــتها لتصـــبح فـــي خدمـــة الأوليغاركية والنخبة التكنوقراطية والإعلامية والمالية التي تسيطر على الدولة الاتحادية.

يقول كينز إن قوى السوق العالمية هي أقوى ما يدمر الديموقراطية ويعقب نعـــوم تشومســـكي على هذا بالقول بأنه لم يبق من الديموقراطية الأمريكية إلا الاختـــيار بيـــن السلع والبضائع، وفي الوقت الذي تعلن فيه النخبة الحاكمة من اليميـــن الأمريكـــي المحـــافظ والليبرالـــية الجديدة أنها تريد نشر الديموقراطية الأمريكـــية فـــي أنحاء العالم التابع. تقوم بسن القوانين للحد من الحريات العامة الفردية والخاصة تحت شعار مكافحة الإرهاب والحفاظ على الأمن القومي كأي بلـــد مـــن بلـــدان العالم المتخلف. وبخاصة بعد الإجراءات التي اتخذتها وزارة العـــدل الأمريكـــية بعد أحداث أيلول 2001م. بينما تقوم المؤسسات الإعلامية العملاقة التي تشكل احتكارات عالمية بمهمة خلق الرأي العام العالمي بما يخدم مصالح الطبقات والنخب والشركات متعددة الجنسيات التي تقود العولمة ويعزز مواقعها في السلطة الإمبراطورية ومن هيمنتها على الاقتصاد العالمي. وتؤسس للمهـــد الثقافـــي الـــذي يحتضـــن وينمي هذا الاتجاه، ويكمل عمل المؤسسات

---

[1] *راجـــع الاختيار =زبيغنيو بريجنسكي ترجمة عمر الأيوبي دار الكتاب العربي 2004-ص 153-154.*

الاقتصادية والسياسية والعسكرية لتصبح العولمة شيئاً ملموساً في حياة كل إنسان على الكرة الأرضية وتشدد من علاقات التبعية على جميع الأصعدة.

لقد توصلت إلى نتائج محددة من أن التبعية هي أيديولوجيا تشبه المغلوب بالغالب أكثر مما هي نظام إنتاج مفروض، وأن الاقتصاد التابع هو سياسة طبقات معينة في البلدان التابعة وأن خيارات التنمية المستقلة ما تزال مفتوحة، وهي سياسات واستراتيجيات وثقافة في المقام الأول. وناقشت من وجهة نظر مخالفة الأفكار السائدة والتي يروج لها إيديولوجيو العولمة بالحديث حول المعجزات الاقتصادية للتنمية الرأسمالية في سياق التبعية للدول الرأسمالية المتقدمة (تجارب النمور الأسيوية تايوان وهونكونغ وسنغافورة وتايلاند- وماليزيا في جنوب شرقي آسيا وكذلك المعجزة اليابانية.

وخلصت إلى وجهة نظر تقول إن سياق هذه المعجزات كان مخططاً وفي صلب البرامج الاقتصادية للإمبريالية الأمريكية وحليفاتها بعد الحرب العالمية الثانية في إطار إعادة تنظيم وتقويم ومعالجة الأزمات الاقتصادية التي كانت تعاني منها الرأسمالية الاحتكارية، وتوزيع القوى بين المراكز الإمبريالية النافذة، وفي سياق الحرب الباردة التي أعلنتها الإمبريالية الأمريكية ضد الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية. ولعبت فيها الإمبريالية الأمريكية بمشاريعها الخاصة للمعونة الاقتصادية والمالية لما سمته مكافحة التوسع الشيوعي في العالم الثالث دور القائد والمدير للانتشار الرأسمالي باستخدام برنامج المساعدات الخارجية الاقتصادية والمالية ، والرساميل والقروض المخصصة في البنك الدولي للإنشاء والتعمير وصندوق النقد الدولي، لتوظيفها في بلدان معينة تكون في مواقع حساسة في مواجهة الثورة الاشتراكية.

كانت استراتيجية الولايات المتحدة بصفتها زعيمة العالم الرأسمالي تقوم على أيديولوجيا اجتماعية اقتصادية سياسية محتواها أن الاستقرار السياسي في بلدان العالم السائرة على طريق التحديث سيكون نتيجة طبيعية وحتمية لإنجاز النمو الاقتصادي أولاً ثم الإصلاح الاجتماعي ثانياً، وخلال الخمسينات من القرن العشرين كان الافتراض السائد للسياسة الأمريكية أن النمو الاقتصادي- أي القضاء على الفقر والجهل والمرض كان ضرورياً من أجل التطور السياسي ، وكانت السلسلة السببية في التفكير الأمريكي هي أن المساعدة الاقتصادية تعزز النمو الاقتصادي والنمو الاقتصادي يعزز الاستقرار السياسي. وكانت هذه العقيدة راسخة في تفكير الاستراتيجيين والرسميين في وكالة

المساعدة الاقتصادية والوكالات الأخرى المهيمنة ببرامج المساعدات الأجنبية[1]، مثل مشروع مارشال في أوروبا الغربية الذي مهد الطريق لمجاميع ضخمة من الاستثمارات الأمريكية الفردية المباشرة واضعة الأسس لنشوء الشركات متعددة الجنسيات[2]، والبرامج الأخرى للمساعدات الخارجية الأمريكية والقروض والمنح المالية للدول التابعة في بلدان العالم الثالث في آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا. وقد اتبعت الشركات متعددة الجنسيات استراتيجيات جديدة لتصدير رأس المال إلى البلدان التابعة للتوسع في أسواقها المحلية والاستفادة من رخص اليد العاملة بإقامة الصناعات غير النظيفة فيها. وعندما حاولت الدول أن تحد من الأرباح القابلة للتصدير، عمدت هذه الشركات إلى اتباع سياسة إرسال العائدات للخارج ، من خلال المدفوعات مقابل التراخيص وبراءات الاختراع وامتيازات حقوق الملكية والعناصر ذات الصلة، وهذه الوسائل المؤسساتية مع زيادة مديونية الدول الواقعة تحت الاستغلال للوكالات والبنوك العالمية التي تسيطر عليها في الواقع الدول الرأسمالية الكبرى غيرت الأشكال الرئيسة للاستغلال[3]. واستخدمت كذلك المنظمات الأهلية ذات الطابع الخيري والمدني والتبشيري مثل فرق السلام والتحالف من أجل التقدم ، ومشاريع النقطة الرابعة في الباكستان والهند والشرق الأوسط، والمشاريع الخاصة بإعادة الإعمار في جنوب شرقي آسيا (اليابان وكوريا الجنوبية، وتايوان وسنغافورة) ومن ثم مشاريع التنمية المبرمجة في ماليزيا وتايلاند، وإندونيسيا بعد انقلاب سوهارتو 1965م على النظام الوطني الذي أسسه أحمد سوكارنو، والذي أطاح بالقوى الوطنية والحزب الشيوعي وذبح مئات الآلاف من الفلاحين والمناضلين من العمال والطلاب والعسكريين.

هذه البلاد التي اعتبرت نقاط استناد في مواجهة حركة التحرر العالمية والحد من نفوذ الثورة الصينية الشيوعية في آسيا، والثورتين الكورية والفيتنامية، وعلى الرغم من التنمية الداخلية المستقلة في هذه البلدان فإنها تظل مرتبطة بالدول الرأسمالية العالمية بذلك النوع من الارتباط -التبعية

---

[1] *من الحداثة إلى العولمة -صموئيل هنتنجتون الحداثة والتنمية والسياسة 1971م والنظام السياسي في المجتمعات المتغيرة 1968م ج 1-ص210 مرجع سبق ذكره ترجمة سمر الشيشكلي.*

[2] *الهيمنة أم البقاء نعوم تشومسكي ترجمة سامي الكعكي ص 177.*

[3] *من الحداثة إلى العولمة-مرجع سابق جزء (1)ص268 .*

الاقتصـــادية- لأن إنـــتاج أدوات الإنـــتاج (التكنولوجـــيات)يظل متمركزاً في الاقتصـــادات الرأســـمالية المتقدمة وبخاصة في الولايات المتحدة ، هذه الميزة التكنولوجـــية الـــبالغة الأهمـــية كشكل للحفاظ على السيطرة والتحكم في عملية تراكم رأس المال. لقد قدمت لها كل الوسائل المادية والعسكرية والمالية لإنجاح تجاربـهـا الـتـنموية لـتكون نقاط جذب للبلدان المترددة أو السائرة على طريق التنمـــية الوطنية المستقلة أو الاشتراكية[1]. في نفس الوقت الذي كانت تعمل فيه علـــى تقويض تجارب التنمية الوطنية المستقلة باستخدام الوسائل العسكرية بشن الحـــروب المباشـــرة علـــيها أو بإثـــارة الحـــروب الأهلية وتشجيع الانقلابات العســـكرية، أو عـــن طـــريق الحروب السرية القذرة لتخريب مشاريع التنمية الزراعية والصناعية، أو منع القروض والاستثمارات المالية فيها.

وقـــد نجحـــت في استراتيجيتها المزدوجة تلك، وأنجزت نصراً استراتيجياً بإســـقاط تجارب التنمية القومية العربية في مصر وسوريا والعراق، والجزائر، وفـــي بقية أنحاء العالم في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية تمهيداً لإسقاط الدولة الاشـــتراكية فـــي الاتحـــاد الســـوفييتي. فالتبعية في ظل العولمة ستكون شاملة ومطلقـــة، إلا إذا اســـتطعنا ســـلوك اســـتراتيجية متمـــيزة تجمع بين الاندماج والاســـتقلالية معـــاً فـــي سياق مشروع ثقافي وقومي للتنمية المستقلة، شرحت مـــنطلقاتها فـــي هـــذه الدراسة، وتقدمت لتوضيحه بمواد محددة قد تكون صالحة لاستراتيجية الاندماج والاستقلال.

وأتبعـــت البحث في التبعية ببحث عن حروب العولمة الاستباقية والحرب العادلـــة التـــي جعلتها الطغمة الحاكمة من اليمين المحافظ الجديد في الولايات

---

[1] التجربة الآسيوية بعد الحرب العالمية الثانية برهنت أن البلدان التي جرى تحديثها في وقت ســـتأخر تتمـــتع بامتـــيازات تجعلهـــا تـــتفوق بـــالقوى الصناعية كما توقعت النظريات الليبرالـــية.وهي شراء التكنولوجيا الأحدث من الولايات المتحدة- التخطيط من قبل الدولة الليبرالـــية الديموقراطـــية للاســـتثمارات فـــي القطاعـــات الأكـــثر تقدماً لدخول السوق العالمـــية)نهايـــة الـــتاريخ فوكوياما مرجع سبق ذكره.وينسى فوكوياما أو هو يتناسى أن الولايات المتحدة لا تبيع تكنولوجيا متقدمة لكل البلدان، وهي تفرض حظراً على تصديرها إلا للبلدان التي ترتبط بها. و قد توصل العالم الاقتصادي كاردوسو البرازيلي إلى أنه من الممكـــن في أوضاع معينة توقع التنمية والتبعية معاً، ولكن روابط التبعية ستظل تتحكم باقتصادات التوابع.)-من الحداثة إلى العولمة-الجزء الأول كتاب عالم المعرفة -الكويت- رقم 309 عدد تشرين الثاني 2004-ص270

المتحدة الأمريكية استراتيجية عليا لشن الحرب بدون أسباب موجبة، ونقضاً صريحاً ومخالفاً لميثاق الأمم المتحدة ضد أية دولة أو منظمة أو حزب تقرر أنه عدو لها، فطالما اعتبرت نفسها هي الأقوى وهي التي تحوز على النموذج الحضاري والثقافي الأرقى فهي قد شرعت لنفسها أن تخضع كل من يخالفها الرأي والثقافة، وأن تشن الحرب عليه لجعله يستجيب للمعايير والقيم التي قررت أنها الأمثل.

الدين والقومية والثقافة أي مجمل العادات والتقاليد الأخلاقية لشعب ما بالمعنى الواسع قد فسرت تقليدياً على أنها عوائق أمام إقامة مؤسسات الديموقراطية الناجحة وأمام الاقتصاد الحر والسوق الرأسمالية[1]. وبما أنها كذلك فلا بد من كنسها أو أن تلاءم نفسها لتستجيب لمعايير الحداثة الرأسمالية. وسلسلة الحروب الاستباقية هي تاريخ هذه الرأسمالية الإمبريالية للتغلب على أزماتها سواء الحرب على ما تسميه الإرهاب أو امتلاك أسلحة الدمار الشامل. فقد حاربت حركات التحرر الوطني تحت هذا الشعار طيلة العصرين الاستعماري والإمبريالي وشنت الحملات العسكرية والاقتصادية تحت شعار محاربة الفقر والأمراض المستعصية ومن أجل نشر المدنية والحضارة وهي في الحقيقة حروبها من أجل الأسواق المفتوحة وللوصول إلى المواد الأولية والأيدي العاملة الرخيصة والسيطرة على منابع الطاقة(الفحم الحجري سابقاً والنفط حديثاً). وستظل في حالة حرب معلنة طالما ظلت موازين القوى العالمية تميل لصالحها. ولذلك فعلى شعوب العالم أن تتحد في جبهة عالمية للتساند والتعاضد في مواجهتها مهما كانت الشروط والظروف والتضحيات.

-3-

-أ-

أما الدراسة الثالثة فهي البحث في الثقافة العربية المعاصرة ثقافة التبرير، وثقافة التغيير، ثقافة التبعية في ظل العولمة الأمريكية، وثقافة المقاومة والتحرر الوطني والقومي.

---

(1) نهاية التاريخ والإنسان الأخير–فرانسيس فوكوياما–ترجمة مركز الإنماء العربي بإشراف مطاع صفدي وترجمة الدكتور فؤاد شاهين والدكتور جميل قاسم ورضا الشايبي–بيروت 1993م ص 29.

بداية اعتبرت أن الإشكالية في وعي الآخر لدينا هي إشكالية تأسيسية، ففي ثقافتنا المتوارثة ظل الآخر غير محدد الهوية، وظلت صورته المرسومة في مخيلتنا الاجتماعية هي التي تحدد موقعنا الثابت تاريخياً تجاهه، فعلى الرغم من تخلفنا المطلق عنه منذ عصر النهضة الأوروبي الذي أخذت معالمه تتضح منذ القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلاديين، وانطلاقاً من عصر الثورة الصناعية في القرن السابع عشر وما تبعه من القرون حتى الوقت الحاضر. وقد اتسعت المسافة بين تخلفنا عنه وتقدمه علينا، وما زال وعينا به ملتبساً بموروثنا الديني، باعتبار ما هو خارج دار الإسلام متخلفاً ومتأخراً وعلينا ألا نتشبه به أو نقلده مهما كان، لأنه قد يضر بعقيدتنا وديننا.

ومنذ القرن الثامن عشر وبداية الغزو الأوروبي الحديث للوطن العربي بعد الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا علينا في العصور الوسطى، وابتداءً بحملة نابليون بونابرت على مصر وسوريا عام *1798*م. جاءت الصدمة الكبرى التي هزت الوجدان والعقل والقناعات المسبقة عن الوعي بذلك الآخر . كما عبر عنها المؤرخ العربي المصري الجبرتي الذي عاصر وأرخ لها. فقد ظلت القناعة بأنه لا يستطيع قهرنا منذ انتصرنا عليه في الحروب الصليبية، لأنه أدنى منا في الإيمان بالعقيدة ولأن ديننا آخر وأكمل الأديان وثقافتنا وتقاليدنا وعاداتنا ومعاييرنا الأخلاقية هي الأكمل، ونحن الأشجع في المواجهة وبذل النفس والتضحية. ومع أن نخبة من رجال الدين ومن البيروقراطيين الذين زاروا أوروبا واطلعوا على حياة وتقاليد وحضارة وثقافة هذا الآخر إما للدراسة وإما للتجارة وإما كممثلين دبلوماسيين، أدركوا حجم تفوقه وتقدمه في كل المجالات، وتخلفنا المقابل، ابتداءً برفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومن أتى من بعدهم، وعلى الرغم من ذلك فلم تعدل ثقافتنا من نظرتها إليه ولم تصلح من مقاييسها لمواجهة الفجوة الحضارية التي أخذت تتسع بيننا وبينه. فالعلم والتقنيات الصناعية الحديثة والمؤسسات الاقتصادية -المصانع والشركات ووسائل الاتصالات التلغراف واللاسلكي والنقل البحري(السفن المسيرة بالبخار بدل الأشرعة والهواء)- والبري (سكك الحديد والقطارات التي تستخدم الفحم الحجري وفحم الخشب كوقود لتوليد البخار)، والأفكار الحديثة حول السياسة والدولة والإنسان وحقوق

الأفـراد والجماعـات والمؤسسـات المدنـية والأهلية والشركات الاقتصادية، وأسـاليب العمـل البيروقراطـي في الدولة والحكومة ، والأحزاب السياسية، والـنظريات الاجتماعية الليبرالية الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، والفلسفات الحديـثة، وأنظمـة الحكـم مـن الملكية الدستورية إلى الجمهورية، والدستور والقوانيـن التـي تنظم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقضائية. كل ذلـك أدهـش هذه النخبة التي تيسر لها العيش والدراسة لتنهل من هذه المدنية الجديـدة مـن مراكزها الرئيسة. ولتقارن في الوعي وفي اللاوعي بين ما هي عليه أوروبا الغربية حينئذٍ من تطور وحضارة وثقافة وقوة اقتصادية وعسكرية وبيـن حال البلاد العربية الغارقة في الأمية والجهل والفقر والضعف والاستبداد والتخلف العلمي.

وتـتوارد إلـى الذهـن فوراً تلك الصورة الزاهية للتقدم العربي والتخلف الأوروبي في عصر هارونٍ الرشيد وشارلمان الإمبراطور الكارولنجي، صورة الآخـر التـي ظلت مخيالاً يدغدغ عقول وعواطف العرب (أوروبا الغارقة في الجهل والظلمة الفكرية والحضارية والثقافية. مدنها الغارقة في الوحول، وأهلها الأمـيون، حـتى النخـبة التي كانت تحيط بالإمبراطور التي أُصيبت بالدهشة والخـوف عندما سلمهم الوفد العربي الزائر في سفارة لتقوية الصلات السياسية وعقـد تحالف بين هارون الرشيد وشارلمان ضد بيزنطة العدو اللدود لشارلمان ولهـارون الرشيد وقرطبة الأموية العدو المنافس للرشيد، والجار القوي المهدد لشـارلمان، عـندما سـلمهم السـاعة الدقاقة التي تعتمد على مبادئ ميكانيكية معـروفة، ومع دقة كل ساعة جديدة كان يخرج فارس شاكي السلاح معلناً قدوم السـاعة التالية. فهم لم يصدقوا ما تراه أعينهم وتملكتهم الحيرة في طبيعة هذه الآلة الجهنمية التي اخترعها العرب، وجاؤوا بها للإيقاع بالإمبراطور ورجاله، وقـالوا لعلهـا حيلة وخدعة للتأثير على معنوياتهم لجعلهم تحت تأثير الصدمة يسـتجيبون لشروط الرشيد واستراتيجياته الأوروبية لضرب عدويه في بيزنطة والأندلس.

وقـد عكس هذا التفاوت في التقدم العلمي والثقافي بين بغداد عاصمة الدنيا حينها ذات الخمس والستين ألف حمام والشوارع المبلطة والمضاءة ، والمكتبات العامـة المليـئة بشتى أنواع التصانيف من الكتب في العلوم والفلسفة، والمدن الأوروبية المتخلفة التي كانت أشبه بالقرى المعزولة لا مدارس فيها ولا مكتبات ولا شوارع. إذ ظلت هذه الصورة تملك من الثبات والسبات في ذاكرتنا العربية

مــا شــاء لهــا تخلفنا أن يخلدها. فكأن العالم لا يتغير، وعجلة الحضارة لا تتحرك والأمــم لا تــتطور. فقد تغيرت أوروبا كثيراً بالنهضة والثورات السياسية والعلمية والصــناعية. بينما تخلفنا نحن عن التقدم والتطور، هذه المفارقات في وعي النخبة العربــية، لطبــيعة المشكلة والإشكالية جعلت حركتنا للحاق بهذا الآخر سلسلة من المحــاولات غــير المنتجة بل والمتعثرة لأسباب ذاتية وموضوعية. في مقدمتها أن العوائــق والعقــبات المانعــة كانت بنيوية تتعلق بنظام السلطنة العثماني الاستبدادي المتخلف الذي أخضعنا وفرض علينا العزلة والجهل والركود وعمل على حذفنا من الــتاريخ كأمــة لمــدة تــزيد عن خمسمائة عام. وتتعلق كذلك ببنية الثقافة العربية المــتوارثة والتي سيطر عليها التبرير والتقليد، وبنية مجتمعنا العربي التي لم تتطور بســبب التخلف الاقتصادي والسياسي ، والاتجاه المعاكس للحضارة بسيطرة البداوة على الإقليم الجغرافي العربي في ظل الاحتلال العثماني.

ب-

إن إعادة اكتشاف الهوية العربية وهي العملية التاريخية التي افتتحها رواد النهضة القومية ودعاة الإصلاح الديني والثقافي والاجتماعي والسياسي، وشملت فــي المقام الأول تخليص الذاكرة العربية من التقاليد المتوارثة في اكتساب العلم والمعــرفة وكيفــية الخــروج من الدائرة التي رسمها الإمام الغزالي في القرن الســادس الهجــري الثانــي عشر الميلادي للفكر والثقافة العربيين الإسلاميين. والتــي لم تفلح محاولات علماء كبار مثل ابن رشد في الفلسفة 1126-1198م وابــن خلدون في علم العمران البشري 1332-1406م وابن الشاطر في الفلك ت1375م، وابــن النفيس في الطب1210-1288م وابن البيطار في علم النبات والصــيدلة ت1248م وابــن تيمية في العقائد والمنطق1263-1328م، في أن تفــتح ثغرة في نسقها المعرفي من أجل تثويره وتجاوز إشكالياته. (وقد شرحت فــي كتابي الثقافة المقهورة والثقافة المنتصرة الصادر عن الدار الوطنية الجديدة 2001م مجمــوع الإشــكاليات والمشاكل التي سببها ذلك النسق الثقافي، وكانت الأســاس فــي توقــف الفكــر العربــي عن التقدم والتطور والإبداع المعرفي والعلمي).

وكمــا كانت صدمة أوروبا بالتقدم العربي الإسلامي بعد الاحتلال العربي للأندلس ، بعدما كانت قد استكانت لتقدمها في العصر الروماني وركدت ثقافتها مــع المدرســية المســيحية. فاستفاقت على صدى العلم العربي والثقافة العربية

تقرع أبوابها في عقر دارها ، فأدركت أن لا سبيل أمامها إلا أن تعمل وتقتبس، لتلحق بالحضارة الجديدة مستعيرة أدواتها ومناهجها وعلمها. كذلك كانت الصدمة الأوروبية للثقافة العربية المتوارثة التي اكتشفت مدى تخلفها وتبينت نخبتها أن الطريق الوحيد للخروج من حالة التخلف والضعف والانسحاق أمام العدو القديم المتجدد هو الانكباب على اقتباس ما أبدعه في مجال العلوم والصناعة العسكرية المتفوقة التي بها يحتل أجزاء من الوطن العربي. فلا السلطنة العثمانية الفاسدة والمنهارة بقادرة على حماية الأرض العربية ولا الشعب العربي الضعيف والمجزأة بلاده والمجرد من وسائل المقاومة العسكرية المادية بل والروحية على استعداد للجهاد الذي فرضته عليه قوى الاستعمار الأوروبية الغربية التي احتلت وتحتل أقطاره على فترات وبالتتابع وفق مخطط مرسوم. فأخذوا في استيراد الأدوات والآلات والمصانع والأسلحة والسلع الجديدة على أمل امتلاك حلقاتها الرئيسة، على الطريق لإنتاج ثقافة عربية حديثة وبناء هوية عربية حديثة.

وقد تداخل في هذا المشروع مستويان من ردود الفعل، الأول تضمن الانبهار والإعجاب وضرورة الاقتباس والتقليد للحاق بركب هذه الحضارة الحديثة، والثاني خوف التلاشي والانسحاق أمام تفوق العدو القديم المتجدد الذي ما فتئ يعد العدة للانتقام والثأر والعودة لاحتلال الوطن العربي والسيطرة عليه. في الغزوة الأولى كانت الشعارات دينية تخفي أهدافها السياسية والاقتصادية، أما الحديثة فأوروبا الغازية الاستعمارية مؤلفة من دول قومية ملكية أو جمهورية مدججة بالأسلحة الحديثة و بالرساميل والتقنيات، غنية بالسلع والبضائع تبحث عن الأسواق ومنابع الطاقة واليد العاملة الرخيصة والمواد الأولية والزراعية اللازمة لصناعتها وهي تعلن هدفها بصراحة أنها تريد فرض الانتداب والحماية والاستعمار على أقطار الوطن العربي؛ فقد أعلن الجنرال الإنكليزي اللنبي قائد الجيوش الإنكليزية لدى دخوله القدس عام *1917*م (الآن انتهت الحروب الصليبية)، وأعلنها الجنرال غورو الفرنسي الذي احتل دمشق في تموز *1920* بعد معركة ميسلون ووقوفه أمام قبر صلاح الدين الأيوبي مخاطباً ومتحدياً(ها نحن عدنا يا صلاح الدين)؟. فالعدو في عقر دارهم وليس لديهم القوة لمواجهته، مكشوفين بلا أيديولوجيا ولا ثقافة، متخلفين عن العلم الحديث والثورة الصناعية والسياسية، فكيف يواجهون هذا الزلزال؟.

وجاء رد فعلهم الأولي في محاولة لتركيب نظري وتأليف أيديولوجي ،

وتبنـــي موقــف كفاحـــي مقاوم دمج الإعجاب بالخوف والتحدي، لاستيعاب ما اعتـــبروه ضـــرورياً من تلك الثقافة المتفوقة، بإعادة صياغته بما يتفق والتراث الثقافـــي العربي والإسلامي في مسعى تلفيقي لبناء استراتيجية مقاومة لمواجهة الغـــزو العسكري والاقتصادي والثقافي الأوروبي. وجرى ذلك في إطار حركة التحديـــث والإصـــلاح العثمانـــية من جهة ثم في إطار التحديث القومي العربي والإصلاح الديني الإسلامي من جهة ثانية. وهذه هي النهضة أو اليقظة العربية، فهـــي لـــم تكـــن ثقافية أي حركة مثقفين فحسب أو أيديولوجيا النخبة . بل هي مجمـــل الحركة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية بما في ذلك ثورات المـــدن ضـــد الولاة الظلمة، وانتفاضات الفلاحين ضد الإقطاعيين من الباشوات والأغـــوات والـــبكوات، ومحـــاولات الأسر العربية المتنفذة تأسيس إمارات أو الانفصال بولايات عن جسم الدولة(وفي مقدمتها محاولة محمد علي باشا تأسيس دولـــة عربـــية حديثة في مصر والشام والجزيرة العربية)في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وكانـــت تتضمن أيضاً تأسيس منظمات المجتمع المدني والجمعيات الأهلية والخيرية والنوادي الرياضية والشركات التجارية والصناعية والزراعية وإنشاء ســـكك الحديد وتسيير القطارات وفتح الطرق البرية والموانئ البحرية والنهرية وتأســـيس المصـــانع والمعامل والمصارف، وحل الملكية الإقطاعية والأوقاف والأراضـــي الأمـــيرية التـــي تضمنتها المراسيم السلطانية خط شريف كولخانة *1839*م وخـــط همـــايون *1856*م. وهـــي كذلـــك تأسيس الأحزاب والجمعيات السياســـية والمدارس الحديثة والكليات العلمية. وقد عبر الفكر السياسي والأدب والصـــحافة الحديثة عنها ابتداء برفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي ومن ثم جمـــال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكوكبي ورشيد رضا وغيرهم من رواد الفكر الحديث والأدب والصحافة والشعر(فرح أنطون وشبلي شـــميل وأحمد لطفي السيد وقاسم أمين وأحمد شوقي وخليل مطران وطه حسين وعلـــي عبد الرازق وغيرهم). فالحركة الثقافية الداعية لإحلال العقل والتجربة والملاحظة مكان النقل والتقليد والرواية بالأسانيد وإعادة الاعتبار لفكر المعتزلة وللفلســـفة والمنطق والعلم الطبيعي والمقابسة والمثاقفة مع الآخر تشكل جوهر الفكر الحديث.

هـــذه الثقافة النصف حديثة والنصف تراثية، رأى الدكتور عبد الله العروي أن مـــن الممكـــن دراســـتها من خلال ترسيمة ثلاثية تتناول ممثليها كأشخاص

مفكريــن و أيديولوجييــن. تجمــع الداعــية للإصـــلاح الدينـــي(الشــيخ محمد عــبده)والداعية الاشتراكي (سلامة موسى) أي التحديث عن طريق الاشتراكية، والداعية الليبرالي(أحمد لطفي السيد)أي داعية التحديث عن طريق الديموقراطية والرأســمالية الليبرالــية. ومــن خــلال هذه الكيفيات الثلاث يمكن فهم القضية الأساســية للمجــتمع العربي، إذ تضع إحداها المسألة في الإيمان الديني والثانية فــي التنظــيم السياسي والثالثة في النشاط العلمي والتقني)[1]. ووصف العروي هــذه الثقافة بأنها خارجية وأنها ثقافة مجتمع ميت، وذات سمات استهلاكية، أي ثقافــة تمتع، فهي لا تعبر عن واقع المجتمع العربي، ولا تتطابق مع مشكلاته، ويكتــب (والحقيقة أن هذه الثقافة التي ماانفك العرب يرشفونها من مناهلها هي ثقافة العامة (فولكلورية)، أي تعبير متصلب لمجتمع مندثر تخدم بمثابة أسطورة وتســلية Myth لمجــتمع حــي وهــي ثقافة الانشطار الداخلي. . . فالعرب المحدثــون لــم يكفوا منذ مطلع نهضتهم عن البحث عن تفسير مطابق للمرحلة التاريخــية التــي كانوا يعيشونها بصورة غامضة. . وحتى كلمة مطابق وهي غامضة ومع ذلك فهي المرضية لأنها تتخطى فكرة الأمانة والواقعية وهي ثقافة الــبرجوازية المســتوردة وهي تتيح للفولكلور أن يستمر، وهو لم يكن من قبل ســوى مســتودعات أثرية لمجتمع فاتر الحياة). ومفهوم المطابقة الذي يفترضه العــروي حتى يكون وعينا العربي فاعلاً و مؤثراً في محيطه هو مفهوم ثقافي ومقتبس من الماركسية في الشكل والمضمون، ويدور حول التطابق أو التناسب بيــن البنية الفوقية(التي هي الثقافة ومكوناتها- الفكر والقوانين والفنون والآداب والفلسفة و الإيديولوجيا)والبنية التحتية التي هي(القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج وأســلوبه وتقنياته). وهذه الشفافية والانفصال والاتصال بين المستويين لا يوجد إلا في مجتمع متقدم صناعي وحديث، ودولة مستقلة، واقتصاد متطور.

أما في البلدان التابعة ومنها أقطارنا العربية فمن المشكوك فيه إنتاج وعي مطــابق بحسب رأيه، لأن علاقات التبعية هي التي تحدد مستوى وعينا، فثقافتنا المــتخلفة التــي هي تراثنا المتداول، وقد طعمناه ببعض الأفكار الحديثة، وظل فولكلــوراً كمــا يصــفه العــروي هو الذي يحدد موقع العناصر الحديثة فيها كانقطاعات غير منتجة. فالتبعية بشكلها الكولونيالي ثم في مضمونها الإمبريالي، وطبيعتها المعولمة أساساً تجعل من مفهوم الداخل- خارج وبالعكس غير محدد

---

[1] الأيديولوجيا العربية المعاصرة ترجمة محمد عيتاني-دار الحقيقة بيروت 1970.ص70 -.

في إطار قومي، ولذلك يحتاج إلى إنتاج فكري معرفي. فالملابسة الأساس هنا هي أن علاقات التبعية تدخل إلى ثقافتنا عناصر وعي متقدم مستورد نتيجة المثاقفة الجارية والغزو الثقافي المستمر والمتعدد الأشكال والوجوه. وتأخذ مضامين وأساليب متنوعة، وتعمل حسب قوانين التبعية وتشبه المغلوب بالغالب، بالحذف والتسوية والتجاوز والنفي والقبول، أو الدمج والتأليف أو التفكيك، والاتصال والانفصال، لتخلق وعياً وثقافة غير متناسبين وغير مطابقين، فهما إما متقدمان وإما متخلفان.

والعتبة المعرفية التي لا يمكن تخطيها، وتضع شرطاً مانعاً للوصول إلى مفهوم علمي مطابق للواقع هو بنية علاقات التبعية التي تحدد موقع ثقافتنا ومدى تلبيتها لحاجات مجتمعنا المادية والروحية التي يتطلبها الواقع ومستوى تطور البنية التحتية. ولذلك تظل مفاهيم النهضة واليقظة والثورة ملتبسة وغامضة، فالمفروض أنها تجاوز لثقافة الماضي المتوارثة بالانطلاق منها، وهي بناء للحاضر بحسب معطياته ووفق ما ترسله إلينا المراكز الثقافية العالمية المتقدمة للرأسمالية. وهي كذلك تطلع للمستقبل مع إشكالياته غير القابلة للحل في إسار التبعية. فالخطوة الأولى على طريق الخلاص من هذا الضياع والاستلاب والاستغراب، هي وضع القضية في مفهوم محدد سياسي واقتصادي وثقافي، وبناء نظرية معرفية وفلسفة عربية وإيديولوجيا سياسية حديثة ومشروع حضاري قومي، في مواجهة العولمة الأمريكية، تكون هي ثقافة التحرر القومي والوطني، من التبعية والاستغراب.

-ج-

إن العلاقة بين الذات والموضوع التي يقيمها الفكر في مقارباته لمعرفة الواقع الاجتماعي والعالم ومعرفة ذاته هي في دلالتها الجوهرية منتج ثقافي، ذو أبعاد إنسانية وتشير إلى ثقافة بعينها تحدد سماتها وخصائصها المعرفية والأولوية في هذه العلاقة هي للذات العارفة، وهذه ليست أولوية وجودية، بل أولوية الفاعلية الفكرية والعقلية التي تجعل الذات العارفة تعيد إنتاج موضوعها معرفياً وفق مناهج محددة، بما يؤهلها لإنشاء العلم وممارسة المعرفة بقصد إعادة إنتاجه عمليا في الممارسة لوضعه في خدمة الناس وتلبية حاجاتهم المادية والروحية. ووعي الذات هو هذه الفعالية التي تضع الإنسان في مواجهة الواقع من أجل تغييره وتفسيره، بما يبدعه من أدوات وأساليب وأفكار تمكنه من الفعل

داخل وخارج المجال الذي يجعله العقل موضع التفكر والنظر لاستنباط واستكشاف قوانينه العامة والخاصة، وتجعل من الثقافة وحقلها المعرفي محور التوتر الذهني لطرح إشكاليات معرفية ومنهجية لا تفتأ تطرح نفسها مع كل تطور وتقدم علمي أو اجتماعي.

هذا الوعي بالذات هو وعي طبقة أو نخبة، وهو وعي وظيفي بقدر ما هو مطابق أو غير مطابق لتحديد الدور التاريخي الذي ستلعبه هذه الطبقة أو النخبة في عملية صنع الحدث التاريخي، والحركة الإجتماعية الحاملة له، أو القابلة التي تحضنه وتهيئ لولادته. فإذا لم يكن مطابقاً وهو ليس كذلك بفعل العوامل التي أوردناها من قبل، فسيكون الدور الذي تقوم به تنكرياً أي إن الطبقة أو النخبة ستعمل عندها ليس وفق الأيديولوجية التي أعلنتها بل من أجل غايات مضمرة وكامنة في قلب الأحداث الجارية ولصالح الاتجاه الموضوعي الذي لم تدركه، ويشكل وعيها، بل لنقل وعيها الشقي الذي كونته عن ذاتها ولذاتها، وهو الذي سيحدد دورها الظرفي والمشروط لتخلي الساحة بعد أن تكون قد مهدت لقوى التغيير التي يجب أن تملك القدرة على تكوين مفاهيم أكثر مقاربة لدورها الموضوعي في العملية التاريخية للتغيير والنهضة والثورة.

إن للفلسفة والفكر العقلاني النقدي أهمية حاسمة في الظروف والشروط التي تحيط بحركة التاريخ في مرحلة معينة، وبخاصة النقد الجذري للإيديولوجيا السائدة، بهدف إيقاظ الوعي وتنشيطه للتغلب على مشكلاته المعرفية والنظرية ومناهجه غير الملائمة، ومن أجل تعميق موضوعاته وقضاياه، بتحليل المتناقضات التي هي من جوهره، بما يمهد الطريق أمام التأليف النظري والتطبيق العملي، ووضع الوعي في محنته مع الحقل المعرفي لصياغة موقف ثقافي وفكري للتغلب على أزماته، لأن الوعي غير المتميز عن موضوعه عاجز عن تحديد ذاته والانفكاك عن محدداته ليعقلها. وما لم يمتلك الأدوات المنهجية والعلمية المناسبة لموضوعه فسيظل وعياً إشكالياً عاجزاً عن التأثير في واقعه، وهو لن يتخطى في هذه الحال العلاقة العفوية التي يقيمها الوعي العامي مع الموضوع الذي يظل غير معروف يتحكم بحركة الذات ويخضعها لشروطه، ويسلبها القدرة على الفعل وحرية الاختيار. والممارسة هنا هي معيار الفاعلية التي تعيد صياغة الوعي وتشكيله تجريبياً وتأسيسه في سلسلة متتالية من أفعال الخطأ والصواب الكارثية.

لقد ظل وعي الذات في الثقافة العربية المعاصرة أسير هذه الإشكالية لأن

موضــوعه هــو التبعية التي تحددها منظومة من العلاقات الخارجية (اقتصادية وسياســية وعســكرية واجتماعــية) وتعيد إنتاجه وهو أسير إشكالياتها العلمية المتــنوعة وشبكاتها الثقافية المتباينة ، فتحدد مجاله المعرفي والعلمي والنظري. فالوعي بالذات هو بالأساس معرفة بوضع ما، وعندها يتحول إلى عمل حاسم ، فهــو عنصــر فــي لحظة يتحول فيها الذاتي إلى موضوعي وبالعكس. وتأخر الوعــي بالمعــرفة الموضوعية ليس قانوناً عاماً ولكنه مسألة ملموسة يجب أن يــأخذ بهــا المفكــر علمــاً وعليه تحليل العلاقة بينه وبين موضوعه عند تغير الشروط والمعطيات.

-د-

إن الــتعارض بيــن التقلــيد والــتجديد والقديم والحديث مستمد من العلوم الطبيعــية حيــث نجد أن إنجازات معينة لا تشكل عقبة أمام الاكتشاف العلمي. ولكــن هذا النموذج لا ينطبق على العلوم الإنسانية حيث الاكتشافات من مرتبة مخــتلفة وحيــث تعبير الاكتشاف بمعنى إنتاج معرفة جديدة قد لا يكون ملائماً للدراسات الإنسانية. . . إذ يمكن عن طريق ترتيب جديد للوقائع أن يساعد على خلــق تبصــرات جيل بأكمله، كما يمكن أيضاً لها وبتفسيرات جديدة أن تلعب دوراً حافــزاً لاكتشــافات جديــدة أو اســتثارة الفكــر ويتضــمن هــذا التقليد والاستمرارية، وهو تكوين ثقافي مرتبط بالتاريخ مبني على قراءات وتفسيرات وتمييزات قام بها أفراد ومؤسسات ثقافية في الزمن التاريخي. [1]

ظــل خطــاب النهضة واليقظة العربية وكذلك خطاب الثورة كما نتعرف علــيه فــي خطاب المصلحين الدينيين والعلمانيين النهضويين والقوميين العرب الثوريين والاشتراكيين والماركسيين والليبراليين والإسلاميين، تلفيقياً يغلب عليه طــابع الــبلاغة الإنشــائي التاريخي الموروث، والأدبي التراثي والرومانسي البطولــي، والعقلانــي الليبرالي الوافد والمثالي الفلسفي الممجد للذات والفردية، والاشتراكي الخيالي والماركسي المادي غير الجدلي. يهدف إلى الإبلاغ لا إلى الإقــناع، متنوع المرجعيات على الرغم من سماته المتشابهة فهو خطاب تراثي يتســاوى فــيه القومــي والإسلامي والماركسي والليبرالي جميعاً، متناقض في

---

[1] *في الحرب الثقافية يوجين جودهارت ترجمة عاطف أحمد مجلة الثقافة العالمية عدد100- مايو-أيار 2000م.*

الأصـــول وموحد في الفروع، مفاهيمه ونصوصه مبنية على افتراض الصراع مع الآخر وعاكفة على توسيع دوائر الصراع في الممارسة الحزبية والسياسية، وتعمـــل على تعميقه إلى صراع تناحري استئصالي وإلغائي لكل فكر مخالف . والأهـــداف المعلـــنة هـــي الإصلاح والتحرر من الاستعمار والتخلف والتبعية، وتحقـــيق الاســـتقلال والوحـــدة القومـــية، والكفاح ضد الصهيونية، وبناء دولة ديموقراطـــية، حديـــثة، وتحقـــيق العدالة الاجتماعية والاشتراكية والحرية. وقد ترســـخت في برامج سياسية واجتماعية لدى قطاعات نخبوية شعبية وجماهيرية وطبقـــية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار في المجتمع العربي الذي كان قد شـــرع يعي ذاته في انقسامات طبقية حديثة عمالية وبرجوازية وفلاحية ونخب مثقفة(طلاب وعسكريين وتكنوقراطيين وبيروقراطيين). وعبر أحزاب سياسية لها برامج وأفكار وشعارات اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية تمثل تطلعات ومصـــالح هذه التكوينات الحديثة. وقد أهلتها معاركها الضارية ضد الاستعمار الأوروبـــي الغربـــي وضـــد الصهيونية العالمية المغتصبة لفلسطين لتكون على مســـتوى مقـــبول مـــن الوعـــي السياســـي أكثر تقدماً من تطور البنى التحتية الاقتصـــادية والثقافية الفكرية. فاستطاعت أن تحقق إنجازات ملموسة تمثلت في طـــرد الاســـتعمار المباشر وإنشاء وتأسيس الدولة القطرية الحديثة كما أوجدتها القـــوى الاستعمارية، وفي إطار الحدود التي رسمتها لها. وظلت ترفع شعارات الوحـــدة العربية والثقافة القومية أو الإسلامية. وحققت إصلاحات هيكلية عميقة فـــي بنية الاقتصاد والمجتمع والثقافة والتعليم والتربية والعلوم الحديثة، وخلقت مؤسسات حكومية ومدنية حديثة.

وتضـــمنت برامجها ما يمكن أن نطلق عليه ميثاقاً وطنياً وقومياً، ومن أهم مـــواده -إصـــلاح شـــؤون العقـــيدة الإسلامية بالعودة إلى الإسلام كما هو في نصـــوص القرآن والسنة وكما طبقه الخلفاء الراشدون، وفتح باب الاجتهاد في الفقـــه والتشـــريع وبخاصـــة في السياسة وأصول الحكم(فقه السياسة) والأحكام والعـــودة لإحياء الشورى وتشكيل مجالس البرلمان بالانتخابات الحرة المباشرة مـــن الشعب-السعي لإعادة الدولة العربية الواحدة أو الإسلامية ، وجعل القومية العربـــية المعـــززة بالإسلام أيديولوجيا سياسية وثقافية وكفاحية-إصلاح التعليم وجعلـــه حديثاً وعصرياً في جميع مراحله- تحرير المرأة بتعليمها والسماح لها بـــالعمل وتأهيلها لتكون مساوية للرجل في كل مجالات الحياة-ترقية الاقتصاد بالتعاون والمقايسة من ومع أوروبا الغربية المتقدمة تكنولوجياً وعلمياً وصناعياً

ومالياً- رفع راية الثورة للكفاح ضد الاستعمار والصهيونية من أجل الاستقلال والتحرر الوطني وبخاصة تحرير فلسطين من الصهيونية-توطين شكل معين من الديموقراطية بما يضمن الحريات العامة وتداول السلطة عن طريق صناديق الاقتراع والانتخابات العامة. وقد حظي هذا الميثاق بالإجماع وإن ظلت الخلافات قائمة بين الفصائل والقوى والأحزاب السياسية حول الكثير من مسائله الأصلية والفرعية في مراحل نضالية مختلفة.

شكَّل هذا الميثاق مرجعية ثقافية وعقداً اجتماعياً يمثل إرادة الأمة في التحديث والتطوير والتقدم، وإن كان في بنيته بعيداً عن تحقيق الأهداف الإستراتيجية للمرحلة، لأن تخلفنا لم يكن زمنياً فحسب وعلاقتنا مع الآخر المتقدم علينا والمستعمر لبلادنا لم تكن طبيعية بل هي علاقة تناحرية كفاحية وغير متكافئة أساساً ولا تحكمها معايير التقدم الموضوعية، بل هو تخلف بنيوي(معرفي ومنهجي وعلمي) تسيطر عليه علاقات القوة واستراتيجيات الهيمنة في الاقتصاد والتكنولوجيا ونمط الإنتاج والنظرة إلى الإنسان والطبيعة والحياة والعيش المشترك والمعايير الأخلاقية.

لم تلامس إصلاحاتنا الثقافية القاع الفكري والروحي لثقافتنا الموروثة، كما أنها لم تعالج الموضوع الرئيس الذي يجب إنتاجه مفهومياً ومعرفياً لكي تؤسس لفكرنا الحديث وهو علاقة التبعية، التي كرستها التطورات المتواصلة في مجالات العلم والتكنولوجيا والإنتاج الرأسمالي والثقافة الحديثة. هذه العلاقة التي مكنت أوروبا الغربية ومن بعدها الولايات المتحدة الأمريكية من السيطرة على العالم القديم وقلبه الوطن العربي. وبدون البحث العلمي الرصين والتفكر ببصيرة لا يمكن إدراك وفهم ما يجري وما قد جرى من خيبات ونكسات وتأخر وتخلف في مسيرتنا، فالتبعية لم تكن اقتصادية وسياسية وثقافية وعلمية وتكنولوجية بل هي أشمل من كل ذلك. هي اختراق وتحويل، واستبدال وإعادة تأهيل للمفاهيم الموروثة وتجاوز لنسق حضاري وتدمير ثقافة لم تعد ملائمة، ولا يختزلها مفهوم التخلف-التقدم. لقد غيرت ثقافة التحديث الأوروبية بشكل جذري القواعد والمبادئ والقوانين والفلسفات والأفكار التي قامت عليها وبموجبها الحضارات والثقافات القديمة، مفاهيم الله والإنسان والأديان والعلم والسياسة والاقتصاد والجماعة والفرد والثروة والرأسمال والأخلاق ومنظومة الوجود الإنساني نفسه، قاطعة مع مفاهيم وأيديولوجيا وأفكار الثقافات السابقة لتحيلها إلى إنتروبولوجيا، تبحث في تاريخ ما قبلها أي ما قبل هذه الثقافة

البرجوازية الرأسمالية الحديثة.

إن قصـــور الفكـــر العربـــي النهضـــوي الحديث عن إنتاج مفاهيم التبعية والهيمنة الإمبريالية والتخلف والعولمة، كان السبب الرئيس في تدهور أوضاعنا بعامة ودوراننا في حلقة مفرغة تمسك بنا وندور معها دون أفق مفتوح للخروج مـــنها. لقد اكتفى هذا الفكر بما أنتجته معاهد الاستشراق والجامعات الأوروبية والأمريكـــية والفكـــر البرجوازي، الليبرالي والاشتراكي والماركسي بمدارسه المختلفة، من مفاهيم ومناهج حول تلك المسائل، من منظورات اليمين واليسار، والليبرالـــية، وأخـــذ يشرحها دون أصالة، ولا إضافة أشياء مهمة. وكان العجز والتهافـــت، وعلاقات الصراع بين التراث والحداثة والاستقلال والتبعية من أهم نتائجه.

الكفـــاح والمقاومة ، والإمساك بجوهر الثورة الفكرية والثقافية والصناعية كان هو الأمل بالانفكاك من التبعية والإلحاق والهيمنة، وهو العلاقة الموضوعية الوحـــيدة التـــي كـــان على فكر النهضة أن يؤدلجها. لتأسيس حالة ثورية لبناء الإنســـان العربي الجديد والفكر الحديث. وقد انطفأت الشعلة التي أضاءتها هذه الممارســـة عندما عجزت القيادات النهضوية الفكرية عن فهم مضمونها الفلسفي والعقلانـــي فـــي عصـــر الاســـتعمار والإمبريالية، ورضيت في الانخراط في اســـتراتيجيات التأهيل والتلاؤم الاقتصادي والسياسي والمشاركة في إنتاج فكر وثقافة انفتاحية، خارج إطار المشروع العربي القومي الحضاري.

-هـ-

وجـــاء عصـــر ما بعد الحداثة الذي أسست له الثورة العلمية والتكنولوجية الـــرابعة، فغـــيرت الكثير من المفاهيم العلمية التي أسست للحداثة، مفاهيم العلم والعقـــل والدولـــة والإنســـان، فالهندسة الوراثية والبيولوجيا الجزيئية والثورة التكنو-إليكترونية، وثورة الاتصالات والمعلوماتية وفك رموز الشيفرة الوراثية بدلـــت ونســـفت المرجعـــيات الكلاسيكية للثقافة الأوروبية والأمريكية الحديثة ووضعتها أمام تحولات جذرية.

لقـــد انقضى عصر النهضة البرجوازية الرأسمالية، والثورات التي أنتجت الفلاســـفة العظام أصحاب المذاهب الفلسفية التي شكلت الأطر المعرفية وحددت الأهـــداف الفكـــرية والثقافية والأيديولوجية والاجتماعية بل والاقتصادية لثقافة الحداثـــة الـــبرجوازية كمـــا نجدها في فلسفة الأنوار الفرنسية، والفلسفة الحسية

والتجريبية الإنكليزية والفلسفة الكلاسيكية الألمانية، والفلسفة الماركسية والمدارس والمذاهب المنشقة عنها أو تفرعت منها في القرن العشرين، والنظرية الاقتصادية لدى أكبر عقولها ريكاردو وآدم سميث وجون ستيوارت مل وماركس ثم كينز، ليصبح عالم البرجوازية مجدباً بعد حروبها المدمرة فيما بينها على العالم المستعمر من أجل الأسواق والمواد الأولية وغطرسة القوة. فنظريتها السياسية اليوم غبراء وثقافتها صارت بعامة محافظة وتقليدية، وأيديولوجيتها الجديدة ملفقة من الرأسمالية التنافسية وصنمية السلع والأسواق ومن أيديولوجيا دولة الرفاه المتراجع عنها. ومن أطروحاتها الراديكالية المحافظة أيضاً، ومن النزعات الليبرالية الجديدة التي يتبناها اليمين التقليدي كاستراتيجية لاستخدام القوة الغاشمة لإخضاع العالم تحت شعارات حقوق الإنسان ونشر الديموقراطية. هذه الإيديولوجيا تصورها فوكوياما نهاية التاريخ، فإذا هي بداية لتاريخ جديد لعصر من الفوضى الأيديولوجية والفكرية والحضارية . تعبر جوهرياً عن أزمة الرأسمالية المالية في صورتها الكونية (العولمة) فتفصح عن الشك المصنوع بقدرة التكنولوجيا في صنع وصياغة عالم حديث، وعن المخاطرة المفترضة للعيش فيه وفق قوانينه غير الإنسانية، وتعبر عن (الأسواقية) نسبة إلى الإيمان بقدرة الأسواق كاستراتيجيات ومعايير في صناعة هذا العالم. فالدولة التي تريدها الليبرالية الجديدة التي تقود الرأسمالية المعولمة، هي دولة قوية تكفل الانضباط الداخلي ولو كان على حساب تقييد الحريات العامة، لتؤمن الهيمنة على العالم التابع ولو اقتضى الأمر شن الحروب الإمبريالية من جديد، كما هو جار اليوم من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وبخاصة بعد أحداث *2001/9/11*م في نيويورك وواشنطن.

إن اقتصاد السوق كما يقول أنطوني جيدنز عالم الاجتماع السياسي البريطاني وأستاذ طوني بلير رئيس الوزراء البريطاني الحالي ومنظر الطريق الثالث يتعارض مع تدخل الدولة في صورة التخطيط الشامل أو نظام الحكم الشمولي، كما تقول النظرية الاقتصادية الكلاسيكية، إلا أن الليبرالية الجديدة تطالب بتدخل الدولة القوي بالنسبة لمسألة الحفاظ على القانون والنظام وغرس المثل العليا القومية، ودعم القدرات الدفاعية مثل (برنامج حرب النجوم

الأمريكي) وكذلك التدخل لحماية مصالحها الكونية. [1]وتبرر هذه الإيديولوجيا الجديدة أهمية السوق في ترسخ الديموقراطية الليبرالية ، بأن السوق أبعد ما تكون عن تشجيع الأنانية فهي مصدر القوة الأخلاقية لأنها تستبعد الانحياز السياسي والتعصب الاجتماعي لأنها تضع الفرد أمام تحد لا بد منه للسعي بعقله الفردي من أجل الربح في مواجهة كل الشروط والمنافسين الآخرين. ولذلك فإن دولة الحد الأدنى يجب أن تكون قوية حتى يتسنى لها فرض القوانين التي تقوم على المنافسة وتعمل على تطبيقها بل ومن أجل تنفيذها.

إن هذه الليبرالية الإمبريالية الممجدة للديموقراطية وللحرية الفردية والتنافسية، تعمل في نفس الوقت على تدمير دولة الرفاه ومنجزاتها الاجتماعية والديموقراطية، وتعلن استراتيجيتها العدوانية ضد الدول الأخرى وبخاصة ضد العالم الثالث والوطن العربي على وجه التحديد تحت شعارات نشر الديموقراطية . وما يهمها في الحقيقة هو الحفاظ على مصالح الرأسمال المالي الذي تديره كونياً، وتوسيع هيمنتها وامتيازاتها الطبقية والقومية. وإذا حاولنا رسم صورة للقوى الطبقية والاجتماعية والنخب الثقافية التي تنتج أيديولوجيتها لاختلط علينا المشهد بسبب التحولات العميقة التي تعرضت لها بنيتها وأفكارها ودورها الاجتماعي تحت تأثير التطورات الاقتصادية والعلمية. فنرى فيها المحافظين وقد أصبحوا راديكاليين وقد تحول الراديكاليون إلى محافظين في حين اقتصرت النزعات الاشتراكية لدى الأحزاب العمالية الإصلاحية على السعي لإنقاذ منجزات دولة الرفاه. في حين تدير ظهرها لكل ما هو إنساني وأخلاقي في تاريخها وتتخلى عن الديموقراطية الاجتماعية والسياسية التي تشكل أعظم إنجازاتها، وتحاول استبدالها بديموقراطية المداولة أو الديموقراطية الليبرالية المحدودة لأصحاب الامتيازات المالية والبيروقراطية.

وقد شكل تحالف اليمين البروتستانتي المسيحي مع الليبراليين الجدد المهد الثقافي والاجتماعي لما يمكن تسميته بالطغمة التي تناصب الفكر الاجتماعي الإنساني العداء، و تشجع النزعات العلموية والتقنية الحديثة التي تتضمن نوعا من الاستعلاء القومي والثقافي والحضاري، وتبث أفكارها حول الرسالة الخاصة بها عبر المؤسسات الرأسمالية الكونية الحديثة ومن خلال سعيها الدائب

---

[1] بعيدا عن اليمين واليسار.أنطوني جيدنز ترجمة شوقي جلال تشرين الأول 2002 ص64-65.صادر عن سلسلة عالم المعرفة الكويت.

لإقامة الإمبراطورية الأمريكية خاتمة الدول الإمبراطورية العالمية.

-و-

في خضم هذه التحولات الجذرية والعاصفة ما تزال ثقافتنا العربية، تحاول تخطي عتبة التراث إلى الحداثة. فهي منذ مطلع عصر النهضة في بدايات القرن العشرين انفتحت على الثقافة الحديثة، وشرعت تلائم نفسها بدون قفزات ثورية مهما، ولم تستطع تجاوز هذه المرحلة على الرغم من التحديث الاقتصادي والسياسي والعلمي الذي حصل في ميادين الحياة المختلفة. إلا أنها وكما يبدو دخلت في طريق مسدود ولنقل في أزمة لم تقدر على الخلاص منها بسبب النكسات والهزائم التي لحقت بالمشروع القومي العربي السياسي والفكري، فتوقفت أمام معضلة التوفيق بين تراثها الثقافي وبين ثقافة الحداثة بعد النجاحات التي تحققت في المراحل الأولى على يد المصلحين الدينيين والقوميين العرب والليبراليين.

واليوم ونحن أمام هذا الاضطراب الكبير والفوضى التي تصاحب الانتقال إلى ثقافة جديدة(ما بعد الحداثة) ونمط حضاري حديث لم تتضح معالمه بعد، يجد المثقفون العرب أنفسهم أمام معضلة حقيقة هي كيفية مواجهة هذه الموجة العاتية من التغييرات، وثقافتنا ما زالت تعاني من كدمات وجروح وهزائم المرحلة السابقة، وليست على استعداد لتحمل أو تلقي صدمات جديدة. ومثقفونا لا يعلمون بل لا يملكون المقدرة على صياغة المشروع النهضوي الذي يلبي حاجات الأمة العربية في عصر العولمة بسبب الاستبداد واضطهاد الرأي المعارض وبسبب ازدياد تخلفنا النسبي والمطلق عن الحداثة في مرحلتها الراهنة بعد أن فشلنا في وضع القواعد المادية والأفكار التي تشكل الأساس لانطلاقة ثابتة بدون نكوص إلى الخلف، وتصفية الحساب مع التراث الذي تحاول السلطات المعرفية التي تعتبر نفسها الحامية والقيمة عليه أن تضعه في مقابل التحديث. وتفتعل معارك وتصطنع إشكاليات كي تعيق تقدمنا نحو بناء ثقافة حديثة متفاعلة مع الثقافة العالمية ، تخلصنا من حال التبعية الفكرية والحضارية، وتنقلنا من حال التلقي إلى حال الإبداع والمشاركة الحقيقية في صنع هذه الحضارة.

فالمثقفون الذين ترهبهم السلطات السياسية وتراقب فكرهم السلطات المعرفية لتحاكمهم تحت شعارات حماية عقيدة الأمة ومنع الخروج على قيمها

المعرفية والدينية، لا يستطيعون تقديم رؤى وأفكار تحديثية، وسيف الإرهاب الفكري والقمعي السلطوي على رقابهم. وانطلاقاً من تجارب الماضي القريب، وإشكالياته المزمنة، والتبعية باهظة التكاليف للآخر الذي يقود عملية الثورة والتحويل، في حين نشهد انهيارات وتهافت الأيديولوجيات العربية للثورة والتغيير والإصلاح على كل الأصعدة. والكل يشكو ويصرخ ويطالب بعمل شيء ما للإنقاذ، ولكن بدون القدرة على الفعل. فيظل الأمر على ما هو عليه لتزداد ثقافتنا تخلفاً، وليزداد عجزنا عجزاً. والعصر ليس بعصر الأنبياء المنقذين، ولا هو بعصر الثوار العظام المخلصين، أصحاب المذاهب الفلسفية المؤسسة لثقافات جديدة مغايرة لثقافة العولمة الرأسمالية. بل هو كما يظهر في كل مراحل الانتقال من طور حضاري إلى أخر هو عصر العصاة الذين ينبجسون في أركان العالم المقهور. هدفهم هدم وتدمير- هذه الثقافة والحضارة المادية المسرفة بالاستغلال والاضطهاد وهدر طاقة الإنسان ، وتغريبه وخلعه من جذوره القومية والدينية ومن ثقافته وتاريخه ، وجره بالعنف والحرب ليكون رعية في إمبراطورية عالمية عاملاً لخدمة برامجها ومصالحها وهيمنتها وفرض سلطانها على العالم- والسعي للخلاص من هذا المصير ومن التبعية والاستغراب. فيتمردون ويعلنون الحرب عليها تحت شعارات بائسة مثل التمسك بالأصالة التراثية والقومية والتاريخية، ولكن بدون مشروع حضاري بديل قادر على المواجهة الثقافية واحتواء الأسس المعرفية والحضارية الحديثة التي تشكل تراثاً إنسانياً يجب العمل به لجعله في خدمة الناس جميعاً ومن أجل سعادتهم ، وتكريسه بديلاً فكرياً وأيديولوجياً وفلسفياً لبناء عالم جديد على أسس قيمية وأخلاقية تحقق المساواة والعدالة ، وتزيل المظالم القومية وتضمن الأمن والسلام والحياة والسعادة لجميع الناس بدون تمييز على أساس عرقي أو ديني أو مذهبي.

لقد انقضى زمن طويل ونحن لا نفكر أو ننتج ثقافتنا القومية إلا من خلال إعادة تأويل وتفسير وتحليل المقابسات الفكرية والثقافية التي تفرضها قوانين التبعية الموضوعية علينا، ونقل وترديد ما يبدعه وينتجه الآخر وشرح وتفسير مخططاته واستراتيجياته. أما ما نريد نحن وماذا سنفعل فقد توارى عن دائرة الكتابة والحوار. ولم نعمل على إبداع مشروعنا الحضاري الثقافي المغاير. صحيح أننا أعلنا إيديولوجيا سياسية قومية عربية تضمنت مشروعاً حضارياً وثقافياً إنسانياً استطاع أن يجمع فئات وطبقات الأمة العربية على أهداف

واضـحة، وأن يعلـو ويـرتفع بها فوق انتماءاتها المتخلفة الطائفية والمذهبية والقبلـية والعشـائرية لاسـتعادة الوحدة العربية؛ لكننا لم نفعل شيئاً لجعل هذا المشروع ملموساً على صعيد الواقع الثقافي والفكري وظل شعارات فحسب. بل لعلـنا لم نقاربه ولم يكن هدفنا الرئيس إما بسبب سيطرة السياسي على الساحة الفكـرية ، وإمـا بسبب عقدة التخلف أو عقدة التفوق التاريخي، أو بسبب ضآلة الدور الذي يلعبه المثقف والمفكر في واقعنا الآسن والمضطرب معاً. والذي ما زالت تتحكم فيه قوى الاستبداد والتقليد الفكرية والثقافية من جهة، وتسيطر عليه رؤى الآخـر الـذي يشـدنا إليه بقوة ويبهرنا بما يصدر إلينا من أفكار حديثة ودائمة التجدد. نحاول التعرف إليها ونشرها واستعادة تأليفها دون تأصيل، فنظل نبحث في مخلفاته الفكرية والثقافية وتراثه العقلاني والعلمي علنا نجد صورة لنا تعكـس حقيقة دورنا الحضاري وهويتنا الثقافية المهشمة؛ فلا نعثر إلا على فكر متيـبس عتيق، وثقافة مخترقة تفتقد المنهج والطريقة والموضوع، متجاوزة في الأصول والفروع، على أرضية متغيرة سياسية واقتصادية وعلمية، وواقع بدلت الهزائم والنكسات والانهيارات بنيته ، وما زال وعينا يتلمس كيفية التعامل معه ومواجهـته. ومع أن المشروع القومي العربي النهضوي والإصلاحي الديني قد قاربه، إلا أنه عجز عن إنتاجه فكرياً ونظرياً وتقديمه كثقافة عربية للحداثة.

وما الفكر العربي الحديث وخطابات النهضة والإصلاح الديني الإسلامي، وإيديولوجـيا الـتحرر القومي والوطني وما تم إنتاجه من أدب وفلسفة وفنون وقـانون ومؤسسـات مدنية واقتصادية سوى ممهدات ومقاربات لهذا المشروع الـذي ظلـت مضامينه وأهدافه كامنة. ولم تأخذ مواقعها كمرجعيات في حياتنا المعاصـرة لأسـباب ذاتية تتعلق بخطاب الحداثة الذي لم تستقم أدواته وأساليبه ومـناهجه، وبقـي أسـير الانهـيارات في الواقع الاجتماعي والسياسي والتي انعكسـت في تهافت نصوصه ، وفي مفاهيمه التي بقيت غامضة وغير مفسرة لجوهـر وطبـيعة الأهـداف التـي يبتغي تحقيقها في خضم التيارات السياسية والثقافـية المستدفقة علينا من الآخر الذي يريد إعادة صياغة شخصيتنا القومية والحضـارية ، بمـا ينسجم واستراتيجياته الكونية في عصر العولمة الأمريكية الجاريـة، والتي تعمل وفق قوانينها الموضوعية من خلال التبعية، ولا تستأذننا للدخول أو للحصول على موافقتنا للعمل.

إن مـــا حاولت التركيز عليه في الدراسة الثالثة حول ثقافة التغيير انطلاقاً مـــن نقد ثقافة التبرير والعقل المنتج لها، ليندرج في إطار هذه الرؤية لمشروع حضـــاري ثقافي عربي، يكون الموجه والمرجعية لممارستنا السياسية. والناظم لأهدافـــنا والمهـــد المؤســـس لثورة ثقافية عربية تحسم اختيارنا الثقافي باتجاه التحديـــث والـــتقدم، وقطـــع علاقات التبعية. لقد أصبحت العولمة هي الانتشار الثقافـــي الأمريكي في العالم ولم تعد الإمبراطورية الأمريكية ترضى بمشاركة ثقافـــات أخـــرى لها في الهيمنة على تفكير وأذواق وسلوك النخب الحديثة في المجـــتمعات الأخـــرى حـــتى ولـــو كانت دولاً متقدمة من شريكاتها الصناعية المتقدمة. فقد بات مؤخراً وجوب قضاء الطالب فترة دراسية في جامعة أمريكية مـــرموقة شرطاً اجتماعياً أساسياً كي يكون من أفراد النخبة حتى في بلدان ذات تقالـــيد ثقافية عريقة بقوميتها مثل فرنسا. [1] فالعولمة صارت إيديولوجيا النخبة الأمريكـــية مـــن رجال الأعمال حتى السياسيين ، والدولة الأمريكية هي العامل الحاسم المتحمس لنشر العولمة كمذهب ومرجعية لتحديد العالم المعاصر وعلاقة أمـــريكا بـــه. هـــي ببساطة قوة الثقافة الأمريكية أي إن الثورة الثقافية العالمية المســـتلهمة مـــن أمريكا تعيد تعريف التقاليد الاجتماعية والقيم الثقافية والسلوك الجنســـي والأذواق الشخصية والطموحات المادية الفردية لمعظم أجيال الشباب في العالم. وهي ترتكز على تطلعات مشتركة بتعزيز الميل إلى التسلية وغرائز الـــتملك[2] . وتديـــرها إمبرياليـــية هـــي ائتلاف من علاقات ديبلوماسية وقوات عسكرية منتشرة ونظم جمع المعلومات الاستخبارية والمصالح البيروقراطية[3].

والخطر الذي يهدد جميع الثقافات الوطنية في عالم اليوم الآخذ في التعولم خطـــر لا فكـــاك منه إلى حد كبير والحل الوحيد غير المتاح هو إيقاف عولمة التجارة والاقتصاد، حيث إن قوى التبادل الاقتصادي وتقسيم العمل من الصعب مقاومتها في عالم متناقض يؤججه تطور تقني شامل يهيّئ للتقنيات الحديثة جداً

---

[1] زبيغنيو بريجنسكي –الاختيار ترجمة عمر الأيوبي–ص153–دار الكتاب العربي 2004م

[2] المرجع السابق ص203.

[3] نفس المرجع ص234.

تنافساً اقتصادياً[1]. وستتلاشى الثقافات القديمة والمتقدمة في المنافسة أمام ثقافة الإمبراطورية الصاعدة إن لم يبزغ مشروع حضاري -ثقافي مغاير ومناهض لهذه الثقافة، يحمل الأمل للعالم بالخلاص من الطغمة الأمريكية الحاكمة، والتي استعبدتها غطرسة القوة ، فأصبحت تجسد ثقافة الإرهاب والعنف والسيطرة والهيمنة والطغيان. وفي المقدمة هويتنا القومية العربية التي تتنافس على دفنها الهويات القطرية التي تكرسها الأنظمة الحاكمة ومؤسساتها و تعمل على ترسيخها بل وتفتيتها إلى كيانات أصغر. مستخدمة علم الآثار ومكتشفاته لبعث لغات ضائعة واصطناع ثقافات ميتة وإحيائها لتمزيق الفكرة القومية العربية ، واختلاق صراعات إثنية ومذهبية وطائفية وعشائرية في كل قطر عربي مستغلة هزائم المشروع القومي العربي السياسية والمخططة بمهارة من قبل، للإجهاز على الفكر القومي وجعله ما قبل تاريخ العولمة. كل ذلك لتبرير الوجود الصهيوني في فلسطين، ومحاولة إعادة كتابة تاريخ الوطن العربي بقوة السلاح وبالثقافة ليكون على شاكلة ذلك التاريخ الذي زوره اليهود في استعادة ماض متوهم في قصص التوراة عن دولة عظمى في فلسطين ودول مجاورة في بلاد الشام، ضعيفة مهزومة وخاضعة لها.

-ج-

إن القنوات الفضائية التي نبث برامجها طيلة الليل والنهار إلى جميع أرجاء الكرة الأرضية والتي تسيطر عليها إدارياً وتقنياً وفنياً وإعلامياً المراكز المتخصصة في النظام العالمي الجديد، وترسل من خلالها المواد الثقافية والإعلامية والإعلانية التي تخدم أهدافها في تكوين الرأي العام العالمي وتشكيل أذهان وأذواق المشاهدين وأفكارهم. وتقوم بالدعاية لنمط الإنتاج الاستهلاكي الرأسمالي الأمريكي ومعايير وقيم الرأسمالية في مرحلة العولمة بهدف سحب الشرعية من الثقافات المغايرة، وبخاصة الثقافات القديمة التي تعتبرها عقبات يجب إزاحتها إما باحتوائها أو إجبارها على الاختفاء بتدمير نسقها القيمي والأخلاقي ، ومنها ثقافتنا العربية التي تعتبرها معادية ، وتتهمها بأنها لا تستجيب لحاجات التطور الرأسمالي والتحديث ، وتفرز قوى اجتماعية معادية ومناهضة لاستراتيجياتها الكونية، أطلقت عليها تسمية خاصة قانونية وثقافية

---

[1] *التنمية حرية أمارتيا صن ترجمة شوقي جلال 284-كتاب عالم المعرفة الكويت رقم 303 أيار مايو 2004م.*

وعسكرية جمعتها تحت مفهوم الإرهاب ، وأعلنت الحرب عليها.

إن الاحتفاظ بهوية ثقافية مغايرة في عصر العولمة من القضايا الشائكة، وقد تجعل حاملها في مواجهة مستمرة مع الإمبراطورية الأمريكية. التي تطلب من الجميع الدخول في إيقاعات التحول الكبير الذي تفرضه الرأسمالية ما فوق الإمبريالية على العالم، ومن يظن أنه يستطيع الاحتفاظ بهويته دون الانخراط في الثورة الثقافية العالمية ومواكبة التطورات العاصفة في مجالات العلم والتكنولوجيا والاتصالات والمعلوماتية، لهو في وهم كبير. فالعالم لم يعد تفصله الصحراوات والمحيطات والجبال الشاهقة عن بعضه بل أصبحت المستويات التقنية والتقدم العلمي والثقافي هي التي تفصله وتقسمه، على الرغم من أنه أكثر تواصلاً وتأثراً وتفاعلاً؛ تقوده استراتيجيات موحدة ، تعمل على تدويل التجارة والأسواق والرساميل والشركات متعددة الجنسيات ، بقيادة قوة عظمى وحيدة. مما سيجعل الهوية القومية تحت تأثير الضغوط الإعلامية والسياسات الإمبريالية والمصالح التجارية والمالية والدعائية، هجيناً من التصورات والسلوكيات والرؤى المتعارضة والمصالح المتناقضة، والمطامح غير المحددة. ويصبح التاريخ مجموعة من الذكريات المحبطة والأشباح الغارقة في أوهام الذات، والمعيقة لحركتها للاندماج في العولمة، التي تجرها مكرهة لتبني قيمها وأخلاقياتها و إلا خلفتها وراءها بلا روح ولا معنى. فتسعى فئات اجتماعية ونخب ثقافية أوجدتها العلاقات الانفتاحية مع السوق العالمية-من رجال الأعمال - والبيروقراطيين- الذين ترسملوا بما نهبوه من الأموال العامة وبما حصلوا عليه من عمولات ورشوات على الصفقات التي أبرموها مع الشركات متعددة الجنسيات في السوق الوطنية، ومثقفين ارتبطوا بشكل أو بأخر بالمراكز الأكاديمية والإعلامية التي تنتج ثقافة العولمة. تسعى هذه الفئات للخلاص من الفكرة القومية العربية، أو القطيعة معها، أو باصطناع نمط من الفكر القومي القطري يتلاءم مع أيديولوجيا العولمة؛ تحاشياً للمواجهة مع الإمبراطورية التي يأملون أن تكافئهم برعاية مصالحهم في التنظيم الجديد للنظام الشرقي أوسطي المعلن عنه والذي تعمل على بنائه.

ولا يغرنك ما يصدر من دعاوى عن جهات معينة، من أن التمسك بقيمنا وتراثنا فحسب سيمكننا من الصمود والحفاظ على هويتنا وثقافتنا. فهذه أوهام تفرزها تصورات ليست على علم بجوهر القضية وأبعادها الحضارية والاستراتيجية للعولمة الإمبريالية في مرحلتها الكونية الجديدة وقوانينها

الاقتصـــادية والمالية، فالنهضة واليقظة والصحوة إن لم تكن عقلانية مستوعبة لــروح العصــر والعالم الحديث وثقافته وعلمه ومنطقه وأساليب إنتاجه المادية والروحـــية، وفهـــم عمـــيق لأصوله وتاريخه وفلسفته وثوراته العلمية والتقنية والسياســـية والاقتصادية، ومالكة لأدواته المعرفية والإنتاجية ومفاهيمه الفكرية، ســـتكون هوجة بلا آفاق تكسرها المواجهة غير المتكافئة، وتصطف عندها في مصفوفة الهزائم التي تتراكم عقابيلها في الجسد والروح العربيين.

إن ثقافتـــنا العربية التي هي إحدى أهم الثقافات المؤسسة للعالم الحديث بما أنجـــزت علـــى طـــريق الـــتقدم الفكـــري والثقافي من مناهج وطرق معرفية، ومـــنظومات أخلاقية وقيمية ومعايير إنسانية ، دينية و دنيوية منذ فجر التاريخ الإنســـاني. وبمـــا رســـخت في التراث الثقافي العالمي من معان لمفاهيم العقل والفكـــر والعلـــم والله والإنســـان والدين، وبما اخترعت من مؤسسات سياسية ومدنـــية ظلـــت مرجعـــيات للفكر والاجتماع البشري، ومن منظومات سلوكية ساهمت في ترقية الإنسان ككائن ناطق وعاقل. وأهلته للعيش المشترك بتأسيس الجماعـــة والدولـــة واخـــتراع القوانيـــن التي مكنته للخروج من البربرية إلى الحضـارة والثقافة والمدنية. وقد نسجت أروع ما جادت به عبقرية الإنسان وهي المـــنظومة الدينية، التي شرعت العلاقات الاجتماعية انطلاقاً من تحديد العلاقة بين الله والإنسان، الخليفة في الأرض توطيداً لمبدأ الفاعلية والمسؤولية المناطة بـــالعمل البشـــري، وتأكـــيداً لأهمية الإنسان كوجود حر وشخصية متساوية في الحقـــوق والواجـــبات اســـتواءها في الخلق والاستطاعة والقدرة، والتكافؤ في العمل.

وانطلاقـــاً مـــن هذا العمق التاريخي والآفاق الإنسانية قامت الأمة العربية بـــأداء دورها الريادي في تشكيل تاريخ هذه الأرض، لتنغرس ثقافتها في النسيج العقلـــي والتكويـــن النفسي للعرب، الذين مازالوا على الرغم من تخلفهم العلمي والتقنـــي والاقتصـــادي، وانشـــطار ثقافتهم تحت تأثير ثقافة الحداثة الأوروبية والأمريكـــية الوافـــدة إلى شطرين، حديث يحاول اللحاق بالغرب المتقدم وقديم يكـــافح لإثبات أصالته ومقدرته على البقاء في عصر العولمة والثورات الثقافية والعلمية والتقنية الحديثة. ما زال العرب مؤمنين بأن ثقافتهم قابلة للتحديث، فهي ثقافـــة المقاومـــة ضد الطغيان الأمريكي والصهيوني المتحالف مع الإمبريالية الغربية التي استعمرت الوطن العربي لعشرات السنين وكانت السبب في تخلفهم وفـــرض التبعية عليهم. وما زال هذا التحالف يكثف من ضغوطه عليهم، لتغيير

خــريطة الوطــن العربي بعد أن عبث بها وبتاريخها لتمزيق وحدتها ، وإقامة دولــة الصـــهيونية فـــي فلسطين ومدها بأسباب القوة لتمد هيمنتها على الوطن العربي، بل والبلاد الإسلامية تحت شعارات الشرق الأوسط الصغير ثم الكبير، وتفكــيك ثقافــتها وإظهارها على أنها ثقافة تجميع وتأليف ونقل للثقافات السابقة والســالفة وقــد خلت من عناصر الإبداع، وبخاصة في مجالات العلم الطبيعي والرياضـــي والفلســفة، وتحويلهـــا إلى ما قبل تاريخ الحداثة إلى إنتروبولوجيا لدراسة نشوء الدين والدولة والجماعات الأدنى من الأمة.

فالثقافة العربية بجميع مكوناتها الإسلامية والمسيحية والعلمانية وما اندمج فـــيها مـــن ثقافات الأمم الإسلامية، تؤلف مركباً فكرياً وعقائدياً ونفسياً وأخلاقياً وسلوكياً، يجعل الأمة المجزأة والمتخلفة علمياً وصناعياً وتكنولوجياً قوة روحية ومعـــنوية بـــل وماديـــة ملموسة تحول دون استكمال الهيمنة والسيطرة الشاملة للغـــزو الأمريكـــي الأحـــدث للعـــالم، لإعـــادة تشكيله في إمبراطورية عالمية رأســـمالية، وتعرقل مخططاتها واستراتيجياتها الكونية في هذا الصدد. ومن هنا كـــان الســـعي الحثيـــث والمبرمج الذي تعمل به ومن أجله حكومات الولايات المـــتحدة الأمريكـــية المتعاقبة الجمهورية منها والديموقراطية عبر عشرات بل مـــئات مراكـــز الـــبحوث العلمـــية والسياسية والدينية والتاريخية والاجتماعية والثقافـــية باسم الشرق الأوسط الصغير والشرق الأوسط الكبير حديثاً. وتوظف فيها طاقات وكفاءات فكرية وإعلامية وتنفق عليها ومن أجلها أموالاً طائلة، كما تســـتخدم فـــيها كل وسائل التكنولوجيا الحديثة للاتصالات والنشر والمعلوماتية والإرســـال عبر الأقمار الصناعية والإعلام المرئي والمسموع من أجل تشويه هـــذه الثقافة. مجندة لها الآلاف من الأقلام العربية المأجورة، ومن تجندهم لهذه الغايـــة مـــن المستشـــرقين والمستعربين في جامعاتها، في إطار خطة متعددة الأهداف لتفكيك هذه الثقافة وإفراغها من روحها المقاومة وتدجينها وجعلها ثقافة بائدة مثل غيرها من الثقافات القديمة.

-ط-

لقـــد جعـــل صموئيل هنتنجتون المفكر الأمريكي الصهيوني المعروف من صـــراع الحضـــارات أو الـــثقافات منطلقاً مبرراً للحروب الحديثة للإمبريالية الأمريكـــية لاستكمال سيطرتها الشاملة على العالم . واعتبر أن المظهر الرئيس لهـــذا الصـــراع هو بين الثقافة الغربية، ذات الأصول اليهودية -المسيحية وبين

الثقافة العربية -الإسلامية وهو جوهر ومحور هذه النظرية العنصرية. كما جعل معاصره فرنسيس فوكوياما انتصار الإيديولوجيا الرأسمالية الأمريكية على الاشتراكية السوفييتية نهاية للتاريخ، ليفتتح فصلاً جديداً من الصراعات على أسس حضارية من أجل بناء الإمبراطورية الأمريكية، خاتمة الإمبراطوريات.

هذه الأفكار وغيرها تتخذها العولمة الأمريكية مرجعية فكرية لاستراتيجياتها تجاه الوطن العربي، لإعادة تشكيله وفقاً لأهدافها. وتستخدم لذلك كل الوسائل المتاحة لها وهي كثيرة وفي طليعتها الغزو المسلح للأرض العربية، بقوتها العسكرية الأكثر تطوراً في العالم المعاصر، فقد احتلت العراق في نيسان *2003*م، وقواعدها العسكرية في الخليج العربي والجزيرة العربية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية موجودة وثابتة وأساطيلها في المياه والموانئ العربية تمتلك كل التسهيلات والإمكانيات اللازمة للتدخل لحماية مصالحها النفطية والاستراتيجية. وهي في فلسطين منذ *1948*م من خلال حليفتها دولة الصهاينة التي مكنت لها وجعلتها أكبر قوة عسكرية إقليمية في الوطن العربي بل في الشرق الأوسط الكبير. على طريق الإطاحة بثقافتنا واستبدالها بثقافة العولمة. وهذا هو جوهر صراع الثقافات ومشروع الشراكة في الشرق الأوسط الكبير الذي يضم الوطن العربي والبلاد الإسلامية.

في دراستي حول ثقافة التبرير وثقافة التغيير جرى التأكيد على ثقافة المقاومة التي هي جوهر ثقافتنا ذلك النسيج من القيم العربية والعقائد الدينية الإسلامية والسلوكيات والأفكار العلمانية التي ترسخت في الفكر والوجدان العربيين عبر الحقب التاريخية المختلفة. فشكلت الشخصية القومية والفردية العربية المناضلة التي لا تقبل الظلم والتبعية والذل والخضوع للأجنبي الغازي للوطن، وهذا ما تستهدفه العولمة الأمريكية الصهيونية وتعمل على محوه من ثقافتنا. وتطالب من أجل ذلك بتعديل واستبدال مناهجنا التعليمية والتربوية لإسقاطه منها، لتهدم هذا الجدار الصلب الذي تلقى ويتلقى صدمات الغزو الغربي الأوروبي والأمريكي والصهيوني ويجاهد من أجل صدها ويستنفر الأمة كلها للكفاح من أجل هزيمته مهما طال الزمن وعظمت التضحيات(ودرس فلسطين ثم العراق ما زال دامياً وحاضراً وراهنا).

هذه الثقافة هي ثقافة الانتماء في وجه الاستلاب والاستغراب والتجزئة، وثقافة الإيمان في وجه العدمية والفوضوية ، وثقافة الصمود أمام الانهيارات والسقوط والهزائم العربية. وعلينا أن نجعلها ثقافة الإصلاح والتحديث، بإصلاح

بنيـتها و موضــوعاتها و مناهجها كي تستطيع البقاء في الوضع الدولي الجديد الـذي فرضته الهيمنة الأمريكية والصهيونية على مقدرات العالم ، وكي نحافظ علـى روحها الكفاحية ومعاييرها وقيمها الشعبية الممجدة للمقاومة تحدياً للغزو الأجنبـي والاسـتبداد ، والاسـتراتيجيات الإمبريالية للعولمة الأمريكية الأكثر عدوانية في التاريخ التي جعلت هدفها تدمير ثقافة أمة كي تحطم قيمها والروح النضالية فيها. فأعلنت الحرب عليها تحت شعار صراع الثقافات، لتجبرها على اسـتبدالها بـثقافة لهـا شكل الحداثة ومضمونها. ولكنها فاقدة لروحها وهويتها الحضـارية ثقافـة مهـزومة تخـدم اسـتراتيجيات الهيمنة والإلحاق والتبعية الإمبراطورية الأمريكية.

إن خطـاب الحداثـة العربـي المعاصر الذي واجهنا ونواجه به تحديات العولمـة الثقافـية واسـتراتيجيات المحـو والإلغاء الثقافي. يعاني في مفاهيمه وعـباراته وأشـكاله ونصوصه من غموض في المعاني والمقاصد وتهافت في الأهـداف والغايـات. فيما تتسع الفجوة بين ما يتوخاه وبين ما يريد إيصاله إلى المتلقيـن العـرب والأجانـب، وبيـن مطامح واهتمامات هؤلاء وأولئك الذين يتوقعون منه التعبيرعنها. ليكون خطابهم للمقاومة والتغيير والإصلاح والنهضة مـن جديـد وتكوين ثقافة مغايرة. فهو مثلوم الهوية بين الحداثة والتقليد، و بين الـتراث والـتجديد، تلفيقي وتوفيقي في الأفكار والذاكرة ، تابع في المرجعيات والاستراتيجيات لأنه مبني بالأساس على شكوك أيديولوجية في متونه وحواشيه الشارحة والمفسرة، وعلى منطق التبرير في أصوله. تخترقه وتشرخه انهيارات الواقـع السياسـي والاقتصـادي والاجتماعي والثقافي العربي، وهزيمة الطبقة السياسـية العربـية، التي تهيمن على الحياة بعامة منذ أكثر من نصف قرن من الـزمان، تحـول فيها العالم بشكل يكاد أن يكون شاملاً وكاملاً، هدرت فيه كل الإمكانـيات للـتقدم نحو الأهداف الكبرى للنضال القومي العربي وهي الوحدة العربـية ، والتنمية الاقتصادية والتحرر القومي والثورة الثقافية. فقد أفلست هذه الطـبقة البيروقراطية المتنوعة الأصول الاجتماعية ولم يعد لها من دور سوى تأخير ومواجهة عملية الإصلاح السياسي والاقتصادي العاجلة والتي تدق أبواب الوطن العربي بقوة قبل فوات الأوان.

هـو علـى التحديد خطاب بعض أطياف النخبة، وليس خطاب الأمة، وقد غلبـت عليه اللاأدرية نتيجة الهزائم والانكسارات العربية خلال القرن الماضي وبدايـة القـرن الحالي، فسيطرت عليه ثقافة الأزمة، على صعيد الأيديولوجيا

والفلسفة والأدب والثقافة والسياسة. تفصله عن الواقع والناس الذين يخاطبهم، لغة الخطاب و مصطلحاته والمواضيع التي يتحدث عنها، فالرعايا الذين تصنعهم وتؤهلهم الأيديولوجيا وأجهزة الدولة القطرية المستبدة ليكونوا رهن الأوامر لا يفهمون من هذا الخطاب سوى ترديد شعارات التأييد والولاء. فيقدم خطاب الحداثة المقهورة هذا أصنافاً من الأفكار المنقولة من التراث أو المستوردة خصيصاً للدعاية ، فهي من مدارس مختلفة ومذاهب متباينة ومتناقضة المضمون. تلتقي في المرجعيات لتعكس هموماً ومشاكل ليست مشاكلنا في أغلب الأحيان ولا هي هموم الناس في وطننا. فتبقى معلقة في الألفاظ المنتقاة بعناية ودون شفافية، فهي إما تراثية أو مقتبسة حداثية. يجمعها شقاق الهوية و صدوع المعرفة المتفاوتة، لتنتظم في دوائر وتصطف في مماسات تتقاطع أنصاف أقطارها عند نقاط في المحيط فلا تتجاوزها إلى المركز لتشكل عقداً معرفية مؤسسة. فهي متشابهة في الجوهر وإن تباينت في الأطروحات، تعبر عن إشكاليات أكاديمية تنطلق من التراث إلى المعاصرة أو بالعكس، أو من الأنا إلى الآخر أو من الجديد إلى القديم أو بالعكس لتنشطر في صياغات ثلاثية متداخلة تعيد إنتاج التبعية الثقافية.

إذن هو خطاب الحداثة المقهورة- الإصلاحي الديني والقومي العربي الثوري، والماركسي الاشتراكي، والديموقراطي الليبرالي-بهوياته المتباينة. يتعرض اليوم وبعد هزائمه إلى مراجعات نقدية وتفكيكية تبتغي تهديمه والقضاء عليه. تعكس نفس نظام القول ونفس السمات التي تشكل خصائصه وصفاته وحدوده التاريخية. وهي المسافة الفاصلة بين المفكر والواقع العربي، وبين المثقف والمجتمع، والشعب والسلطة السياسية والثقافية.

وإذا أمعنا ودققنا النظر فيه ملياً يمكننا اكتشاف هوية موحدة لهذا الخطاب، يتضمنها خطاب السلطة (السياسية والدينية والثقافية). فهو خطاب السلطة التاريخي والحديث، يعكس وعياً مطابقاً بجدارة، سلطة متخلفة مطلقة، هدفها التمسك بكل ما يمكنها من السيطرة والهيمنة على المجتمع وعلى الأفراد لتكييفهم، ليكونوا طوع أوامرها. ونظراً لما تمثل هذه السلطة في حياة العرب المعاصرين من قوة قمعية قاهرة، ومن ممارسات ضارة ومؤذية وعلامات ورموز وجبروت واستبداد وفساد وضياع، كسلطة خارجية متعالية مغالية في استخدام قوتها العارية المادية والقعمية لإحكام قبضتها على وعيهم وإعادة صياغته، وتأليفهم كرعايا في مملكتها الوهمية. فإنها تجعل من ممارسة الكتابة

لإنـــتاج نـــص ثقافـــي حديث هواجس وكوابيس في وعي ولا وعي المنتج لهذا الـــنص الـــذي لا يعلـــم مـــا هو الممنوع وما هو المسموح به لكثرة المراقبين ومشـــاكل المـــنع وحظر النشر. مما يشكل أزمة فكرية وثقافية هي في الحقيقة أزمـــة الســـلطة كمفهـــوم وكسياســـة ومؤسســـات. فتظل تختفي أو تختبئ في الإنشـــاءات الأسلوبية، وتجبر المفكر وتلزمه بخطوطها الحمر مما يعيق ويحول دون إنجاز اختراقات و انقطاعات فكرية مؤسسة، لتظل العقلانية مفهوماً مؤولاً ومفســـراً فـــي خدمـــة السلطة والدولة المستبدة العتيقة، وليس لبناء دولة الحق والقانون والديموقراطية، دولة الحداثة.

-ي-

في الفكر المتفكر الذي يطرح الأسئلة ويحدد ويستوعب التجارب الماضية التاريخـــية التراثـــية، والغربية الوافدة ، دون إزاحة الصراعات فيما بينها. بل يعمـــد إلى البحث الحر والجريء لتجاوز الطرفين بحثاً عن العلاقة بين الجديد والمكتســـب وإنشاء مفاهيم علمية مركبة لثقافة الحداثة . تصبح كلمة ثقافي غير كافـــية لـــتحديد نـــوى التغيير و أزمانها، فتتقدم مفاهيم البنية الفوقية الماركسية لتصـــبح ذات مضمون أهم، لنجعلها موضوعاً للبحث والتفكر والعمل، والتحليل لاكتشاف اللامعنى فيما كان يبدو غنياً بالمعنى ، و نتبين ما هو غير عقلاني في الواقـــع الذي كان يبدو لنا عقلانياً، ولنكتشفه بمظهر جديد لم يكن عليه من قبل، بمعـــنى ثقافـــي وبتصـــورات وكـــيان فكري مغاير. كي نؤسس لتاريخ متميز وممارسات إبداعية منقطعة عن التقليد والترديد والنقل والاقتباس.

إن مـــا نلحظه من غياب لشعارات التحرر الوطني وألفاظ الثورة والعدالة الاجتماعية والاشتراكية والوحدة العربية من الخطاب الثقافي العربي المعاصر، وشـــيوع ألفـــاظ بديلة(الدولة القطرية والديموقراطية وحقوق الإنسان الأساسية والحـــريات العامـــة ودولـــة القانون والسلام والصلح مع العدو الصهيوني أي الاستســـلام والقـــبول باحـــتلالها لفلســـطين). تشير إلى تحويل ثقافي ملموس. فالعـــبارات الدارجة التي تشكل نسق الكلام اليوم سواء كانت مجرد جمل حاملة لكلام مسبوق أو فكر سالف أو مترجم، يحيل إلى مرجعيات خارجية أو تراثية، تحاول استيعاب الواقع العربي في صياغات جديدة ومفاهيم حديثة بلا تأصيل أو بحـــث تظل كتابات عابرة. إذ الزمن هنا لا قيمة له مرتبط بغايات معينة، تحدد طبـــيعة الإحـــالات إلـــى السياســـي والاقتصـــادي والتكنولوجي والعلمي، في

الأيديولوجيا السائدة. ويمثل مجرد استجابة لحاجات الآخر، الذي يعين مكاننا في طبوغرافية الفكر العالمي الحديث واستراتيجياته طالما نحن تابعين. ولم نمتلك القوانين الأساسية للحداثة، وكيف يمكن تطبيقها في واقعنا المأزوم، غير قادرين على حل إشكالياته التي خلقتها التبعية، ولا إنتاج مفاهيم التبعية ذاتها. فيظل خطابنا الثقافي مفصولاً متعثراً يعبر في صياغاته الملتبسة عن تطلعات وأهداف غيرنا ونحن نعتقد أنه يعكس بالحقيقة مشاكلنا. ونجتهد بفكرنا المستثار بهمومنا وهموم الآخر، لنجعل منها برامج ومناهج وسياسات، ونكرسها عقائد دون تمحيص. ثم نكتشف أن ما أنتجناه لا يمثل روح عصرنا ولا حقيقة أهدافنا، فنغرق في عملية مراجعة ونقد عابرة لا تتناول جذور الثقافة والفكر.

وبعد كل هزيمة وانكسار نحاول استيعاب ما حصل ونعكف على إعادة صياغة خطابنا استناداً إلى المحفزات الوافدة إلينا من مراكز إنتاج الثقافة والسياسة والاقتصاد والعلوم في المراكز الرأسمالية العالمية، وليس تلبية لوعينا الذاتي الذي يظل متخلفاً عن فهم ما يجري من تطورات عالمية.

ونتصدى لما نعتقد أنه مكمن الخطأ والقصور، فلا نتخطى إلا الأشباح التي اعتقدنا أنها حقائق حياتنا الجارية. فنجادل بعد كل هزيمة من أجل بعثها ثانية بأساليب وأشكال حديثة. بينما لا نجرؤ على تحدي المفاصل المانعة، التي يجسدها خطاب السلطة بأشكاله المختلفة. ليتعثر خطابنا من جديد دون تجاوز معرفي أو سياسي، بينما تنعكس فيه الأطياف الواسعة لأحدث الإبداعات الثقافية الغربية العالمية- نظريات ومعارف ومدارس نقدية وفلسفية-، لنتباهى بأننا على قدر كاف من الإطلاع على التطورات الجارية هناك، وأننا مثقفون عالميون . ولكنها لم تساعدنا حتى الآن على العبور بها إلى ما هو موضوعي وواقعي لبناء خطاب ثقافي مطابق لأوضاعنا وحل إشكالياتنا. فيتناهى الطموح في قصور ذاتي عند هذا الحد عاجزاً عن إحداث التطوير المطلوب فنغرق في التبرير والتعليل كما قال الشعر المتنبي (فقليل من الكلام اشتياق وكثير من رده تعليل).

ونلجأ تحت تأثير هذه الإخفاقات المتتالية، إلى افتراض أسباب بنيوية في عقلنا، نخبة وجماهير تجعل الطرفين عاجزين عن استيعاب أيديولوجيا الحداثة وفكر النهضة والعقلانية النقدية الأوروبية، وتحقيق القفزة النوعية لجعلها واقعاً ملموسا. فنستعير من قاموس الحداثة الغربية مسألة إشكالية وهي إصلاح العقل العربي ابتداء، الذي هو سبب التخلف والهزائم السياسية والثقافية، مقارنة بالعقل

الغربـــي الحديـــث الذي أسس للنهضة الأوروبية، وما زال يقودها بكفاءة حتى الثورة العلمية الراهنة، أو استعارة عقل جديد من هناك لبناء ثقافة عربية حديثة تنزاح عن التبرير والتعليل ، ليصبح عقلنا قادراً على المنافسة في إطار العولمة . وتتســـع الأســئلة وتتلكأ الأجوبة، كيف يمكن إحداث هذه المفارقة، بالإصلاح المعرفي؟أم بتغيير بنية الخطاب الثقافي؟أم بالتنمية الاقتصادية والثورة الإنتاجية الشاملة والانفتاح على هذه العولمة؟أم بالإصلاح السياسي؟.

إن العولمـــة لا تطلـــب مـــنا الإذن للدخـــول ولا تنـــتظر موافقتـــنا على الإصـــلاحات فهي بقوانينها الاقتصادية والمالية ووسائطها التكنولوجية تخترق الســـيادة والعقـــول والآراء والـــنفوس لتعيد تشكيلنا وفق استراتيجياتها، وتجرنا خلفها لاهثين لعلنا ندرك أو نفهم كيف يمكن تحسين شروط استيلائها على بلادنا !! ولـــيس مواجهتها!!. وهذا من عجائب التخلف والتبعية التي تسيطر وتفرض علينا تطوراً مشوهاً بدون إرادة منا أو قصد. وثمن السكوت أو العجز عن هذه الحالـــة يجـــب أن يكـــون هـــو التفكـــير المتبصر، لاكتشاف حقيقة ما هو آت بالمصـــالحة مع الذات المشطورة بين الحداثة والتراث وبين العقلانية التنويرية والتقلـــيد، لجعل خطاب الأزمة هو المدخل إلى خطاب النهضة الجديدة، وإرساء مـــنطلقات وقواعـــد المشـــروع الثقافي- الحضاري العربي الحديث. استكمالاً للعقلانـــية الـــنقدية التـــي يجب التوسل بها للفصل بين التبعية، وبرامج التنمية المســـتقلة للتحديـــث فـــي إطار الهيمنة الإمبريالية الأمريكية على العالم، وبين الـــتحرر الوطنـــي والقومي كفعل يستهدف بناء الإنسان العربي أولاً من خلال ممارســـة الحـــريات العامـــة والديموقراطـــية والحفاظ على الحقوق الأساسية للإنســـان، وبـــناء المؤسســـات التـــي تمثل الوعي الموضوعي لجوهر وطبيعة العلاقـــات مـــع الآخـــر الذي يفرض أولوياته علينا-وهي مصالحه الاقتصادية والسياســـية والثقافـــية-ويحدد لنا موضوع أفكارنا، في كل مرحلة. لنعكف على التلاؤم معها مع كل انعطاف ومع كل تغيير كي يكون خطابنا مسموعاً ومقبولاً لديـــه أو لنـــتوهم ذلك، فهو ليس بحاجة لخطاب يكرر ما كان قاله إلا من قبيل إعادة إنتاج تبعيتنا له.

إن الشـــكلانية التي يحرص منتجو خطاب الاقتباس أو المثاقفة من مثقفينا عليها وهم من النخبة، الذين تغيرت أصولهم الاجتماعية عبر القرن الماضي من رجـــال الديـــن والإصـــلاح الديني والتربوي إلى المخضرمين الذي جمعوا بين الـــثقافة التراثية وثقافة الحداثة المقتبسة من أبناء الأعيان الريفيين والكمبرادور

المدنييـــن، حتى رجال الفكر القومي العربي الثوريين والوحدويين الذين هم من أبـــناء الطبقة الوسطى والبرجوازية الصغيرة ثم من العسكريين والتكنوقرطيين والبيروقراطييـــن والأكاديمييـــن حاملي ثقافة الحداثة الغربية وعلومها الجديدة ، التي درسوها وتفقهوا بها في مراكزها الأساسية من جامعات ومعاهد ومؤسسات علمـــية وتكنولوجية هناك أو في أرض الوطن، والمنحازين إلى تلك الثقافة على أنهـــا السبيل الوحيد للخلاص من التخلف والقهر والفقر. هذه الشكلانية تقتصر على إعادة تفسير وترتيب وتأويل ما سبق البحث فيه بقصد إضفاء معان جديدة علـــيه واقـــتراح أساليب مفترضة لحسن تطبيقه والاستفادة منه بشكل أفضل من السابق. وهذا ما يجعل شبكة العلاقات الثقافية-السياسية مأزومة بالعمق فلا تنتج إلا مصـــفوفات مـــن الأفكـــار تـــتحول إلى تراث فوق التراث على الرغم من الفواصـــل الزمنـــية بينها؛ لأنها تفتقد روح المشروع الحضاري، والفكري الذي يؤســـس لقطيعة ثورية أو لنقل تجاوزاً معرفياً لما هو سائد، على الطريق لإنتاج تركيب نظري يجمع المنهج العلمي والنقدي وطرق وأساليب تفكيرنا وممارستنا فـــي تحديـــد المسائل الرئيسة لمشروعنا المأمول والمباين للمشروع الإمبريالي الذي يغزونا باسم العولمة.

■■■

الفصل الأول:
دور التراث الفكري السياسي والجهادي في تكوين الثقافة العربية الحديثة.

{الحروب ضد الفرنجة (الصليبيين)} في العصور الوسطى نموذجاً.

أ- تمهيد حول مشروعية البحث وأهمية الموضوع، الأسئلة والأجوبة والمبررات والأسباب

لعل الحروب التي شنتها أوروبا الغربية تحت شعارات-الصليب وبقيادة باباوات روما-وأطلقت عليها اسم الحروب الصليبية، في حين سماها العرب الحروب ضد الفرنجة الغزاة لأرض العرب والإسلام. لعل هذه الحروب التي استمرت أكثر من مائتي عام هي الحدث الأهم في تشكيل تاريخنا الحديث ووعينا للعلاقات مع أوروبا هذه التي عادت لغزو أراضينا في العصر الاستعماري منذ بداية القرن التاسع عشر؛ فاستعمرت الأقطار العربية على التوالي حتى مطلع القرن العشرين، وأقامت دولة(إسرائيل)الصهيونية في فلسطين.

هذه الحروب ما زالت مرجعاً لثقافاتنا الحديثة والمعاصرة، سلباً وإيجاباً، فهي بما زرعته في وعي ولا وعي الأمة العربية عن عدوانية أوروبا الصليبية، التي استهدفت القضاء على العرب والإسلام، باحتلال بلادهم والتمكن فيها ونهب ثرواتها، وإيجاباً بما خلفته من إيمان عميق وثابت بقدرة العرب والإسلام على الصمود ودحر الغزاة مهما كانوا أقوياء، بالتأكيد على الهوية القومية والدينية، ومن أجل الحرية والاستقلال مهما طال زمن المقاومة والحرب، وتمادى العدو في بطشه وتدميره للأرض والشعب ومهما كان متفوقاً في السلاح والعتاد و التقنيات العسكرية والاقتصادية، ومهما كانت التضحيات جسيمة في

الأرواح والممتلكات . وتكاد المقاربة أن تكون لاشعورية وهي متأصلة في الوجدان الشعبي بين تلك الحروب الظالمة وما تبعها من غزو استعماري لاحق في العصور الحديثة والحروب الشاملة على العرب والإسلام في المرحلتين الاستعمارية والإمبريالية وما بعدهما في عصر العولمة والتحالف الأمريكي-الإنكليزي – الصهيوني الذي يقود العالم بعد سقوط دولة الاتحاد السوفيتي الاشتراكية في العقد الأخير من القرن العشرين وما نتج عنها من تفتيت وتجزئة وتقسيم وتبعية وإلحاق، وتدعيم لدولة الصهاينة الغزاة لفلسطين .

إن التراث الفكري المقاوم والثقافة الجهادية التي نسجتها الحروب ضد الفرنجة ما تزال حاضرة في الفكر العربي الحديث وثقافة المقاومة الراسخة في لا وعي الأمة أفراداً وجماعات وهي المعين الذي تتغذى منه في صبرها وصمودها أمام الغزو المتعدد الأشكال والوجوه والمسميات، وهي على قناعة تامة بأن النصر في النهاية هو حليفها وهو آت بلا ريب. وفي نفس الوقت فإن الإرث الثقافي والفكري الذي أنتجته غزوات الصليبيين وحروبهم ضد العرب والإسلام ما زال حاضراً في الفكر السياسي الحديث للغرب الرأسمالي الذي يعتبر نفسه من سلالة أولئك الغزاة، ويشكل رأسمالاً رمزياً يستمد منه القادة السياسيون والعسكريون والمفكرون والمثقفون العلمانيون والدينيون المفاهيم والشعارات التي يريدون لتعبئة الجماهير في بلادهم لخدمة أهدافهم السياسية، وبخاصة في الحروب ضد أعداء مفترضين. فلقد جعل أيزنهاور الجنرال الأمريكي وقائد جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية عنوان مذكراته عن الحرب ضد ألمانيا الهتلرية في أعوام *1943*م و 1944م و1945 م(حرب صليبية في أوروبا An crusade in europe). وفي أعقاب الهجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك والبنتاجون-وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن-في 11 أيلول -سبتمبر *2001* م أعلن جورج بوش الإبن الرئيس الأمريكي الحرب الصليبية على الإرهاب العربي والإسلامي، وصرح الجنرال الأمريكي (وليام بويكن) رئيس قسم الاستخبارات في البنتاجون-وزارة الدفاع الأمريكية بعد غزو العراق نيسان *2003* واشتداد المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأمريكي في أواخر *2003* (إن إله المسلمين وثن) (والحرب على الإرهاب هي حرب من أجل المسيحية. المسلمون يكرهون الولايات المتحدة لأنها أمة مسيحية ولن يتم القضاء على عدونا الروحي إلا إذا وحدنا صفوفنا ضده باسم يسوع المسيح). وفي محاضرة لخوسية ماريا أزنار رئيس وزراء

أسبانيا السابق في جامعة جورج تاون الأمريكية في 2004/9/22م قال ما يلي: إن مشكلة أسبانيا مع تنظيم القاعدة والإرهاب الإسلامي لم تبدأ مع أزمة العراق، بل يجب أن نعود إلى الوراء لتبدأ في القرن الثامن الميلادي عندما تعرضت أسبانيا للغزو من جانب المغاربة ورفضت أن تكون جزءاً من العالم الإسلامي وخاضت معركة طويلة لاستعادة هويتها حتى طردت العرب من شبه جزيرة إيبيريا التي كانت تحمل اسم الأندلس في القرن الخامس عشر الميلادي). إن ما يجمع هذه الصليبيات في فكر الغزاة هو مفهوم الحرب الشاملة التي لا تقتصر على النواحي العسكرية والحربية بل تشمل الاقتصاد والسياسة والثقافة والدين أي هزيمة العدو بشكل تام باستئصال فكره وثقافته وإعادة تكوينه وفقاً لإرادة الغالب. ومن وجهة نظرنا كعرب فإن الصليبية تعني غزواً يستهدف المصير والسيادة والأرض والثقافة والهوية العربية الإسلامية، وتعني المقاومة حتى النصر وهزيمة الغزاة كما حصل للصليبية الأولى. فهل توقع هذه النتائج مشروع من وجهة نظر تاريخية معاصرة في ضوء التفوق الشامل للغزاة حضارياً واقتصادياً وعسكرياً وعلمياً، والتخلف العربي النسبي والمطلق ؟وهل من الممكن النصر العربي؟الفكر القومي العربي والإسلامي واثق من ذلك ويجادل بأن تفوق الغرب علينا مسألة وقت ليس إلا ، وستزول دولة الصهاينة المحتلة لفلسطين كما زالت دولة اللاتين الصليبية في بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى بعد أن عاشت لأكثر من مائة عام . الليبراليون والوضعيون العرب يقولون بأن التخلف والتبعية اللذين يحيطان بنا يجعلان من المستحيل أن ننتصر في المواجهة الراهنة. وعلينا أولاً أن ندخل الحضارة الحديثة ونستبطنها ونوطنها في مجتمعاتنا حتى نستطيع الحديث عن مواجهة تمتلك بعض شروط التقدم لتحقيق ما هو ممكن في الظروف السائدة.

إن من المهم في هذا السياق دراسة الحروب ضد الفرنجة كحلقة مركزية وتاريخية في تشكيل وتكوين الجيو-سياسة العالمية للوطن العربي ولأوروبا الأطلسية التي قامت في أراضيها النهضة الحديثة أي ما سمي بعصر النهضة، على الرغم مما سيثيره البعض من أن تجاوز الإمبراطورية العثمانية التي احتلت الوطن العربي في نهاية هذه الحروب سيترك البحث ناقصاً. إن تشريح البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والأسباب والدوافع وتطورات العملية الكفاحية ضد الغزاة الفرنجة طيلة ما ينيف عن مائتي عام والنتائج الجيو-بوليتكية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تمخضت عنها هذه

المواجهة قد تعطي المبررات لمشروعية البحث والفرضيات التي انطلقت منها لصياغة مفاهيم مقاربة بين الحدثين التاريخي والراهن في سياق الوضع الدولي والتطورات الجذرية لكليهما. فقد تغير وضع الوطن العربي وأوروبا خلال الفترتين اللتين جرت وتجري فيهما المواجهة، في الأولى كان الوطن العربي متقدماً علمياً وتكنولوجياً وسياسياً وعسكرياً على الغزاة الفرنجة. أما في المواجهة الثانية والتي ما انفكت مستمرة منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان فقد أصبحت أوروبا الاستعمارية وأمريكا الإمبريالية هي المتفوقة في كل الميادين وتركتنا وراءها متخلفين مجزأين وتابعين لها في الاقتصاد والسياسة والثقافة والعلم دون أمل منظور باللحاق بها. مما أعاق مسيرتنا التحررية وإحرازنا أي منجزات هامة على طريق التحرير. فاختلاف الوضعين التاريخيين أدى حتى الآن إلى نتائج مغايرة. وهذا ما قد يعني افتراق سبل الوصول إلى نتائج مقاربة.

لقد افترضت أن هناك حلقة مركزية في تاريخ كل أمة تشكل مفتاحاً لفهم تكوين وخصائص وتطورات تاريخ هذه الأمة بما أن هذه الحلقة نقطة اتصال وانفصال واستمرار وانقطاع، منها يبدأ التقدم أو الانهيار، وعلينا أن نمحص مظاهرها ونتحرى مفاعيلها كما تظهر في المصائر التراجيدية لقياداتها وللقوى الاجتماعية والسياسية التي حملت أعباء الكفاح وجسدت قيمه وأخلاقياته ومنظومته الثقافية، والمشروع الحضاري والرؤى الفكرية التي كانت توجه ممارستها لإنجاز برامجها السياسية والاقتصادية، بما في ذلك التركيز على ديناميكية العلاقات الداخلية مع الحلفاء والمعارضين والعلاقات الخارجية وكيفية إدارة الصراع لتحقيق الأهداف المرجوة. ودراسة أشكال المؤسسات الحكومية والأهلية التي أفرزتها الممارسة والعملية الكفاحية والوقائع الجارية للرد على التحديات ومواجهة التطورات ، والتي تر سخت كأساليب للعمل وأنماط للتفكير، بهدف عقد مقارنة بين استراتيجيات الحدث التاريخي المؤسس والذي اعتبرته هنا -الحروب ضد الفرنجة- والحدث التاريخي الراهن وهو المواجهة الطويلة الأمد مع الإمبريالية في مراحلها المتطورة لتحرير الأرض العربية وبناء دولة الوحدة العربية. لقد اعتمدنا بكثير من الحماس والانتماء الممزوج بالفخر عصر الثورة العربية الإسلامية بقيادة النبي محمد والخلفاء الراشدين والعصر الإمبراطوري المزدهر للخلافة الأموية والعباسية عصر التفتح والتوسع والنهضة العلمية والثقافية، وجعلناه القاعدة التي توجه تطلعاتنا نحو الدولة

العربية الحديثة، وبناء مفاهيمنا حول حاضرنا المتخلف قياساً إلى ماضينا العظيم. ربما كان هذا مشروعاً من وجهة نظر نفسية -اجتماعية لاستعادة الهوية في عصر التفوق الإمبريالي الأوروبي والأمريكي الغربي، لو لم ننسَ بل نتجاوز عن عمد ما أسميناه عصر الانحطاط والانهيار وهو عصر الحروب ضد الفرنجة والغزوات الكبرى للتتار والمغول ومن جاء بعدهم من القبائل البدوية الأخرى من آسيا الوسطى، فأقمنا بناء أيديولوجياً لعصر النهضة الحديث انطلاقاً من عصر النهضة الأول . بدل أن ننشئ مفاهيم معرفية موضوعية حول المرحلة التي ينتسب إليها تاريخنا الحديث وهي الحروب ضد الفرنجة التي هي الأصل الحقيقي لثقافتنا وفكرنا السياسي وأوضاعنا الاجتماعية والسياسية الحديثة، تؤصل وتؤسس فكرياً وعلمياً لمرحلة المواجهة الكبرى التي ابتدأت منذ القرن التاسع عشر وما زالت حتى اليوم.

ولربما يسأل سائل وما هي المشروعية في هذه الفرضية؟ولماذا فترة الحروب ضد الفرنجة؟ ولماذا الافتراض أن هذه الحروب قد فشلت في إطلاق نهضة ثقافية وحضارية؟ألم تؤدِ إلى تحرير الأرض العربية وطرد الصليبيين، واستعادة السيادة العربية عليها؟وفي ذلك تكون قد حققت أهم الأهداف والغايات.

إن الجواب على هذه التساؤلات يتضمن الأسباب والأفكار التالية التي سنستعرضها مفصلة في هذا البحث :

1-تفكك الدولة العربية الواحدة وقيام أكثر من خليفة في الأرض العربية والإسلامية(خليفة عباسي في بغداد وخليفة أموي في الأندلس، وخليفة فاطمي في القاهرة وخليفة من المرابطين ثم من الموحدين في المغرب إلى جانب الإمارات والدويلات الإقطاعية القبلية والطائفية والعشائرية والقومية)

2- تمزق المجتمع العربي الإسلامي على أسس عشائرية وقبلية وطائفية وأحلافية-عرب اليمن وعرب الشمال، حلف ربيعة والأزد وحلف قيس وتميم. . .

3-انحطاط الإقطاعية العربية بأصولها المدنية التجارية لصالح الإقطاعيات العشائرية البدوية(بني أسد-بني حمدان-بني عقيل-بني كلب -طي- التي اتخذت طابعاً عسكرياً شبيهاً بالإقطاعيات البويهية والتركمانية والسلجوقية، مما أدى إلى تدهور علاقات الإنتاج والقوى المنتجة

والمستلزمات المادية والروحية لعملية الإنتاج مع انهيار الدولة المركزية وتحول الخليفة العباسي إلى أمير إقطاعي مثله مثل الأمراء الآخرين

4-اختفاء وزوال الطبقة التجارية العربية التي حملت لواء الإسلام مما انعكس فراغاً على الساحتين الاقتصادية والسياسية، وتجلى ذلك في غياب الطبقة المهيمنة ثقافياً، وملأت هذا الفراغ طبقة تجارية كوسموبوليتية من الأجناس الداخلة في الإمبراطورية والتي ساعدت في تكوين الدويلات والإمارات التي انفصلت عن الخلافة المركزية وسعى كل منها لتكريس موقعه المتميز بالتحالف مع الأمير الإقطاعي والسلطان الحاكم للحفاظ على مصالحه وحمايتها من منافسة الإمارات المجاورة والبعيدة. و لم يكن لديها مشروعاً فكرياً ولا سياسياً لتأسيس دولة مركزية واحدة. وقد تأثرت هذه التشكيلة الجديدة بتحولات طرق التجارة الدولية المارة في الوطن العربي، من الطريق البحري الذي ظلت تسيطر عليه الإمارات العربية والدولة المركزية حتى القرن الثالث عشر الميلادي. فضعفت أهميته لصالح الطريق البري الذي يبدأ من أوروبا الغربية الإقطاعية ويمر بأراضي الإمبراطورية البيزنطية وآسيا الوسطى التي كانت تسيطر عليها الإمارات التركية والمغولية البدوية حتى الهند والصين(طريق الحرير)،وترافق ذلك مع مساعي الدول الأوربية المتوسطية وبخاصة أسبانيا والبرتغال وإيطاليا المشتبكة في الحروب الصليبية ضد العرب في الأندلس والمغرب العربي لنزع السيطرة العربية على الطريق البحري إلى الهند والمار في المياه والموانئ العربية ولاكتشاف طريق بحري لا يمر في المياه العربية بالدوران حول أفريقيا وصولاً إلى الهند. وتكللت جهودها بالنجاح مما أدى لاحقاً إلى اكتشاف أمريكا والعالم الجديد، وانضمت أوروبا الأطلسية إلى هذه الجهود فيما بعد. مما حرم العرب والدول الأوروبية المتوسطية من أرباح هذه التجارة التي كانت تحت هيمنتها خلال الحروب الصليبية وبخاصة المدن الإيطالية التي كوّنت قوتها الاقتصادية والعسكرية خلال هذه الفترة، فكانت الجنين الذي نما منه النظام الرأسمالي الحديث، في حين تدهورت الطبقة التجارية الجديدة في الدول المتتابعة في الوطن العربي وتدهور الاقتصاد التجاري

لصالح الاقتصاد الإقطاعي الطبيعي.

5- انهيار طبقة الفرسان العرب بعد أن ألغى المعتصم الخليفة العباسي الثامن ديوان العطاء الذي كان الخليفة عمر بن الخطاب قد أنشأه لتمويل وتجهيز جيش المجاهدين للدفاع والفتح من القبائل العربية التي رابطت في الثغور والعواصم على حدود الدولة العربية الإسلامية. وبتأسيس المعتصم لجيشه الجديد من الغلمان الأتراك الذين اشتراهم وأعدهم لهذه الغاية وهي حمايته والقتال ضد المنشقين عليه، وتعاظم دور هذا الجيش المرتزق حتى أصبح القوة الوحيدة في الدولة وسرعان ما صار قادته هم الحكام وهم السادة في العاصمة بغداد وفي الولايات والأقاليم. فأقاموا الإمارات والدول واستقلوا بها ونافسوا الخلفاء ومن ثم صاروا يعزلونهم ويقتلونهم إن لم يسيروا حسب أوامرهم، وتحت سيطرتهم. وصارت عواصمهم الإقليمية أكثر ثراء وفخامة من العاصمة ذاتها ومراكز جذب للعلماء والشعراء والأدباء والكتاب والفقهاء والفلاسفة والمحدثين، وقد تحطمت نتيجة لذلك الأسس الاجتماعية والسياسية التي قامت عليها الدولة العربية وتوارت المنظمات الأهلية والقبلية التي شكلت عماد الدولة، ليبسط العساكر سلطانهم عليها مشكلين طغماً حاكمة، أطاحت بالقواعد المادية والروحية التي بنيت الدولة العربية بموجبها.

هؤلاء العساكر الذين تولوا القتال ضد الصليبيين والغزاة الآخرين، كانوا هم من عوامل الضعف والقوة و الانكسار والانتصار، استطاعوا بعد حروب طويلة تحرير البلاد من الغزاة بكلفة عالية مادية وروحية، فكانوا من الأسباب الرئيسة في فشل الأمة في تحقيق نهضة جديدة.

6- تراجع الكتابة بالعربية لصالح اللغات الأخرى الفارسية والتركية في بلاط الإمارات الجديدة، وانحسار الثقافة العربية بعد إغلاق باب الاجتهاد و اضطهاد الفكر الفلسفي والعلمي الطبيعي، وفكر الفرق المخالفة وتحريم العمل بالمنطق اليوناني من قبل المحدثين وبخاصة الحنابلة، وانكفاء الإنتاج الثقافي على الأبحاث في اللغة العربية والأدب والشعر وشرح وتفسير الكتب الأمهات في الفقه وعلوم القرآن والأحكام والحديث وحفظ ما اعتبر الأصول المعرفية للإسلام.

- التغييرات والتحولات في بنية القوى الحاكمة

منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.

في سلسلة التطورات والتحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي أصابت الخلافة والمجتمع العربيين، تغيرت بنية القوى الحاكمة والجماعات صاحبة النفوذ في الدولة والنخب البيروقراطية المهيمنة على الإدارة والثقافة والاقتصاد، وتغيرت التحالفات الاجتماعية و السياسية. فقد انهارت الأرستقراطية العربية التي حكمت الإمبراطورية وعلى مراحل منذ وصول العباسيين إلى الخلافة، وانهارت تحالفاتها القبلية، والاجتماعية وبخاصة مع البرجوازية التجارية، وأُبعدت نهائياً بعد سيطرة الجيش المرتزق على الخلافة. فنشأ تحالف اجتماعي -سياسي جديد ضم قادة الجيش الجديد والفقهاء والمحدثين وزعماء الطرق الصوفية. واكتمل هذا التحالف بسيطرة بني بويه الفرس على الخلافة في بغداد منذ 945م إلى 1055م-334هج إلى 447هج-فاتخذوا لقب الأمراء والسلاطين وسلبوا الخلفاء كل السلطات، الذين عمدوا إلى تقوية الجيش الذي استولوا به على الخلافة وهو من أبناء جلدتهم من الديلم بضم الفرق التركية السابقة إلى جيشهم مما أجج التنافس والعداء بين الفريقين، وشكل عبئاً ثقيلاً على كاهل الشعب بسبب الضرائب الباهظة التي فرضها الحكام البويهيّون وبخاصة معز الدولة لدعم هذا الجيش، وكان من نتيجيتها تعميم الإقطاع وتغييره[1]ويذكر ابن مسكويه(واتسع الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح. . . وفسدت المشارب وبطلت المصالح وأتت الحوائج على التناء(ملاك الأراضي والمزارعين)، ورقت أحوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر. . . فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين، وامّحى أثر الكتابة والعمالة ومات من كان يحسنها ونشأ قوم لا يعرفونها)[2]، وكذلك فعل السلاجقة الأتراك الذين أسقطوهم من الحكم وحلوا محلهم في 1055م 447 هج، فتهاوت الإمارات العربية أمامهم. ثم قامت الخلافة الفاطمية في تونس وانتقلت إلى مصر949 م وظلت حتى أسقطها صلاح الدين الأيوبي 1171م. وسيطرت على مقدرات هذه الخلافة بيروقراطية دينية إسلامية وشعوبية (خليط

---

(1) كلود كاهن مقالة جيش في الموسوعة الإسلامية، نقلاً عن آركون مصدر سابق ص 298.

(2) تجارب الأمم لابن مسكويه ص 96-100 نقلاً عن آركون ص 304

من العساكر المرتزقة وبقايا جيش الدعوة من القبائل البربرية (مصمودة وكتامة) والعربية التي هاجرت إلى مصر وهي تعتقد أنها شريكة في المذهب والعقيدة مع خلفاء هذه الدولة. فلم يعد للعرب في التشكيلة الجديدة التي استولت على الخلافة سواء في بغداد أو القاهرة تأثير ملموس على السياسة والدولة وإنما شركاء من خلال بعض القبائل التي دخلت في الصراعات على السلطة مع المتصارعين من قادة الجيش المرتزق ومن خلال الفقهاء والمحدثين في العاصمة والحواضر الإقليمية. في حين تحول القسم الآخر إلى البادية وعادوا قبائل غازية تدافع عن وجودها ومصالحها أمام زحف القبائل التركية والتركمانية والخوارزمية التي دفعتها حركات القبائل المغولية والتترية نحو الغرب منذ القرن العاشر الميلادي إلى البلاد العربية والإسلامية. وهاجرت قبائل عربية كثيرة نحو المغرب العربي مثل قبائل هلال وعامر و زغبة ورياح بحثاً عن مواطن جديدة لتحل محلها القبائل الغازية. مما سبب تبدلات ديموغرافية واسعة وعميقة في الوطن العربي وأنتج خراباً ودماراً وتخلفاً في الثقافة والفكر.

فالحكام الجدد صاروا من العساكر الأعاجم الغرباء عن رعاياهم وبعضهم كان من الرقيق ، وكان همهم حفظ الأمن وجباية الإقطاع والضرائب والرسوم، ومغالبة نظرائهم في الإمارات المجاورة الطامعين والمعادين في أغلب الأوقات، أو إخماد الثورات الفلاحية وهجمات القبائل العربية عليهم التي ما انفكت تعتبرهم مغتصبين وغزاة اغتصبوا الخلافة وصادروا حقوقها في بيت المال وفي السيادة. وقد وصفهم الشاعر المتنبي بقوله:

وإنما الناس بالملوك وما — تُفلِح عرب ملوكها عجمُ

لا أدب عندهم و لا حسب — ولا عهود لهم ولا ذممُ

في كل بلاد زرتها أممُ — ترعى بعبد كأنها غنمُ

سادات كل أناس من نفوسهم — وسادة المسلمين الأعبد القزمُ

وهم يفتقرون إلى أدنى الشروط المؤهلة للحكم وقال عنهم الشاعر والفيلسوف أبو العلاء المعري الذي عاصر بعض هذه الأحداث:

يسوسون الأنام بغير عقل — وينفذ أمرهم ويُقال ساسة

فـأفٍ مـن الحياة وأفٍ مني   ومـن زمـن رياسـته خساسـة

(فالمعلى بن حيدرة والي دمشق للفاطميين عام 467هج ونتيجة للصراعات بيـن المغاربـة والمشارقة والعساكر المرتزقة في الجيش الفاطمي أساء السيرة وبالغ في سياساته القمعية فخربت دمشق وأعمالها وجلا أهلها عنها وهان عليهم مفارقـة أملاكهـم وسلوهم عن أوطانهم). أما أتسز السلجوقي الذي أخذها من الفاطميين 468هج فقد قتل في القدس ثلاثة آلاف إنسان وأخذ من الأهالي مالاً كثيراً ثم عاد إلى دمشق ولم يبق بها إلا العشر من سكانها من الجوع والفاقة بل لـم يـبق مـن أهلهـا سوى ثلاثة آلاف بعد أن كانوا خمسين ألفاً أفناهم الوباء والغلاء والجلاء وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان)[1].

لقـد سببت الفوضى السياسية الناجمة عن فقدان السلطة المركزية لقوتها، يضاف إلى ذلك التبدلات الديموغرافية بنتيجة الانهيارات والهجرات التي تحدثنا عـنها فـراغا سياسـياً وأمنياً حاولت القوى العربية الشعبية المحلية في المدن والقبلـية فـي الأقاليم والبادية ملأه إلى حين. فقد حكم (قسام التراب)وهو عامل بـناء مـن(تلفيـتا-قرية شمال شرقي دمشق) دمشق في أوائل القرن الخامس الهجـري بالاسـتناد إلى منظمات الفتيان والأحداث والحرفيين الآخرين. وحكم صـور أحـد الملاحين ويدعى(كتيلة)، وتقاسم أمراء القبائل العربية أمير كلب وأمـير طي وأمير قيس السلطة في بلاد الشام ، من حمص وإلى الشمال لأمير قيس، ومن حمص إلى جنوبي دمشق لأمير كلب، ومن جنوبي دمشق حتى غزة لأمـير طـي[2]. وقـام الحلبيون بتشكيل مجلس شورى من الأعيان والمشايخ والفتـيان لإدارة شـؤون مدينـتهم مع القول بملكية صاحب الموصل والطاعة الإسـمية لمسـلم بـن قريش العقيلي أمير المنطقة، وقد أحسنوا الإدارة والحكم وتنفـيذ قواعد العدل مع استتباب الأمن[3]. ولكن هجوم الأتراك السلاجقة على حلـب وقتل مسلم بن قريش 478هج على يد الدانشمند بن قتلمش والي إنطاكية السـلجوقي أجهـض هذه التجربة. فالحكام الذين كانوا عرباً من قبل من الشام والعـراق أصبحوا عساكر يكتسحونها بالقوة وهم مزيج من العجم و التركمان، وكلهـم سواء في ارتكاب المظالم والمغارم. فلم يستقر الحكم على حال معينة،

(1) خطط الشام محمد كرد علي ج1 ص238
(2) خطط الشام مرجع سابق ج1 ص238
(3) خطط الشام المرجع السابق

فكانت العوامل المذهبية والجنسية تتنازع هذه القوى الباحثة عن السلطة والمال وأمست البلاد ألعوبة في أيديهم. وهم لا يملكون الحد الأدنى من الثقافة السياسية والعربية ولا المشروع الحضاري لمواجهة الأحداث الخطيرة التي بدأت نذرها تتجمع على أبواب الوطن العربي قادمة من أوروبا الطامحة إلى التوسع والهيمنة. هذه الفوضى السياسية والانهيارات الاجتماعية والخراب الاقتصادي وصراعات العساكر وقادتهم على النفوذ والسلطة والثروة والغزوات المتلاحقة للقبائل التركمانية والتركية من الشرق إلى الغرب كانت المقدمات والممهدات التي استغلها الفرنجة الصليبيون للهجوم على الأرض العربية. فاجتاحوا شمال بلاد الشام بعد توطيد تحالفهم مع الإمبراطورية البيزنطية و اتفاقهم على اقتسام ما سيحتلونه من بلاد. واستطاعوا احتلال مناطق متنوعة في شمال و وسط بلاد الشام في فلسطين وسوريا والساحل السوري، وأقاموا فيها إمارات إقطاعية على النمط الأوروبي(إمارة الرها وإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس) وقد زرعوا الدمار والخراب والقتل والمذابح أينما حلوا لإبادة العرب الآمنين ومدنهم وقراهم . وكان بين مقتل آخر أمير عربي (مسلم بن قريش العقيلي)478هـج وبين الغزو الصليبي 491هج ثلاث عشرة سنة. وكانت الإمارات والممالك والإقطاعيات بيد القادة الأتراك السلاجقة والتركمان في حلب وحمص وحماة ودمشق والأتابكيات في منطقة الجزيرة السورية كذلك، بعد انفراط الدولة السلجوقية التي أسسها طغرلبك وأوصلها من ما وراء النهر إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية. وقضى على السلطنة البويهية واتخذ لقب السلطان، وجعل منصبه رمزاً دينياً بعد أن جرده من كل سلطاته الدينية والدنيوية . وقد نشب الخلاف بعد وفاته، بين أبنائه ألب أرسلان وأشقائه ثم أبناء هذا وأحفاده(أبناء ولده ملك شاه) وأخوته وقادته وأتابكته، وأخيه تتش بن ألب أرسلان، وابنيه دقاق ورضوان اللذين كانت لهم مملكة دمشق وحلب وحمص وحماه، ومماليكه آق سنقر وبزان وطغتكين وسقمان، وأولاد أرتق إيلغازي الذين كانت لهم إمارة بيت المقدس، وعماد الدين زنكي أتابك الموصل. بينما كان سلاطين السلاجقة مشتبكين في حروبهم المريرة فيما بينهم في العراق وخراسان وفارس (بين السلطان محمد وعمه سنجر والسلطان بركياروق وأخوته)، ومع الخليفة العباسي الذي حاول مستفيداً من الصراع بين الأشقاء والأعمام استرداد بعض سلطاته كما فعل الخليفة الناصر لدين الله والخليفة الراشد بالله والمسترشد. فالجميع كانوا مشغولين عن الخطر الصليبي بالصراع

علــى الســلطة. وبعد صراع مرير استطاع قادة الجيش وبعض الأتابكة تصفية الأمــور لصـــالحهم مثل طغتكين وابنه تاج الدين بوري في دمشق وعماد الدين زنكــي وابنه نور الدين في الموصل وحلب. واتخذوا من قتال الصليبيين والحشد لمواجهــتهم مدخــلاً للتمكن في السلطة، وفرض سيطرتهم على هذه الدويلات المــدن، وحجــب ملوكها الضعفاء من البيت السلجوقي. وحافظوا على سلطتهم بكل الوسائل حتى بالتحالف مع الصليبيين متوسلين إليهم بالقتال إلى جانبهم حيناً ضد الأمراء المسلمين من جيرانهم الذين يعتبرونهم أعداء طامعين في إماراتهم أو بدفــع الأمــوال كجزية لقاء حمايتهم لهم. كما فعل طغتكين ومن بعده مجير الديــن آبــق في دمشق . فالهدف كان السلطة ولو على حساب البلاد والعباد . ومــنعوا الــناس مــن المشاركة بالرأي أو الاستشارة، وقضوا على منظماتهم الأهلــية مما جعل الكفاح ضد الصليبيين مأساة طويلة الأمد حمل الشعب وطأتها وتكالــيفها، تضحيات بالأرواح بعشرات الآلاف، وبالأموال والممتلكات وتدمير القــرى والمــدن وإحــراق الأرض والمزروعات والنهب والتهجير والترحيل والمصـــادرة والضرائب الباهظة التي فرضوها باسم الدفاع عن الدين والوطن، لتعم المجاعات والأوبئة والأمراض.

فــالملوك السلاجقة والأيوبيون من بعدهم لم يدافعوا عن ممالكهم ولا عن الخلــيفة المستعصم في بغداد أمام زحف هولاكو 1258م. بل أسرعوا إلى تقديم فــروض الولاء والطاعة للغازي بعد تدمير بغداد ووضعوا أنفسهم تحت إمرته لمحاربــة العــرب والمسلمين الذين ظلوا يقاومون، ومع ذلك لم يلتفت هولاكو إلــيهم واكتســح ممــالكهم. (فالملك السعيد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي استسلم لهولاكو وسلمه البيرة فولاه هولاكو قلعة الصبيبة وبانياس) وبعد انتصـــار عين جالوت 1260م على المغول بقيادة السلطان المملوكي قطز أمر بقتله لأنه كان يحارب إلى جانب المغول[1]. وماذا يرجى من خير من هؤلاء إذا كــان صاحب بعلبك يطلعهم (الصليبين) على عورات المسلمين وصاحب آفاميا يقطع السابلة وابنه يحث الإفرنج على قصد أبيه، وصاحب حمص يشارك قطاع الطــرق وكذلــك ابــنه خيرخان وهم لا يزالون مختلفين لأنهم يرون عملهم أن يســتعبدوا مــن صـــار إلــيهم وينعموا ولو بإهلاكهم لا أن يحافظوا على ملك

---

[1] *راجع الحركة الصليبية في العصور الوسطى د-سعيد عاشور ج3 ص1328*

ويدافعوا عن ذمار[1].

في هذه الشروط تعزز التحالف السياسي والاجتماعي والثقافي بين قادة العساكر الذين كانوا يبحثون عن الشرعية بعد اغتصابهم السلطة من الخلفاء لدى رجال الدين -الفقهاء والقضاة والمحدثين والوعاظ وأقطاب الطرق الصوفية-الذين كانوا بحاجة لسلطة هؤلاء وقواهم العسكرية لتعزيز هيمنتهم الثقافية على المجتمع ومواجهة الفرق المنشقة التي سعت ليكون لها جيشها أيضاً للدفاع عن مصالحها. وانتظمت من حول هؤلاء نخبة من الكتاب والموظفين في دواوين الدولة(البيروقراطية) والأدباء والشعراء والفلكيين والأطباء، أنيطت بها مهمة إدارة الدولة وإنتاج أيديولوجيا دينية محورها الدعوة للجهاد ضد الفرنجة الغزاة وضد المغول والتتار لتحرير الأرض ، تدعو الحكام لمواصلة القتال وتحث الشعب على التضحية ودفع تكاليف هذه الحرب الطويلة الأمد وتدعو إلى الطاعة و تحذر من الفتنة وتطالب بالوحدة والتآلف في مواجهة الأعداء. (انتهى إلينا بالديار المصرية وبالحضرة العلية أن جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف وبسطوا ألسنتهم بالقول غير المعروف، وأنشأوا من العصبية ما أطاعوا به القوى الغضبية وأحيوا ما أماته الدين من حمية الجاهلية)[2]. وأورد الجبرتي أن العز بن عبد السلام بعث إلى صلاح الدين بكتاب ألفه في العقائد فحمل الناس على العمل به[3]. واستند هذا التحالف إلى طبقة من كبار ملاك الأراضي والتجار والحرفيين وفئات مهمشة من الشعب مثل العياريين جندتهم الطرق الصوفية، وأمدتهم بإيديولوجيا دينية شعبية، واستخدمتهم في مواجهة الجيش المرتزق عند اللزوم.

وقد أسس الوزير نظام الملك السلجوقي المدرسة النظامية في بغداد لتخريج الفقهاء والمحدثين ورجال القضاء على المذهب الشافعي والعقائدية الأشعرية الكلامية التي قام بصياغة موضوعاتها الإيمانية علماء كبار مثل أبي حامد الغزالي الفيلسوف والفقيه المعروف، تعزيزاً وتوطيداً للتحالف بين العسكر المستولين على السلطة وبين رجال الدين الذين يملكون السلطة الثقافية والدينية. هذا التحالف الذي قاد الدولة والمجتمع في الحروب ضد الفرنجة والغزاة

---

[1] *محمد كرد علي خطط الشام ج1ص278*

[2] *الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي ج4 ص224*

[3] *عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج6 ص37*

الآخريـــن دون أن تكون لديه الرؤى الفكرية والمشروع الحضاري لبناء الدولة العربــية الإسلامية في الظروف الجديدة والمواجهة مع أوروبا الصليبية. وكان همهـــم الحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه متطلعين إلى ماضي الأمة وعصرها الذهبـــي فـــي عصــــر الرســـول والخلفاء الراشدين، وقد رهنوا المستقبل لذلك الماضي دون أن تكون لديهم القدرة على صياغة فكر جديد يكون مقدمة لنهضة تســتعيد فيها الأمة دورها الحضاري القيادي في ظل الشروط الجديدة. وطالما اضـــطهدت كـــل من حاول الخروج على عقائدها ونهجها السياسي والمنتقدين لأســلوبها في إدارة الصراع والحروب والخضوع للعساكر الحاكمين والسكوت عن مظالمهم وتقصيرهم في مواجهة الغزاة.

فقد أمروا بسجن الشيخ تقي الدين بن تيمية الذي دعا إلى فتح باب الاجتهاد وســعى لإعـــادة الخلافة العربية وإحياء دورها ومؤسساتها. وباشر بالاتصال بأشـــراف الحجـــاز وقـــادة القبائل العربية والأعيان العرب في المدن كما تذكر المصـــادر التاريخـــية لذلك العصر لعقد البيعة لأي قرشي يحوز على الصفات التـــي تؤهله لأن يكون خليفة في تلك المرحلة الحاسمة والمصيرية ، مع أن ابن تيمـــية جـــاء فـــي أواخـــر القرن الثالث عشر الميلادي أي في نهاية الحروب الصليبية، ولكنه شهد الحروب ضد التتر، وقد مات في السجن، وكذلك فقد أفتى هـــؤلاء الفقهـــاء بقتل فيلسوف مثل السهروردي لأنه خالفهم في الفهم العقائدي للإسلام فأمر صلاح الدين الأيوبي ابنه الظاهر غازي صاحب حلب بقتله فقتله.

- النظام السياسي- الاقتصادي- الاجتماعي:

ترســـخ النظام الإقطاعي العسكري في الحرب الطويلة الأمد ضد الفرنجة والغـــزاة اللاحقيـــن، وبالـــتفاعل والمقابســـة مع نظام الإقطاعيات الذي طبقه الصـــليبيون فـــي إماراتهم التي أقاموها في الأراضي التي احتلوها. وقد تحدث أســـامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) عن الأنظمة والقوانين التي كانت تدار بها الإقطاعـــيات عـــند الصـــليبين والعلاقـــات الداخلية التي تنظم التزامات الأفراد والهيـــئات فيها-بين الملك والكونت والبارون والأمراء والفرسان والتابعين من الفلاحيـــن والحرفييـــن والتجار. . . وتحدث عن كيفية إصدار الأحكام القضائية وتنفـــيذها بإعجـــاب . كما أشار إلى العلاقات الخارجية التي نشأت بينها وبين الإمـــارات الإقطاعـــية العســـكرية الســـلجوقية والتركمانية والكردية والعربية، والتفاعل والتأثير المتبادل بينها. وكان إنجلز قد أشار في ملاحظاته حول نشوء

الإقطاعية في أوروبا بأن نظام الإقطاعيات اللاتينية (الصليبية) كان أرقى من تلك التي قامت في أوروبا وأنها اقتبست منها الكثير.

لقد أصبحت الإقطاعيات أساس الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الدولة السلطانية الجديدة التي بدأت ملامحها ترتسم منذ أن أصدر الخليفة المقتدر في أول القرن الرابع الهجري مرسوماً بتوزيع أراضي الخراج كإقطاعيات على قادة الجند لدفع رواتبهم ورواتب جنودهم. واستقر في عهد سيطرة البويهيين على الخلافة ثم أصبح الإقطاع العسكري في الدولة السلجوقية بناءً متكاملاً ورثته الدولتان الزنكية والأيوبية. فالأمير الإقطاعي أو الملك هو القائد العسكري في مملكته أو إمارته يرتبط بالسلطان بروابط التبعية العسكرية والإدارية البيروقراطية القانونية. فهو يقدم العساكر والأعتدة والأسلحة والأموال المفروضة عليه بموجب عقد الإقطاعية الممنوح له، وعليه الالتحاق بجيش السلطان عندما يطلب منه ذلك، وينفذ أوامر التعبئة حين النفير. ومن أحسن الآراء التي يذكرها أبو شامة عن نور الدين زنكي (ما كان يفعله مع أجناده فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلفه ولد ذكر أقر الإقطاع عليه فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه وإن كان صغيراً رتب له رجلاً عاقلاً يتقي به فيتولى أمره فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد)[1]. ويذكر أبو شامة أيضاً أن السلطان صلاح الدين الأيوبي شرع في إقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد[2].

وساعد هذا التنظيم على حشد قوات كافية لإدامة زخم الصراع ضد الصليبيين على مدى أكثر من مائتي عام، ومع أنه كان السبب في حصول هزائم كبيرة أصابت العرب والمسلمين وفي عدم الحسم العسكري للانتصارات التي تحققت في سياق هذه الحروب نتيجة التقاعس والمنافسة بين الأمراء والملوك

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج1 ص44، وكان السلاطين المماليك من بعد يعيدون توزيع الإقطاعيات لتجديد النظام وتقويته كما فعل الناصر قلاوون من سلاطين المماليك الأتراك فقد أعاد توزيع الإقطاعيات في عدة مناطق لتجديد الإقطاع) ماهية الحروب الصليبية د- قاسم عبده قاسم ص214 كتاب عالم المعرفة الكويت

(2) نفس المرجع السابق ج3 ص230

والاتصـــالات الســـرية مـــع الأعداء للحصول على وضع معين ومساندة وقت الشـــدائد عـــند نشـــوب خلافات مع السلطان. وعلى الرغم من استنزاف قوى الشـــعب والمـــوارد المالية والإنتاج الاجتماعي على الإنفاق الاستهلاكي للأمير وفرسانه وتابعيه مما كان يمس الإمكانيات الضرورية لإدامة الإنتاج الاجتماعي والقوى المنتجة وتأمين العتاد والأسلحة وصيانة أنظمة الري والقلاع والحصون التي كانت تتصدع وتخرب مما يسهل على الفرنجة اجتياحها وإجبار أهلها على الرحـيل، وكثـــيراً مـــا أدى إهمال الإقطاعيين إلى حدوث المجاعات وانتشار الأمـــراض والأوبئة التي تحصد الناس مما يلحق ضرراً بالغا بالقوى المنتجة. ونـــتج عـــن هذه الأحداث إلى جانب الهجرات الإجبارية والهجمات الاستردادية والمذابـــح المدبـــرة مـــن قبل الغزاة، فقدان المدن العربية لكثير من سكانها[1]. وتـــراجع سكان الشام إبان الحروب الصليبية إلى مليونين وسبعمائة ألف نسمة حسب تقدير بعض الباحثين)[2].

إن الإقطاعـــية العربـــية التي كانت في بدايتها ومنذ الخلافة الراشدية حتى خلافـــة المقـــتدر بالله العباسي[3] في بداية القرن الرابع الهجري نظاماً اقتصادياً واجتماعـــياً يعـــتمد علـــى مبادرات الأرستقراطية العربية وحلفائها من التجار وأصـــحاب الأموال الذين يقتنون المزارع والأراضي ويقومون بإنشاء المشاريع للـــري واستصلاح الأراضي وزراعة محاصيل جديدة لتلبية حاجات الصناعات الغذائـــية التـــي ازدهـــرت في هذه المرحلة. وقد تحولت هذه الإقطاعية وعلى فـــترات إلـــى إقطاعـــية عسكرية ، لتكتمل في نظام الإقطاع السلجوقي والدول المتـــتابعة التـــي ورثته -الدولة الأيوبية ودولتي المماليك الأتراك والجراكسة-

---

قـــام السـلطان صـــلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين ووصول الحملة الصليبية الثالثة بتخريـــب عسقلان و الرملة وهدم سور طبرية ويافا و أرسوف وقيسارية وسور صيدا و جبيل ونقل أهلهما إلى بيروت) خطط الشام مصدر سابق ج2 ص63.قال الذهبي حاصرت الخوارزمـــية دمشق واشتد البلاء بدمشق وأهلها واحترقت العقيبة والخوانيق وهلك العوام موتـــا وجوعاً وقل الشيء بالبلد حتى بيعت غرارة القمح بألف وستمائة درهم وبيع رطل الخـــبز كـــل أوقيتين بدرهم وأكلوا الميتة وبيعت الأملاك والأمتعة بالشيء اليسير وأولئك الملـــوك يـــتقاتلون على الملك والمكوس شديدة) نقلاً عن كرد علي ج2 ص99.وذكر ابن جبير في كتاب رحلته(إن طريق دمشق-حمص كان خراباً إلا في ثلاثة مواضع.

(2) *ماهية الحروب الصليبية مرجع سابق ص201-202-214*

(3) *المقتدر العباسي هو الخليفة الذي أعطى الإقطاعيات للعسكر وقادتهم تعويضاً عن رواتبهم عندما لم تسطع خزينة الخلافة دفعها بسبب الأزمة المالية التي كانت تعاني منها*

كـنظام اجتماعي- اقتصادي-عسكري-بيروقراطي يستند إلى طبقة الإقطاعيين المحاربيـن والفلاحيـن العامليـن فـي الأرض ومـا بيـنهما مـن فـئات وسـيطة(البيروقراطـية والحرفييـن والتجار)، وغدت الإقطاعية قلعة وحصناً ومعسـكراً للفرسـان والعساكر المرتزقة، فأقيمت الحدود بن الإقطاعيات التي تجـبى عندها المكوس والرسوم على البضائع التي تعبر الإقطاعية إما لحاجات الاسـتهلاك المحلـي وإمـا للتجارة الدولية المارة عبر الإقطاعية إلى الأسواق المجاورة.

لقد جرى التحول نحو مجتمع ونمط إقطاعي جديد عسكري -غازي وثقافة تراثـية جوهرها الخضوع والتبعية والتقليد وتقديس الماضي، وإدانة الفتنة التي فسرت على أنها الخروج عن الجماعة وهي تعني هنا الخط العقائدي الأشعري الـذي أصبح عقيدة رسمية للدول المتتابعة، وتم حذف ما يخالف هذه العقيدة في الـتراث أو تأويله بما ينسجم مع قواعدها الرئيسة. فالخروج على السلطان أي الـثورة علـى الظلـم والظالمين وعلى العساكر المتسلطين أدين على أنه فتنة. وتـرجع إلـى هـذه الفترة النصوص الفقهية حول الإمامة والسلطنة والخلافة وشـرعية المغتصـب للماوردي وأبو يعلى الحنبلي وابن جماعة، والنصوص الأخـرى حـول سياسـة الرعـية وصفات الراعي الصالح التي قدمها الفقهاء والكتاب كنصائح وأخلاقيات في إدارة الدولة، والمدينة الفاضلة. وقد اكتمل فيها تدمـير المؤسسات الأهلية التي ولدت في مرحلة الفراغ السياسي ، بعد انحلال الخلافـة العباسـية والصراع مع الخلافة الفاطمية، منظمات الفتيان والأحداث والعيارين والحرافيش وإخوان الصفا. . . وتجمعات الأعيان وروابط الحرفيين فـي حيـن زاد دور الـرباطات والزوايا الصوفية وهيئات الأشراف والتجار الموسرين الذين توسعت ملكياتهم العقارية والزراعية [1].

فعلـى المسـتوى السياسي لم تفعل استراتيجيات الزنكيين والأيوبيين في القـرن الثاني عشر الميلادي لتأسيس دولة إمبراطورية مركزية تضم بلاد الشام

(1) كتـب المعظـم عيسى سلطان مصر الأيوبي إلى سبط ابن الجوزي في الشام(أريدك أن تحـرض الناس على الجهاد وقد وصلت الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر وتعرفهم ما جـرى على إخوانهم أهل دمياط وإني قد كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفي قرية منها ألف و سـتمائة أمـلاك لأهلها وأربعمائة سلطانية ، وأريد أن تخرج الد ما شقة ليذبوا عن أملاكهم الأصاغر منهم والأكابر)خطط الشام مرجع سابق ج2 ص82

ومصـــر والجزيرة العربية سوى أن كرست الشكل الإقطاعي للدولة . فصلاح الديـــن الأيوبي شرع منذ 581هج في إقطاع البلاد وتوزيعها على إخوته وأبنائه وأمرائه والتوقيع بها لأجناده[1]. فهو وإن نجح في القضاء على الخلافة الفاطمية فـــي مصر وأعاد الخطبة للخليفة العباسي في بغداد ومن ثم وحّد مصر وسورية تحـــت ســيطرته فـــإن نتـــيجة عمله(أي تقسيم البلاد بين أخوته وأبنائه) كانت إضعاف الخلافة العباسية مما أدى إلى سقوطها أمام التتر عام 1258م 656هج، دون أن يدافـــع عنها أحد. فالسلطان الحاكم الجديد للدولة الذي اغتصب سلطات الخلـــيفة أصـــبح هو القوة المغتصبة والمعترف بها شرعياً من السلطة الدينية (الفقهاء والقضاة)والسلطة الفعلية العسكرية (الملوك والأمراء الإقطاعيون وقادة الجـــيش) والســـلطة الإدارية البيروقراطية، ثم تأتي موافقة الخليفة العباسي في بغـــداد أو ذاك الـــذي نصّـــبه الســـلطان المملوكي بيبرس في مصر بعد سقوط الخلافة في بغداد، مراسيم شكلية ليس لها أي قوة إجرائية.

إن المصـــالح الشخصـــية والمنافع المادية والسلطان السياسي هي النوازع المحركة لاشتراك الأمراء والملوك في الحرب ضد الغزاة تحت قيادة السلطان، وكثـــيراً مـــا كان هؤلاء ينسحبون من القتال والمعركة في أوجها إن قدروا أن نتـــيجة القتال ستكون إضعافهم أو الحد من نفوذهم. مما كان يؤدي إلى الهزيمة أو عدم حسم المعركة لصالح الجيش السلطاني. ومع أن العلاقات الدولية لم تكن تتيح حينذاك التدخل الكثيف في شؤون هذه الإمارات الإقطاعية. ولكن سياسات الإمـــبراطورية البيزنطية الهرمة واستراتيجيات ملوك وأمراء الصليبين في بلاد الشـــام حققت بعض النجاح في إقامة تحالفات فعالة مع هؤلاء الحكام، اعتمدت علـــى إثارة الخلافات فيما بينهم بمنح البعض منهم التأييد والحماية ضد جيرانه الطامعيـــن وتشكيل أحلاف لمواجهة سياسات التوحيد السلطانية، وقد ولدت في هذه المرحلة أيضاً منظمات فدائية مقاتلة ذات طابع طائفي أو مذهبي عملت مع أو ضـــد الدولـــة السلطانية المركزية. وقامت بعملياتها ضد هذا الحاكم العربي المســـلم أو الملـــك، أو الأمـــير الإقطاعي الصليبي مؤجرة نفسها لخدمة أهداف خاصة لقاء المال أو لقاء النفوذ السياسي لتوسيع سلطانها ولإرهاب كل من يفكر بـــتجاهلها أو القضـــاء عليها. وقد لعبت هذه الأحداث دورها في توهين وانقسام القـــوى العربية والمسلمة في مواجهة الغزو الصليبي والتتري وتركت أثرها في

[1] *الروضتين في أخبار الدولتين مرجع سابق ج3 ص230*

تمـــزيق الدولة المركزية. يضاف إلي ذلك أن بعض الطوائف المسيحية أقامت لها اتصالات مع الغزاة الصليبين منذ البداية على قاعدة القرابة والفرقة المذهبية وتـــبريراً لمـــا لحقهـــا من اضطهاد وإبعاد خلال حكم بعض الخلفاء الفاطميين والأمـــراء الـــتركمان(مثال الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين والأمراء الأراتقة في بيت المقدس).

هذه الانشقاقات والخلافات لم تكن إلا شكلاً ثانوياً للصراع في عصر تميز بالحـــروب الدينـــية. فقـــد استولى الصليبيون اللاتين على القسطنطينية عاصمة الإمـــبراطورية البيزنطـــية فـــي الحملـــة الرابعة 1204-1206م ونصبوا فيها إمـــبراطوراً مواليـــاً لهـــم. كمـــا عملـــوا على شق الكنائس العربية المشرقية الأرثوذكســـية، وسعوا لفرض قوانين إيمانهم عليها مما أبعد هذه الكنائس عنهم في مرحلة لاحقة وجعلها إما على الحياد في الصراع أو هي أعلنت تعاونها مع الحكـــام المســـتعربين، وانضمت إلى الكفاح ضد الصليبين(الكنيسة القبطية في مصر والكنيسة الأرثوذكسية في بلاد الشام).

وعلـــى **المستوى الاقتصادي** فإن الأهداف الرئيسة للحروب الصليبية على الوطن العربي والاستراتيجية العليا التي عملت على تحقيقها هي الاستيلاء على الطـــرق التجارية البحرية والبرية العابرة في البحار والأراضي العربية. وإن لم يكـــن بالإمكـــان ذلـــك فالسعي لاكتشاف طرق جديدة تصل إلى الهند والصين وأفريقـــيا حيـــث مـــنافذ التجارة العربية لفرض الحصار على التجارة العربية واســـتخدام القرصـــنة البحرية لقطع الطرق البحرية وتدمير الأسطول التجاري العربـــي مـــن قبل فرسان الداوية والإسبتارية الصليبين بعد طردهم من قلاعهم التي كانوا استولوا عليها في بلاد الشام ، والتحالف مع القبائل المغولية للإغارة علـــى طـــريق القوافل البري- طريق الحرير-. وقد تكللت هذه الجهود الحثيثة والمكلفـــة ماليـــاً وعسكرياً باكتشاف الطريق البحري بالدوران حول إفريقيا في المحيط الأطلسي طريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندي إلى الهند وجنوب شـــرقي آسيا ثم الوصول إلى القارة الأمريكية واكتشاف العالم الجديد والوصول إلـــى بحر العرب والخليج العربي والسواحل العربية الجنوبية في عمان واليمن؛ ممـــا غـــير الجغرافـــيا السياسية العالمية، وضاعف من حصار وعزلة الوطن العربـــي نتيجة تحول التجارة العالمية من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي ومـــن قلـــب الوطـــن العربـــي إلـــي أطرافه البعيدة التي وقعت تحت السيطرة الصـــليبية، أو التترية والمغولية. مما عطل ودمر الكثير من الموانئ العربية في

شـمال إفريقـيا وبـلاد الشام وبالتالي إفلاس وخسارة الطبقة التجارية العربية وانحطاطها وهي التي كانت ترعى الثقافة والعلم وتلعب الدور القيادي في عملية التوحيد القومي.

وخلافـاً لما يذكره بعض الكتاب الاقتصاديين العرب المعاصرين ولغايات أيديولوجـية مـن أن الاقتصاد العربي قد شهد نهوضاً ملموساً بعد توحيد مصر والشـام فـي عهـد صـلا ح الديـن الأيوبي وأخيه العادل وفي عهد الدولتين المملوكيتين التركية والشركسية. فإن الفرع الأهم وهو التجارة العربية قد تراجع بشـكل كارثـي بعـد تحـول طرق التجارة العالمية، وأثر على مجمل الإنتاج الاجتماعـي بعامة. قد تكون لتلك المقولة بعض الصحة في المراحل الأولى من الغزو إلا أنها في المراحل اللاحقة تبدو خاطئة تماماً ومتناقضة مع سير الوقائع والأحداث السياسية والاجتماعية.

كـان حـرص الطرفين المتحاربين (العرب المسلمين والفرنجة الصليبين) علـى اسـتمرار العلاقـات الـتجارية بينهما على الرغم من المعارك الطاحنة والحـرب الظالمة التي يشنها الفرنجة على العرب والإسلام . ويذكر ابن جبير الأندلسـي فـي رحلـته إلى المشرق في كتابه-رحلة ابن جبير-أنه مر بالشام والسـلطان صـلاح الدين الأيوبي يحاصر الكرك، وعلى الرغم (من أن نيران الفتـنة مشـتعلة بيـن المسلمين والإفرنج والمعارك حامية بينهما ، فإن أرفاق المسـلمين والنصـارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم واختلاف القوافل من مصـر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلـى عكـا كذلـك وتجـار الصليبين أيضاً لا يمنع أحد منهم عن غايته وتجار النصـارى يؤدون ضريبة في بلاد المسلمين على سلعهم والارتفاق بينهم وكذلك المسـلمين في بلاد النصارى، فأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب وهذا من الاعتدال في السياسة)[1] .

كـان المـتحاربون يحرصـون أيضـاً على التأكيد على حرية المبادلات الـتجارية في نصوص الهدنة التي تعقد فيما بينهم ويضمنونها بنوداً تؤكد على أمـن وسـلامة وحماية التجار والسلع التجارية. كذلك في المعاهدات التي كان السـلاطين وملوك أوروبا يعقدونها وبخاصة بين الدول التي يخشى بأسها ولها هيمـنة علـى الـتجارة الدولـية، مثل المعاهدة التجارية مع جمهورية جنوا ،

---

[1] نقلاً عن خطط الشام مرجع سابق ج2 ص58

والمعاهدة الدفاعية التي عقدها المنصور قلاوون الصالحي مع الملكين ألفونسو ملك قشتالة وجاك ملك صقلية اللذين كانا يقودان الحرب الصليبية ضد العرب في الأندلس. وفي نصوص الهدنة التي عقدها مع حكام عكا الفرنجة عام 682 هج لمدة عشر سنين والمعاهدة التي عقدها سنة680 هج [1] مع بيزنطة ، وكلها تؤكد على حرية المبادلات التجارية. وقد أدت سيطرة الأوربيين على معظم شواطئ الشام في القرن الثاني عشر إلى تدفق البضائع بواسطة القوافل -عن طريق بلاد العرب والعراق- على دمشق ومنها إلى موانئ الشام الساحلية حيث كانت تشحنها السفن إلى الغرب. ولكن هذه الأوضاع تبدلت في القرن الثالث عشر نتيجة غزوات المغول إذ شجع المغول التجار على اتخاذ الطريق البري عبر إمبراطوريتهم من الصين إلى تركستان فموانئ البحر الأسود كذلك أدى غزوهم للعراق إلى قفل طريق الخليج العربي فبغداد فدمشق الأمر الذي أثر في المركز التجاري لموانئ الشام تأثيراً خطيراً [2].

وقد تغير الاتجاه وتغيرت سياسات الصليبيين بناءً على طلب الباباوات وبالأخص البابا أنوسنت الثالث الذي رفع شعار تحريم التجارة مع العرب والمسلمين، والبابا كليمنت السابع 1527م الذي أعلن في أمره البابوي عقوبة الفصل من الكنيسة واللعنة على كل أولئك الذين يأخذون للعرب والترك وغيرهم من أعداء الأسرة المسيحية الخيول والأسلحة والحديد والأسلاك المعدنية والقصدير والنحاس والأصبغة والملح الصخري وكل الأشياء الأخرى المناسبة لصنع المدفعية والأدوات والأسلحة الصالحة للهجوم التي يحاربون بها ضد المسيحية علاوة على الحبال والأخشاب والمعدات الملاحية الأخرى وغير ذلك من السلع الأخرى المحظورة)[3] .

وقد أدت المذابح الجماعية وأعمال النهب والسلب وتدمير القرى والمدن العربية التي قام بها الغزاة الفرنجة ومن بعدهم التتر من جهة أخرى، إلى نقص في عدد السكان وبالتالي القوة العاملة العربية وبخاصة العناصر النشطة والمبدعة. وأُحرِقت ودُمِرت الروائع الحضارية ومنشآت الري والمصانع وأدوات الإنتاج والورش والحرف الصناعية والمؤلفات التي أنتجها الفكر

---

(1) *خطط الشام مرجع سابق ج2 ص121-122*
(2) *الحركة الصليبية في العصور الوسطى -د سعيد عاشور ج2 ص1262-1263*
(3) *المرجع السابق*

العربي في عصر ازدهاره. ونتج عن كل ذلك انهيارات اقتصادية وعمرانية فتراجعت المبادلات التجارية بسبب نقص الإنتاج وبسبب سوء إدارة الإقطاعيات العسكرية. فاقتصر اقتصاد الحرب في كل إمارة إقطاعية على خدمة الأمير وفرسانه وعساكره لتغطية وتأمين نفقات الحرب واحتياجات التعبئة الدائمة واستهلاك الطبقة الحاكمة، مما أضاف أعباء أخرى شكلت مع العوامل الخارجية التي شرحناها أسباباً موضوعية لتخلف النمو الرأسمالي الذي بدأت أوروبا تشهده منذ القرن الرابع عشر الميلادي.

وعلى المستوى الاجتماعي ونتيجة للتحولات الجذرية في حقول الاقتصاد والسياسة والديموغرافيا التي أفرزتها الحروب ضد الفرنجة، فقد تغيرت الأسس المادية والروحية التي شكلت البنية الطبقية والاجتماعية للمجتمع العربي منذ صدر الإسلام والخلافة الأموية والعباسية. فقد توارت العائلات العربية العريقة في النسب إلى أصحاب الرسول الأوائل في الثورة-النسب الديني-وإلى قريش والأرستقراطية العربية-النسب القبلي-وفقدت مواقعها في الدولة وإقطاعياتها ومكانتها التجارية لصالح تشكيلة اجتماعية -اقتصادية جديدة. تتزعمها عائلات إقطاعية تركية وتركمانية وسلجوقية وكردية وفارسية ومملوكية تعود بنسبها إلى الجيش الذي استولى على الخلافة. ولا تملك أية شرعية دينية أو قبلية، سوى شرعية القوة، التي حصلت عليها من كونها قيادات عسكرية لجيش مرتزق أسسه الخليفة العباسي المعتصم من الغلمان الأرقاء من الأتراك. واستمر يتجدد وتتكون كتائبه العسكرية من هؤلاء الرقيق الذين يشتريهم الملوك لتأسيس جيوش خاصة بهم كان آخرهم الملك الصالح إسماعيل الأيوبي الذي أسس الجيش المملوكي الذي استمر يحكم في مصر وبلاد الشام حتى قضى عليه الجيش الإنكشاري العثماني الذي أسس على نفس الأصول. وحكم الإمبراطورية العثمانية بنفس الأساليب حتى قضى عليه الخليفة العثماني محمود الثاني في بداية القرن التاسع عشر. فكان يقتل الخلفاء والسلاطين والملوك الذين لا يعترفون أو يعارضون سيطرته على البلاد ويتولى قادته الحكم ليصبحوا هم السلاطين والساسة.

في هذه الشروط استطاع هذا الجيش أن يكون قوة رادعة ومقاتلة تمتهن الحرب وتحترف القتال في مواجهة الغزاة الفرنجة وغيرهم، بعد أن أبعد العرب عن الحكم وعن الجيش وإن تطوع البعض منهم في صفوفه إلا أنهم لم يتسلموا القيادات فيه وصاروا رعايا شأنهم شأن غيرهم من الشعوب الخاضعة للجيش

المرتــزق الــذي كان يبحث عن الشرعية الدينية لدى المؤسسات النافذة الكلمة وصاحبة السلطة المعرفية الدينية الإسلامية والعربية. وقد أقيمت إمارات عربية قبلية بدوية مثل إمارة آل مهنا وعيسى والفضل من طي في بادية الشام وإمارة بنــي أســد فــي الحلة في جنوب العراق وإمارات الأشراف الحسنيين في مكة والمدينة، إلا أنها كانت تابعة للسلاطين الأيوبيين أو المماليك من بعدهم. وظلت بعــض الإمــارات المذهبية أو الطائفية مستقلة في الأطراف إلا أنها كانت قليلة الشــأن في تطور الأوضاع العربية. وبرزت في هذه الظروف مؤسسة الفقهاء ورجــال الحديــث والعلــم الشرعي ومشايخ الطرق الصوفية كسلطات معرفية وثقافــية ذات هيمنة واسعة على الفكر والرأي العام الشعبي، مما اضطر حكام الأمر الواقع الباحثين عن الشرعية لمشاركتها في السلطة السياسية. وفي مجتمع دائــم التحول بسبب الحروب ضد الفرنجة وفي مواجهة الغزو البدوي الخارجي والتهجــير المستمر والترحال الإجباري أو الاختياري. إذ كان الناس مضطرين للــنزوح عــن مدنهــم وقراهم عند احتلالها من قبل الأعداء خوفاً من المذابح والاضــطهاد أو عــندما تقــرر القــيادة هدمهــا خوفاً من وقوعها بيد الغزاة، واســتخدامها قواعد انطلاق للهجمات المقبلة. وتفاقمت هذه الظاهرة و ساهمت في تحويل الكثير من أهالي القرى إلى بدو. وقد تحدث المؤرخون المعاصرون بإســهاب عــنها (إبــن الأثــير وأبو شامة وابن خلدون والمقريزي وابن تغر بــردي..). وبــدل أن تــؤدي المواجهــة مع الغزاة إلى مجتمع جديد وموحد ومتماســك اجتماعــياً ومتطلع إلى المستقبل، فإن الانقسامات الطائفية والمذهبية والعشــائرية والقبلــية تكر ست فيه وتر سخت كبنيات اجتماعية وثقافية داخل الإسلام نفسه، إلى جانب تعميق الخلاف مع المسيحية-العربية.

هذه الأوضاع الصعبة والمعقدة جعلت المؤرخين العرب الذين أرخوا لهذه المــرحلة يرون في المصائب المتتالية والتمزق الإسلامي على أنه من علامات قــيام الســاعة. فالمجــتمع في حالة تفكك وانهيار وصراع واقتتال بين الفرق والجماعــات المتنافســة(سنة وشيعة قرامطة وفاطمية وزيدية وحنبلية وشافعية وموحديــن ومرابطين. . . .). وقد انتقلت الدولة إلى أيدي العساكر مجموعات غــير عربــية من أرقاء جندهم الخلفاء والملوك لحمايتهم والذود عن سلطانهم. فأصــبحوا الجــيش المقاتل ضد الغزاة ، ثم تغلبوا على سادتهم وصاروا طغماً حاكمــة تفــرض قانونها بالقمع والإرهاب والحديد والسيف ، فتوارت الشرعية الدينــية التــي تقام الدولة الإسلامية بالاستناد إليها، وصارت السلطة لمن غلب.

فتحولـــت المناطق المعمورة إلى واحات وسط الصحارى والبوادي التي اتسعت بعـد خـراب شـبكات الـري التي أقامتها السلطات المركزية والغزو الدوري لأسـراب الجـراد الهائلة التي كانت تجتاح المعمورة فلا تبقي ولا تذر، فتجبر الفلاحين الناجين من المجاعات على ترك قراهم ومزارعهم للتفتيش عن مناطق جديـدة أو الالـتجاء إلـى المناطق المدنية والنهرية والجبلية، فتنحسر المناطق الآهلـة بالسكان ويرحل أهلها، ويعودون إلى حياة الرحيل بدواً من جديد. وكان هـذا انقلابـاً في الاتجاه التاريخي العام الذي كرسه الإسلام بدمج الأعراب في جسم الدولة والمجتمع الحضري والمدني الذي رعته وأشرفت على بنائه الدولة الإسـلامية، لتشـكل مـنهم جـيش الثورة والفتح والتحرير، وسكان الأمصار الجديـدة، وكان هذا انعكاسا لحالة الفوضى التي سببها نظام الإقطاع العسكري والغـزو الصليبي والتتري والمغولي. مما جعل القبائل العربية تعود إلى قانون الغـزو القديـم الـذي خلصها الإسلام منه استجابة لظروف القهر التي فرضها العساكر المتغلبون وحرمانهم الجيش العربي المتطوع من حقوقه في بيت المال التي أسسها لهم الخليفة عمر بن الخطاب لتمويل الجيش المجاهد.

وقـد أدرك المفكـر العربي ابن خلدون طبيعة هذا التحول الجوهري في المجـتمع العربـي وصـاغ انطلاقاً منه نظريته في العصبية القبلية والعمران البشري وفلسفة التاريخ والدولة في كتابه (المقدمة). وقد حصر هذه الظاهرة في البنـية القبلـية العربية والإعرابية بوجه خاص. فأفرط في توجيه تهمة تخريب وتدمـير الحضارة والعمران للعرب. لاشك أن البدو لعبوا دوراً تخريبياً في هذه المـرحلة وكـانوا مـن عوامل الضعف والتفكك القومي، وهم كثيراً ما كانوا يـزيدون الأمـور سوءاً بغاراتهم وغزواتهم على المناطق المعمورة التي كان الفرنجة والغزاة التتر قد مروا بها من قبل فيكملوا السلب والنهب والخراب مما يجبر سكانها على الفرار منها.

وعلـى **المستوى الفكري** كانت التطورات أكثر قتامة وانهياراً، فقد حدث انقطـاع تاريخـي مـع النهضـة العلمية والفلسفية التي شهدها القرنان الرابع والخامس الهجريان، فتدمير وإحراق المكتبات ودور العلم العامة والخاصة وقتل وتشـريد الفلاسفة والعلماء من قبل الفرق الدينية التي أعلنت تكفير من يخالفها فـي فهم الإسلام من المعتزلة والقدرية والفلاسفة والعقلانيين، وكرّست عقائدها إسلاماً يجب على الجميع الإيمان به بعد تحالفها مع دولة العسكر. إلى جانب ما قـام بـه الغـزاة من نهب وسرقة العقول العلمية والحرفية والكتب والمؤلفات

وترحـــيلها إلى بلادهم وتدمير وهدم المكتبات العامة[1]. وقد هزت الهزائم التي لحقـــت بـــدار الإسلام النفوس والعقول وأسس ومنطلقات الفكر والإيديولوجيات التـــي كرست خلال هذين القرنين وما سبقهما من انتصار الإسلام كثقافة عربية عالمـــية. فالمحـــنة التـــي بـــرزت بغزو الأعداء الفرنجة لقلب الوطن العربي، بالوصـــول إلـــى تخـــوم الجزيـــرة العربية، الأرض المقدسة للعروبة والإسلام باحـــتلال القدس وإقامة مملكة بيت المقدس اللاتينية، ثم باجتياح جيوش هولاكو بغـــداد عاصمة الخلافة العباسية. طرحت على السلطات المعرفية والأيديولوجية والفكـــرية الدينـــية مراجعة شاملة وتمثلت في عملية انكفاء وبحث عن الأسباب التي ربما تفسر ما حدث وما يمكن أن يحدث.

كـــان بـــاب الاجتهاد قد أُغلِق من قبل، وفُرِض الحظر على فكر المعتزلة وحُرِّم فكر مؤسسيه ومُنِعت مؤلفاتهم من التداول[2]. وانتصرت الأشعرية كمنهج وفكر، بعد أن جعلها نظام الملك الوزير السلجوقي عقيدة رسمية للدولة. وأسس المدرســـة النظامـــية فـــي بغـــداد لتكون جامعة لتخريج رجال الدين من فقهاء ومحدثيـــن ووعاظ ومفسرين وخطباء ودعاة وفق العقائدية الأشعرية، لمواجهة الدعـــاة الإســـماعيليين الذيـــن يجـــري إعدادهم في الجامع الأزهر في القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ، ويقومون بنشر الأيديولوجيا الإسماعيلية في صفوف الجماهـــير في الأرياف والمدن، فتلقى منهم القبول في شروط أزمة اقتصادية، واجتماعـــية وروحـــية وسياســـية مـــتفاقمة نتيجة سياسات الإقطاع العسكري السلجوقي والقرمطية المنشقة على الدولة الفاطمية. وكان الفيلسوف الغزالي(أبو حامد) هو الذي أعاد صياغة الفكر الجديد للأشعرية في مرحلة مواجهة الفرنجة والغزاة الآخرين. فهو بحق شخصية العصر الثقافية الذي شكلت مؤلفاته الكثيرة وأفكـــاره ومنهجيـــته روح الثقافة في عصر دمرت فيه الدولة الخلافية وتمزقت إلـــى دويلات وإمارات متنازعة وشهد الغزو الصليبي. منطلقاً من توليفة فكرية

---

[1] كانت دار الكتب في القاهرة الفاطمية تحتوي على ألف ألف وستمائة ألف كتاب، وكان بها مـــن الخطوط المنسوبة ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري.وقد دُمِرت هذه المكتبة وضاعت كتبها بعد أن ألغى صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية// لروضتين في أخبار الدولتين أبو شامة المقدسي ج2 ص209

[2] صدر المرسوم القادري المنسوب إلى الخليفة القادر بالله العباسي حسب ابن الأثير في سنة 408 هـــج وقـــرئ فـــي الدواوين سنة 433هج وقضى بتحريم فكر المعتزلة وتداوله بين الناس.

تجمع العقائدية الأشعرية مع التصوف وعلم الكلام المعتزلي بعد تجريده من قوانينه العقلانية والمنطقية. ومفترضا أن الفكر الفلسفي والعلمي الذي استعان بالمنطق والفلسفة اليونانيين، واقتبس منهما المناهج والأدوات، وخالف فيهما الأصول والمناهج المعرفية الفكرية الإسلامية كما رسخت في القرون الثلاثة الأولى، والترجمة عن اليونانية والسريانية والفارسية . هذه الأمور هي المسئولة عن تخريب عقيدة الأمة، ولذلك يجب الرجوع إلى الأصول المعرفية التي أسست الفكر الإسلامي بحسب اجتهاده. لقد أكمل الغزالي سد الأبواب والنوافذ كي يحافظ على ما اعتبره الثقافة الأصيلة والإرث المجيد الذي يشكل هوية الأمة. فالرياضيات آفة ليس في ذاتها بل لأنها من مبادئ العلوم التي هي الشر كله، والفلسفة هي أس السفه وأس البلاء والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة. ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء ويخرجهم من المدارس ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم كما كتب الفقيه ابن صلاح الشهرزوري. [1]

وأعلن الغزالي[2] مبادئ وأسس هذه الأيديولوجية ضد الفلسفة والعلم الطبيعي والمنطق اليوناني وعلم الكلام المعتزلي في مجموعة من المؤلفات الشهيرة من أهمها (تهافت الفلاسفة، وإحياء علوم الدين والمنقذ من الضلال والاقتصاد في الاعتقاد. . .)التي رسخت الأورغانون الجديد(منطق العقائدية الأشعرية). الذي يستند إلى الإيمان والحدوس، والمعرفة الاستشرافية اللدنية. ويفند دعاوى العلم والفلسفة متهماً مناهجها بالضلال والقصور ، والعقل الذي تستخدمه بالعجز عن المعرفة الحقيقية. مكرساً هذه السلفية الجديدة أصولاً مرجعية للفكر الذي أسسه لمواجهة الأزمان القادمة في مواجهة الأعداء. وصدرت فتاوى ابن الصلاح الشهرزوري ت 1245م -643هج-على خطى الغزالي (من تمنطق تزندق)(والفلسفة أس السفه والضلال). وحُذف من التعليم- العلم الطبيعي والرياضيات والفلسفة والمنطق-. وكرست علوم الدين والعربية والتصوف الإسلامي كأقانيم مكونة للفكر والثقافة العربية الإسلامية. وبرز علم

---

[1] راجع كتابنا الثقافة المقهورة والثقافة المنتصرة ص180-181 الصادر عن دار الوطنية الجديدة 2000م

[2] توفي 1111م 505 هج

الخطابة والوعظ الديني وتقدم الشعر الممجد للمقاومة والجهاد ضد الغزاة. وأصبح النثر الفني الذي يقوم على السجع والترادف والمحسنات اللفظية والإيقاعات هو الأسلوب المميز والمفضل. وصار الاهتمام باللفظ على حساب المعنى هو الذي يعطي الكاتب تفوقه وتقدمه على أقرانه، كما يمكن ملاحظته في مؤلفات القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي والعماد الأصفهاني كاتبه. وساد التقليد في الخطاب الديني والأدبي شعراً ونثراً، وانصرف المشتغلون بإنتاج هذه الثقافة إلى جمع الموسوعات والمصنفات الأدبية والتاريخية والفقهية ، وإلى الشروح على المتون والأصول للأئمة الذين أسسوا نظام الفكر العربي الإسلامي بهدف حفظ تراث الأمة من الضياع. لقد استمد المفكرون كل مبادئ التنظيم الفكري ورؤية العالم من خلال اللغة العربية، وكذلك وسائل عملهم وفعالياتهم، فاللغة العربية التي ظلت تتمتع بموقع مهم ومتميز في القرن الرابع الهجري، لم تظل وسيلة الاتصال الوحيدة للكتابة والبحث. . فقد بدأت تشاركها اللغة الفارسية في بلاط بني بويه المستولين على الخلافة، فصارت لغة الرسم والموسيقا والرقص وفن العمارة والفنون الشعبية[1]. وقد أسس هذا لمزيد من النزعات السلفية والمذهبية.

هذا الانكفاء نحو الماضي للاحتماء به، وإضفاء طابع القدسية عليه، وضع المستقبل بين قوسين، ومنع التفكير به إلا من خلال ذلك الماضي. فأضاع على الأمة إمكانية صياغة مشروع فكري لإعادة تأسيس نهضة عربية إسلامية تستجيب لحاجات الواقع الموضوعية وحاجات الناس الذاتية وتعمل على حل الإشكاليات الفكرية والمسائل الطارئة والجديدة، التي أوصلت الأمة إلى الأزمة التي وجدت نفسها فيها وهي لا تعلم كيفية الخلاص منها.

وكان من الإشارات الإيجابية تقدم الخطاب الأيديولوجي الديني حول الحشد والتعبئة والجهاد ومقاومة الغزاة ، بظهور فن القصص الشعبي الممجد للأبطال المكافحين ضد الغزاة في التاريخ القديم والمعاصر مثل قصة (الملك سيف بن ذي يزن وكفاحه لطرد الأحباش من اليمن، وقصة عنترة بن شداد ونضاله للتحرر من العبودية وقصة الملك الظاهر بيبرس وحروبه ضد الصليبيين لتحرير الأرض العربية منهم...). لقد نجحت التعبئة الأيديولوجية في إدامة زخم المقاومة والجهاد حتى التحرير الكامل من الفرنجة. ولم يعدم هذا العصر من

---

[1] *محمد آركون نزعة الأنسنة في الفكر العربي مرجع سابق ص332*

تألق بعض المفكرين في مناحي العلم كافة كابن خلدون في الاجتماع والتاريخ، وابـن الشاطر في علم الفلك، وابن تيمية في العلوم الدينية الذي سعى لفتح باب الاجتهاد على الرغم من معارضة معاصريه له وسجنه وموته في السجن.

- لماذا لم تؤد حروب التحرير ضد الفرنجة إلى نهضة عربية جديدة.

إنهـا لمسـألة تطرح نفسها وبقوة على الدارس لهذه المرحلة من تاريخنا العربـي، الغنية بالبطولات والتضحيات الجسيمة بالنفوس وبالأموال، والمتميزة بالإصـرار على القتال لتحرير الأرض وحماية البلاد من الغزاة. فلماذا لم تؤد الحـرب الطويلـة والكفاح المستميت إلى إعادة تكوين وتشكيل الأمة في دولة واحـدة وبناء ثقافة جديدة وحضارة ملائمة. تعمل على تطوير ما سبق وأنجزته فـي عصـرها الذهبي الأول؟. تستجيب فيها للتطورات الحاصلة في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الدولية من حولها. ثلاثة قرون عاشتها الأمة في قتال مستميت لصد الغزاة الفرنجة ومن والاهم، ونجحت وخرجت منتصرة فـي هذه المحنة. وكانت الفرصة مواتية لخلق حالة جديدة من التفاعل والتماسك الاجتماعيين. لأن الحروب العادلة تشكل بوتقة ملائمة لصهر مجموع الأمة في حمـى النضـال دفاعاً عن الوجود والحرية والكرامة والوطن، وتجديد حيويتها بإظهـار كل ما هو نبيل وعريق وخصائص ذاتية تكشف عن عظمتها وهويتها كأمـة موحـدة تسـتعيد دورها التاريخي بعد أن تفرقت طوائف وشيعاً وفرقاً ودويـلات متصارعة. ولكن ذلك لم يحدث ولم ينعكس سير الأحداث التاريخية من التشرذم إلى الاتحاد ومن الفرقة إلى التآلف. فقد جرت الأحداث ليتعزز تيار الـتجزئة والانغـلاق والعصـبيات القبلـية وما هو أدنى منها، وإلى مزيد من الضـعف والـتخلف والخضوع للإمبراطورية العثمانية التي قضت على دولة المماليـك والدويـلات الأخـرى لتجعل الوطن العربي كله تابعاً لها ، وليدخل الجميع في حماها الذي سبب المزيد من التخلف والانهيارات.

لقـد كانـت الحـروب الدينية والطائفية من سمات هذه العصور المظلمة. وكانـت فـي أوروبـا أكثر عنفاً ووحشية، فقد جندت الكنيسة الجيوش الملكية والإمـبراطورية لقتال الطوائف المخالفة والمنشقة، وأحرقت وأبادت هؤلاء بلا شـفقة ولا رحمـة. إلا أن تلـك الحروب كانت تجري هناك في إطار التوحيد القومـي وأشـكال اقتصـادية جديـدة واجتماعـية وثقافية تدعو إلى حضارة جديـدة(الملكـيات القومية والبرجوازيات الصاعدة في المدن الجديدة التي تعتمد

علـــى التجارة والحرفة في قلب الإقطاع وعلى حدودها(التي ساهمت الحروب ضـــد العـــرب والمســـلمين في أسبانيا والمشرق العربي في ازدهارها وزيادة ثـــرواتها، وقد عبر عن فكرها السياسي مفكرون مبدعون في طليعتهم مكيافيللي الكاتـــب السياســـي الإيطالي الذي كان أول من دعا إلى قيام الدولة القومية في إيطالـــيا. وقد ولدت في هذه المدن الأطروحات الأولية والجنينية للدولة الحديثة والنهضـــة الأوروبـــية بالمقابسة مع الثقافة العربية وبالتمايز عنها. بينما كانت الحـــروب الدينية في الوطن العربي تعميقاً للانقسام والتجزئة مترافقة مع الغزو الصـــليبي ثـــم التـــتري والمغولـــي الذي وصل إلى قلبه، فقضى على البنيات الحضـــارية الموحـــدة والتي يمثلها العرب. وليقيم فيها أنظمة حكم إمبراطورية عســـكرية ذات بـــنى إقطاعـــية –طائفية ومذهبية، أضاعت كل المنجزات التي تحققت في ميدان المواجهة مع الغزاة لخدمة أهدافها السلطوية المتخلفة.

.– في النتائج .

كـــان مـــن نـــتائج الحروب ضد الفرنجة مساران مختلفان تماماً ، مسار أوروبـــي ومسار عربي إسلامي. ففي المسار الأوروبي أدت هذه الحروب إلى مـــزيد من التطور والتقدم في أوروبا، اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، تمثل في إعادة رســـم الخـــريطة السياســـية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لتتشكل القاعدة المادية والروحية لما سُمي بالنهضة الأوروبية. وهي التي أنتجت العالم الحديث والثورة الصناعية وما تبعها من تطورات. فقد مكنت هذه الحروب ملوك أوروبا مـــن فـــرض ســـيطرتهم على الإمارات الإقطاعية، بعد أن انقرضت العائلات العـــريقة التي كانت تشكل منافساً شرعياً للملوك الذين عملوا على تصفية أولئك المنافســـين. فجـــاءت عـــائلات جديـــدة تفتخر بإنجازاتها الحربية هذه. كما أن الحـــروب الصـــليبية ســـاعدت المدن الإيطالية على توسيع تجارتها مع العالم الإســـلامي والوطـــن العربـــي ومكنتها من فرض سيطرتها على طرق التجارة الـــبحرية مع الشرق، مما زاد من عدد البنوك والشركات ووسع ثرواتها ومكنها مـــن الهيمنة على الملوك الذاهبين إلى الحرب بإقراضهم الأموال بفوائد عالية. كمـــا أن زيـــادة استهلاك المواد الكمالية وبخاصة التوابل وحرير الهند وعطور الوطن العربي والمنسوجات العربية، إلى جانب زيادة الإنفاق العسكري لتجهيز الجيوش للحروب، أدى إلى توسيع الاقتصاد الأوروبي والسوق الأوروبية. وزاد مـــن المنافســـة بين المدن الإيطالية المتوسطية المسيطرة على التجارة البحرية ومثـــيلاتها الألمانية والهولاندية في الشمال وهيأ لانطلاقة رأسمالية مستفيدة من

التقنيات الجديدة التي عاد بها التجار والمحاربون من الوطن العربي.

وفي المجال الثقافي فقد أفسحت في المجال أمام الرهبانيات (الفرنسيسكان والدومينيكان) للتبشير بالثقافة المسيحية الأوروبية في بلدان المشرق، ومكنت من ترجمة القوانين والمعتقدات والشريعة الإسلامية. وسهلت الاحتكاك والاتصال بين مسيحي الشرق والغرب، ورسخت مبدأ شن الحرب والتدخل في شؤون العرب والمسلمين على أنهما خطر ماثل على أوروبا في العقل والوجدان الأوروبيين، باستخدام الصليبية للإشارة إلى خطر العالم العربي والإسلامي ومسائله الموروثة. ووفرت الفرصة لترجمة التراث العلمي والفكري العربي إلى اللاتينية مما ساهم في النهضة العلمية والفكرية الأوروبية. ومكنت هذا الفكر من الاتصال بالتراث الفلسفي والعلمي اليوناني بترجماته العربية مما ساهم في تفجير الثقافة الكنسية البابوية التي ظلت مسيطرة على الفكر والثقافة طيلة العصور الوسطى، وعززت التيار العلماني الذي أخذ يتبلور كتيار فكري وسياسي ضد الفكر اللاهوتي. بالإضافة إلى ما نقله الصليبيون من فنون حرفية وصناعية في مجالات صناعة الورق والفولاذ والمنسوجات وفي الزراعة وهندسة الري[1].

لقد تصدع النظام الإقطاعي الأوروبي اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً والثقافة الكنسية منهجاً وموضوعات. وتعززت سلطة الملوك على حساب سلطة البابا والإمبراطور. وبرز دور الصيارفة والرأسماليين المرابين اليهود الذين هاجروا من أسبانيا إلى هولا ندا والمدن الإيطالية وإنكلترا نتيجة للحروب الصليبية على العرب في الأندلس؛ فأسسوا المصارف وازدهرت أسواق المال، وتطورت الملاحة البحرية بالاستفادة من علم البحارة العرب وتقنياتهم المتقدمة، وتوسعت التجارة مما مهد لولادة الطبقة البرجوازية كطبقة ذات مشروع قومي وثقافي واقتصادي. كانت القاعدة للتحولات الثورية الاجتماعية بالتحالف مع الملوك حيناً وضدهم حيناً آخر مقدمة لهم القروض المالية للسير في حملاتهم الاستكشافية الجغرافية التي أوصلت في النهاية إلى اكتشاف القارتين الأمريكية والأسترالية، واستعمارهما.

لقد مهد كل ذلك للثورة على الكنيسة الكاثوليكية وبابا روما في سلسلة من

---

[1] تاريخ الحركة الصليبية د-سعيد عاشور مرجع سابق

الأعمال الثقافية والفكرية والعسكرية والانتفاضات الشعبية(انتفاضات الفلاحين والحرفيين والكهنة، والإرهاصات القومية تحت شعارات الإصلاح الديني التي قادها كهنة ورجال دين وعلمانيون وأمراء إقطاعيون-مثل مارتن لوثر في ألمانيا وزوينغلي وكالفن في سويسرا وغيرهم في أوروبا الأطلسية. وأنتج مجمل هذه التطورات انتقالاً ثوريا إلى العصور الحديثة.

وعلى المسار العربي بقدر ما كانت نتائج الحروب ضد الفرنجة نصراً عسكرياً أدى إلى تحرير الأرض العربية وطرد الغزاة من كل جزء احتلوه، كانت على المستويات الأخرى كارثية. فقد أدى الدمار الذي لحق بالقوى المنتجة وأدوات الإنتاج إلى تخلف الإنتاج الزراعي بعد خراب شبكة الري، فنقصت المساحات المزروعة وتحولت الأراضي الزراعية إلى بادية من جديد ، وإلى زوال الكثير من الحرف بعدما أُجبر المعلمون المهرة على الرحيل في ركاب الغزاة كما فعل تيمورلنك بعد غزوه للعراق وبلاد الشام ومن بعده السلطان سليم الثاني الذي قضى على دولة المماليك في مصر وسوريا . فقد أخذ هذان الغازيان معهما كل عالم بارع وكل حرفي ماهر بالإضافة إلى الصناعات النادرة، كما يذكر ابن عربشاه في كتابه عجائب المقدور في وقائع تيمور وابن إياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور)عن الفتح العثماني لمصر. مما أدى إلى أزمة اقتصادية واجتماعية وتخلف أدوات الإنتاج، وعزز الإقطاع العسكري وسيطرة الجيش المرتزق المشكل من الرقيق المشترى لحساب بيت المال الذي يتصرف به السلطان على الدولة والمجتمع، وإضفاء الشرعية على اغتصابه للسلطة باسم الدفاع عن البلاد وباسم الحرب ضد الغزاة. واستطاع باسم هذه الشرعية الجهادية تدمير المؤسسات والهيئات الشعبية والاجتماعية التي تشكلت في الفترات السابقة التي أعقبت انهيار الخلافة. ففرض على المجتمع تبعية مزدوجة اقتصادية وسياسية بجعله السكان رعايا بلا حقوق، وبفرضه شروطاً مادية وروحية على الإنتاج الاجتماعي ، تجعل الحياة خارج حمايته مستحيلة.

لقد فشلت الأمة في استعادة وحدتها وفي صياغة مشروع نهضوي جديد وثقافة تلبي الحاجات المادية والروحية للإنسان العربي في الشروط الدولية التي أعقبت الانتصار على الفرنجة. فتكرس النظام السياسي الذي قاد هذه الحروب على أنه النظام الأمثل، وبررت الأيديولوجية الدينية التي أنتجتها بيروقراطية متنوعة الأصول الطبقية متحالفة مع قادة العسكر حكام الأمر الواقع، نخبتها

الفقهـــاء والقضــــاة وأقطـــاب الصــــوفية والمحدثون والكتاب في دواوين الدولة السـلطانية والإقطاعـيات، جوهرها الحفاظ على الأوضاع الراهنة بالتمسك بما اعتـبر الإسلام القويم والعقيدة الصحيحة السلفية التي أسسها أصحاب المذاهب الفقهـية المعروفيـن في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. ثقافة اغترابية مأزومة تفترض أمة واحدة، لم تعد في الواقع كذلك بل أصبحت مجموعة طوائف وفرق دينـية ومذهبـية وشعوب ودويلات متصارعة، يجمعها تاريخ مشترك وتفرقها مصالح شتى متباينة قومية وطبقية وسياسية، ويقودها حكام ينصبهم الجيش من عـائلات عسكرية استولت على السلطة بالقوة ، وتمكنت منها، لا آفاق سياسية لديهـا ولا مشروع حضاري يوجهها هدفها التمسك بالسلطة، اكتسبت شرعيتها من خلال قيادتها الحرب ضد الغزاة، ثم اتبعت كافة الوسائل القمعية والإرهابية والسياسية العسكرية للقضاء على معارضيها بقتلهم أو سجنهم ومصادرة كل ما يملكـون. كمـا عملت لإسكات المعارضة الشعبية بسياسات الاحتواء والإفساد والرشـوة، واضـطهدت رجال الدين المعارضين(مثال ابن تيمية). لقد سخرت نـتائج هـذه الحروب والمقاومة الباسلة والتضحيات الجسيمة للأمة بكافة فئاتها لتكريس هيمنتها وسلطتها، وفرض هذا النظام الاجتماعي الاستبدادي الإقطاعي العسـكري الذي أبعد العرب عن المشاركة في السلطة وحولهم إلى رعايا مثل غـيرهم يعملون في الإقطاعيات أو في الجيش كعساكر لا يمكنهم الوصول إلى مراكز القيادة، وقبائل بدوية تغزو المعمورة وتقاتل بعضها بعضاً بحثاً عن الماء والطعام.

إن غـياب الطـبقة الاجتماعية المهيمنة الحاملة لمشروع حضاري سياسي وثقافـي واقتصادي أضاف أبعاداً أخرى لأزمة المجتمع والدولة والثقافة العربية الإسلامية ، والعجز الذي أظهره الفكر في مواجهة التحديات والشروط الطارئة. فلـم يسـتطع هـذا الفكر صياغة مشروع ثقافي أو سياسي للمستقبل، حتى ابن خلـدون الذي كتب مقدمته لتاريخه(العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجـم والـبربر ومـن عاصـرهم مـن ذوي السلطان الأكبر)بروح علمية موضـوعية متمـيزة وأعلـن اكتشافه وتأسيسه لعلم جديد هو العمران البشري ولفلسـفة التاريخ . ابن خلدون لم يتحدث عن سياسة جديدة كما كتب مكيافيللي في إيطاليا مع أن الفارق الزمني بينهما ليس كبيراً(مكيافيللي ولد 1469م وتوفي 1527م وقد ولد ابن خلدون 1332م وتوفي 1406م)ولم يكتب عن تجديد الدولة العربـية الواحـدة، ولـم يؤسس لفقه سياسي جديد لبنائها على أسس الشورى

والعدل ، مع أنه كان مدركاً لما يجري على الشاطئ الآخر للمتوسط في أوروبا من نهضة علمية واقتصادية وسياسية. فبينما كانت أوروبا الغربية تنهض وتتقدم كان الوطن العربي يتخلف ويتردى وتبتعد المسافات بينه وبين العدو الذي واجهه بالأمس وهزمه وحرر أرضه منه.

هل ما نواجهه اليوم في كفاحنا من أجل التحرير والوحدة والنهضة يشابه ظروف وشروط تلك المرحلة؟ التشابه الوحيد هو أن العدو مازال يحمل نفس الاسم مع أن هويته قد تبدلت، فأوروبا الصليبية أصبحت أوروبا العلمانية وأوروبا الإقطاعية والبابوية والإمبراطورية صارت جمهوريات قومية رأسمالية ودولاً إمبريالية استعمارية تغزو العالم باسم رسالة التمدن والتقدم، وهو في الحقيقة من أجل الأسواق والمواد الأولية والتحكم باقتصاد العالم وثرواته ومصادر الطاقة والمواد المنجمية فيه.

أما نحن فقد تخلفنا عنها بعد أن كنا المتقدمين عليها علمياً وثقافياً وحضارياً ، وتغيرت هويتنا فأصبحنا أقطاراً متعددة تحمل أسماء جديدة إقليمية وتاريخية قبل إسلامية على الرغم من صياغتنا أيديولوجيا القومية العربية التي نحاول من خلالها استعادة هويتنا العربية الموحدة، لقد جعلتنا فترة الاحتلال العثماني أشد ضعفاً بعد أن جردتنا من كل مقومات القوة وحذفتنا من التاريخ خمسمائة عام، ولم تستطع الدفاع عنا وتخلت عن أقطارنا الواحد تلو الأخر لتضمنا أوروبا إلى إمبراطورياتها الاستعمارية (الإنكليزية والفرنسية والأسبانية والإيطالية ثم لتقيم للصهاينة دولة في فلسطين) بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية. أقطار مستعمرة ضعيفة متخلفة في مواجهة قوى استعمارية متفوقة انضمت إليها الإمبراطورية الأمريكية فيما بعد لتحل محل الأوروبيين، وتأخذ مكانهم في الحرب علينا متحالفة مع الصهيونية العالمية لإبقائنا تابعين متخلفين. وقد ناضل العرب كجماهير وكقوى ثورية لاستعادة الهوية الوطنية والقومية والحصول على الاستقلال، واستطاعوا إقامة دول في الأقطار التي جعلها الاستعمار أقاليم تابعة واعترف بها خدمة لمصالحه. ولم نستطع تحرير فلسطين ولا التقدم للحاق بأوروبا المتقدمة وأمريكا الحديثة التي حققت ثورات العلم والتقانة الأربعة ثورة البخار وثورة الكهرباء والنفط والإلكترونيات والمعلوماتية، وتضاعف تخلفنا حتى وصلنا إلى ما نحن فيه من عدم القدرة على مواجهة أعدائنا وتقرير مصيرنا الذي تتحكم فيه الإمبريالية الأمريكية في أعلى مراحلها والصهيونية في أشد فتراتها عتواً. وفقدنا الهوية مع صدمات الحداثة المتتالية، ونزداد تمسكاً بما

أسميناه الأصالة(الهوية، الدين واللغة). وما أدركنا أنها متغيرات في سياق التطورات الجارية في العالم الحديث المهيمن علينا، والذي يجرنا إلى فلكه طوعاً وكرهاً دون أن نقدر على الاختيار، ونجرع كؤوس الهزيمة المرة وما زلنا نقاوم ولنا الثقة الأكيدة بالنصر الذي توج كفاحنا الطويل في الحروب ضد الفرنجة، على الرغم من تجهم الآفاق من حولنا التي لا نلمح فيها غير صوى الماضي التي تحجب توقعات المستقبل الذي ما زال حتى الآن إرهاصات نحاول بها ومن خلالها الدخول إلى عالم الحداثة. بينما يتجاهلنا الحاضر تحت وطأة تراث الماضي الزاهر، ولا نعلم كيف الخروج من التيه الذي يحيط بنا نتيجة الضغوط الإمبريالية والصهيونية السياسية وثورات العلوم والتقنية الحديثة التي تغزونا. ولا نملك القدرة على الوقوف في مواجهتها لنختار، فتحاصرنا وتجبرنا على الخضوع لها والسير في ركابها، نحاول الاحتماء بماضينا الزاهر فلا يفيدنا وتعلو أصواتنا بالشعارات دون القدرة على التصدي.

ثوراتنا ضد الاستعمار والإمبريالية أجهضت غداة حصولنا على الاستقلال والحرية، ولم نستطع تحقيق الدولة العربية الواحدة ولا التنمية الاقتصادية المطلوبة. وجرى بصورة منهجية تدمير المجتمع المدني والديموقراطية الوليدة اللذين انبثقا من خلال الكفاح الوطني والقومي ضد الاستعمار وضد الصهيونية، وساهما بقوة في الحصول على الاستقلال وبناء الدولة الوطنية. ولكن الدولة القطرية التي حلت محل الدولة الوطنية باسم تحرير فلسطين ومواجهة الصهيونية والغرب الاستعماري على أثر الانقلابات العسكرية واستيلاء الجيش على السلطة وتمكنه من الدولة وتحويلها إلى استبدادية شمولية، وأوليغاركيات عائلية بطريركية وراثية حاكمة ، هذه الدولة دمرت المجتمع المدني والديموقراطية والحريات العامة وجعلت هدفها التمكن ضمن الحدود التي رسمها المستعمر، واعترف بها في إطار استراتيجيته للهيمنة والإلحاق والتبعية.

إن مشاريع التحديث النهضوية والإصلاحية (المشروع الليبرالي أي السير على خطى أوروبا والغرب واقتباس الحضارة والثقافة والمؤسسات والتكنولوجيات والنظام الرأسمالي . ومشروع التحديث القومي العربي على طريق الثورة والانقلاب وتحقيق الدولة العربية الواحدة وفق أيديولوجيا القومية العربية (حركة البعث القومي واليقظة العربية التي صاغتها الجمعيات العربية لقيادة الانفصال عن الدولة الاتحادية التركية، ومشروع حزب البعث العربي الاشتراكي ثم المشروع الناصري وحركة القوميين العرب. والمشروع

الإســـلامي للإصـــلاح الذي بدأه رفاعة الطهطاوي ومن بعده الشيخ محمد عبده بالـــتعاون والتحالف مع أستاذه الشيخ جمال الدين الأفغاني ومن ثم الشيخ رشيد رضـــا فابـــن باديس . والمشروع الماركسي –اللينيني أي التحديث عن طريق الـــثورة الاشـــتراكية والشـــيوعية بقيادة الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي. هذه المشاريع الأربعة التي كان كل منها يطمح ليكون قائد الثورة المأمولة نحو بناء الدولة العربية الحديثة فشلت جميعها لأنها لم تتحد وتتحالف. بل ظلت تتصارع ممـــا سهل على القوى الإمبريالية تفكيكها وهزيمتها. كما أنها لم تستطع صياغة مشـــروعها السياســـي والثقافي بما يجعله قابلاً للتحقيق في إطار زمني معين. وتحالفت مع الجيش ليكون القاطرة الذي يأتي بها إلى السلطة. فاحتواها وتمكن مـــن السلطة بها ثم حل محلها ليقيم حكماً استبدادياً وليفرض عسكرة المؤسسات المدنـــية والمجـــتمع وليقيم سلطة قمعية أعاقت التطور الطبيعي الديموقراطي والمؤسســـاتي الاقتصـــادي والسياســـي والاجتماعي وأسهمت في هدر الوقت والرأســـمال البشـــري والمالـــي في مرحلة حاسمة من التحولات الجذرية على المســـتوى العالمـــي هي مرحلة الانتقال من الحرب الباردة إلى النظام العالمي الجديد.

إن فقـــدان الطـــبقة حاملة مشروع الثورة والنهضة والإصلاح والتحديث ، بالإضـــافة إلى غموض برنامج النهضة الفكري فيما يخص الجوانب النظرية-الثقافـــية والإنســـانية وفلســـفة الدولة وآفاق المستقبل قد ساهم في إجهاض هذه الحـــركة التحررية. وهو ما كنا قد أشرنا إليه في معرض تقييمنا للحروب ضد الفـــرنجة وفشـــلها فـــي بعـــث نهضـــة قومية جديدة ، وقلنا إن سيطرة النخب العسكرية-البيروقراطية-والتكنوقراطية، على المجتمع وغياب المشروع الفكري الـــذي يبيـــن ملامـــح وأهداف الحركة الاجتماعية لبناء الدولة من أجل ضمان المستقبل هي السبب الرئيس لهذا الإخفاق. ولا بد هنا من التأكيد على أن الغرب الإمبريالـــي والصـــهيونية العالمـــية المتحالفين ضد العرب يلعبان دوراً كابحاً ومخرباً ومعيقاً للثورة العربية بهدف إجهاضها لتعميق الانقسام والتجزئة العربية وخلـــق حالة عجز عربي وتشجيع النزعات النكوصية والإقليمية والقطرية وما يمكـــن تسميته باصطناع مرجعيات قومية يؤسس لها علم الآثار الإمبريالي باسم شـــعوب وقومـــيات كـــان لها في مرحلة تاريخية وجود في الوطن العربي، ثم اندمجـــت في التيار العربي العام الذي دمجه الإسلام وصهره في العروبة كفكر و تـــاريخ وصيرورة قومية واحدة تعمل أكاديميات إنتاج الاستراتيجيات الثقافية

فـي المراكـز الإمبريالـية على بعثها حزمة واسعة من الثقافات الميتة لزيادة التبعـية والإلحـاق وتدمير الهوية القومية العربية. وقد استطاعت الوصول إلى هـذه النتيجة في هذه المرحلة البائسة التي نعيشها. وقد فقدنا الرؤى والمشروع الحضـاري والثقافـي الذي يحدد أهدافنا وغاياتنا المستقبلية على طريق التحرر الوطنـي والقومـي وبناء الوحدة العربية والمجتمع الجديد كأمة ناهضة متطلعة إلى دور على مسرح التاريخ العالمي.

■■■

الفصل الثاني:
التبعية وسياسات التنمية المستقلة
في عصر العولمة الأمريكي
{إيديولوجيا واستراتيجيات}

1-هل التبعية نظام إنتاج مفروض؟ أم إيديولوجيا يتطلبها تشبّه المغلوب بالغالب؟.

حول المفهوم وتعييناته:

التبعيـة ظاهـرة معقـدة تتشابك فيها الأعراض الاقتصادية والاجتماعية، والديموغرافيـة والجغرافيـة والسياسية والتاريخية. وهي عملية إلحاق قسري بوسائل سياسية واقتصادية وعسكرية ، وغزو ثقافي وفكري لتعميم نظام الإنتاج الرأسـمالي، وتسـويغ للهيمـنة التـي تمارسها دولة عظمى أو مجموعة دول أحـرزت تقدماً في مجالات الاقتصاد والتكنولوجيات والعلم ، فتستخدمها لتحقيق مصالح مادية واستراتيجية ، بما تفرضه على أمم وشعوب أخرى أقل تقدماً، من إجـراءات تلـزمها بها وتجبرها على تنفيذها، كي يمكنها البقاء. فقانون الغلبة الإمبريالـي يبـيح للمنتصـر مصادرة الثروات والسيادة، واستغلال القدرات الإنتاجية، والصناعية والموارد المالية لغاياته الخاصة. وعلى المغلوب أن يعمل وفـق إرادة الغالـب وقوانيـنه، ولا خيارات أخرى أمامه. فالغنيمة هي جائزة المنتصـر وتشمل الاستيلاء على ثرواته المنقولة وغير المنقولة وعلى الإنسان نفسـه وتحويله إلى قوة منتجة بأرخص الأسعار عبداً أو فلاحاً أو عاملاً أجيراً وتشـغيله لحسـاب السيد بالإكراهات المادية والاقتصادية. كما تفرض عليه أن يبيع ويشتري ويستهلك وفق ما تقتضي مصالحه. وهي بالمعنى السلبي انحسار وتـراجع القـدرة على النمو الذاتي والقدرة على المنافسة. وهي علاقة مؤسسة

على القوة بين دول متقدمة تحوز على التقنية الحديثة والثورة العلمية والرساميل الضخمة، وقد أقامت البنى والمؤسسات اللازمة لاستغلال وتشغيل هذه القدرات(مؤسسات المال- البنوك والمصارف العملاقة الوطنية والعالمية- والشركات وأسواق المال والمصانع والمعامل الحديثة ومراكز البحوث العلمية والجامعات ومؤسسات الدولة الحديثة ومنظومات القوانين، والجيش والقوات المسلحة بكل ما تحوز من أسلحة حديثة ومتطورة). وجعلت الاقتصاد المتكامل والتنمية المستمرة قانوناً أساسياً لبناء دولتها القومية الحديثة، وقوتها المسلحة، بما يكفل لها التفوق على غيرها من الأمم والدول، التي تخلفت عن الحداثة وشروطها ونظام الإنتاج الرأسمالي ومنظومته القانونية والسياسية والثقافية ، وعن الثورة العلمية، و تطبيقاتها ، وعن الجيوسياسة ومفاهيمها الديناميكية، والبنى الذاتية التكوينية للدولة الحديثة.

وتشمل تعيينات المفهوم شبكة من الأسباب والمسببات والظروف والشروط المنتجة لذلك التخلف، تاريخية وجغرافية-بيئية وثقافية حضارية وإنتاجية – اقتصادية، ودولتية-حكومية ومؤسساتية، وقومية، وسياسية، وعقلانية، ودينية، ومفاهيم أخلاقية وقيم روحية. اتخذت طابعاً تاريخياً عبر مراحل من الانهيارات الإيكولوجية والاجتماعية والديموغرافية والبنيوية، والغزوات الأجنبية في شروط ملموسة. شكلت بمجموعها ظاهرة التخلف والتقدم، والتبعية والغلبة. فتصدرت أمم في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية واليابان توفرت لها شروط أفضل في كل هذه الأصعدة لتصبح أمماً متبوعة تؤلف نواة العالم الحديث، تصنع وتنتج السلع ليس لتلبية حاجات مواطنيها بل لتلبية حاجات العالم أجمع، وما تطلبه السوق العالمية التي أسستها ووسعتها إلى أقصى الحدود التي تضمنتها علاقات الإنتاج الرأسمالية. وهي لم تزل تقود الثورة العلمية والتكنولوجية والثقافية المعاصرة منذ أكثر من ثلاثة قرون إلى آفاق مفتوحة لانهائية، وتصدرها وتعممها على بقية العالم . وأمم تابعة تستهلك السلع والمنتجات المصنوعة المصدرة إليها وتقتبس العلم والثقافة وأساليب الإنتاج الرأسمالية والتربية الحديثة والمؤسسات والقوانين التي تعتقد أنها سبب تفوق وتقدم الأمم الأولى.

وعلاقة التبعية في الجوهر علاقة تناحريه -صدامية وبنفس الوقت تواصلية -انقطاعية تشكل نمطاً متسقاً للعلاقة بين الأمم بقيادة طبقة رأسمالية حديثة، ليست من أصول تراتبية عريقة بالنبالة أو الفروسية أو الكهنوت(حربية

أو سلالية ذات امتيازات متوارثة عائلية أو إقطاعية وأرستقراطية)، فهي تعتمد علـــى حـــيازتها للرأســـمال وأدوات الإنتاج والتقنيات الحديثة وتستند إلى العلم والخبرات التكنولوجية والسوق والمنافسة، بل قل الحروب والصراعات المدمرة فـــيما بيـــنها ســـعياً وراء الربح والمغانم، متجددة باستمرار مع تطورات نظام الإنـــتاج الرأســـمالي نفسه واتساعه وتعميقه بإفصاحه عن مكنونا ته وآفاقه في تظاهـــرات وأزمـــات، تفصـــح عن قانونه الأساس المتمثل بتجدده على طريق الاكـــتمال والســـيادة العالمية، في تواصله بالقوة والفعل وانقطاعا ته بالمواجهة الاجتماعـــية الداخلـــية، وتناقضـــا تـــه البنـــيوية وثورات وكفاح الدول التابعة والحـــروب السرية والعلنية بين مراكزه العظمى من أجل حيازة القوة ، وبالتالي المـــنافع الماديـــة، لتعيد صياغته بعد كل أزمة وفق تناسب القوى الطبقية التي صـــعدت وامتلكـــت التكنولوجـــيات الأحدث، والتي تتجدد في كل عقد تقريباً . فالحـــراك الاجتماعـــي واسع والتحولات في الأوضاع الطبقية مطردة، ومتبدلة وتناســـب القوى وموازينها أيضاً متغيرة فيما بينها لصالح هذه الشريحة أو تلك داخـــل الطـــبقة الرأســـمالية ذاتها وفقاً للمصالح المتعارضة بل والمتناقضة في بعض الأحيان، فقانون التطور والتغيير هو المحرك الفاعل في النظام الرأسمالي الذي بديناميكيته الذاتية يعصف بكل قديم ويدمره لصالح الجديد والأحدث.

2-أيديولوجيا التبعية.

تســـتند علاقات التبعية إلى أيديولوجيا تكاد أن تكون ديانة وضعية، صاغ أطروحـــتها (أوغست كونت الفيلسوف الفرنسي مؤسس علم الاجتماع الحديث). تعـــتمد المـــال بـــل الرأسمال والتكنولوجيات والعلم الوضعي-التجريبي قاعدة ومـــنطلقاً لبـــناء عـــالم جديد، والعقلانية والمادية فلسفة سامية لبناء ثقافة حديثة لإنسان جديد صفته الأساس أنه منتج وصانع ومنظم اقتصادي وإداري وسياسي ومفكـــر وعالم، له رسالة وضعية هي تحرير البشرية من الدين والخرافة ونشر العقلانـــية وأنوار العلم والحرية، وهي رسالة تفاضلية تتحمل مسؤولياتها الأمم التـــي سبقت وقادت العالم في هذا السياق، وامتلكت هذا الحق بالفعل والممارسة ومـــا أنجزته في ميادين الصناعة والعلم[1]، وأعطت لنفسها حق فرض المدنية

---

[1] تحـــتكر الولايات المتحدة الأمريكية نصف سوق صناعة الطيران و20% من المعلوماتية، كمـــا تحتكر أوروبا الغربية 30% من الصناعات الصيدلانية، وتحتكر اليابان 22% من سوق المعلوماتية و21% من شبكة الموصلات.

الجديـدة وأخلاقـياتها علـى العالم بما أحرزت من تقدم وتطور وإنتاج مادي وسـلعي وثـورة اقتصادية وعسكرية، أهلها للقيام بدور المهيمن والمسيطر في العـالم. فهـي تـتخذ مـن مفاهيم المجتمع الحديث والقومية والأممية والدولة والرسـالة الوضـعية أدوات لبـناء هـذا العـالم في إمبراطورية حديثة. هي إمـبراطورية الرساميل والعلوم التجريبية والتكنولوجيات. في مقابل مجتمعات قديمـة، وأنظمـة إنتاج متخلفة وبدائية تعتمد التقاليد الموروثة من أيام الحرف والمشـاغل والعمـل الإنساني اليدوي وقوة الحيوان في الدفع والتحريك،و ديانة ميثيولوجـية قديمـة متوارثة، حملتها طبقات ذات امتيازات أيديولوجية-رجال الديـن والفرسان والنبلاء الإقطاعيين- عبر الحقب والعصور التاريخية، منذ أن انتقل الإنسان من البربرية إلى الحضارة، ومن الثقافة الكوزمولوجية إلى الثقافة الأرضـية والإنسانية حتى عصر الرأسمالية. وكان من سلالتها الديانات الكبرى والإمـبراطوريات القديمة التي تمكنت بها الإيديولوجيات والميثيولوجيا من حياة الإنسـان، وما زالت تتحكم بها حتى اليوم في المجتمعات القديمة التي لم تدخل عصر الصناعة والتنوير بعد، وتشكل ثقافتها ونمط حياتها.

إن علاقـة التبعـية التي تربط بين هذه الأمم الأخيرة والأمم المتقدمة هي علاقـة مفروضـة مـن المتبوع على التابع عبر شبكة من العلائق المؤسساتية ظاهـرها اقتصادي-سياسي ومحتواها إنتاجي-تقني -علمي ومرجعيتها ثقافية، تنـتجها علاقـات السـوق العالمية التي تتحكم بتدفق السلع والرساميل والقوى العاملـة والأفكار والتقنيات بحسب ما تقتضي المصالح المادية للطبقات المالكة والمهيمـنة علـى وسـائل الإنـتاج و الدولة والمؤسسات الأخرى الاقتصادية والعلمية والسياسية. وفي هذا السياق فإن الدولة الأكثر تطوراً في مجال الإنتاج الصـناعي وتحديثاً في تقنياته وإنفاقاً على البحوث العلمية، والمالكة للرسا ميل وأسـواق المـال الحديـثة والقوة العسكرية المتفوقة هي القادرة على السيطرة والإمسـاك بمفاتـيح عملية الإنتاج الرأسمالي وحركة السوق العالمية، وبالتالي السـيطرة السياسية والثقافية للتصرف كإمبراطورية . وتجعل أيديولوجيا التبعية الـتابع أسير شبكاتها العنكبوتية استهلاكاً وإنتاجاً وتوزيعاً وسلوكاً ومعايير قيمية وأخلاقـية. وتعـيد صياغته فتحوله إلى موضوع تمارس هيمنتها عليه، وتشكله حسـبما تـريد، فتصـدر إلية تدفقات الهيمنة التي تنتجها الشركات والمصارف والاحـتكارات والمؤسسـات الاقتصـادية والمالية والتقنية والعلمية والثقافية ، فتحرمه من القدرة على مواجهة هذا الطغيان غير الملموس. فيتخبط في ضعفه

وتخلفه عاجزاً عن الوقوف في وجه هذه المؤثرات، ولو أراد ذلك وصمم على الفعل، لأن جوهر النظام الرأسمالي يقوم على هذه الآليات للإلحاق وفرض التبعية. فهو أيديولوجيا وثقافيا وتقنيا مرتبط بالآخر ينتج ويستهلك تلبية لطلباته، فما عليه إلا أن يقبل وضعه في قسمة العمل الدولية الرأسمالية هذه. وإذا رفضها فعليه أن يتحمل نتائج عمله فقد تُشن الحُرب عليه تحت عناوين وشعارات مختلفة أبسطها انتهاك حقوق الإنسان أو الاعتداء على رعايا الآخر الذين يتمتعون بامتيازات خاصة بهم وتعريض ممتلكاتهم وأمنهم للخطر، وهذا شيء ممنوع عليه بموجب الاتفاقات الدولية الخاصة والعامة التي تحفظ مصالح المجتمع الدولي كله(وتعني مصالح الدول الصناعية المتقدمة). وسيكون عند ذلك متمرداً خارجاً على القانون الدولي والمجتمع الدولي والشرعية الدولية... يجب أن يعاقب حتى يعود صاغراً إلى بيت الطاعة الإمبراطوري، ويلتزم بتنفيذ ما هو مطلوب منه، لأنه بعمله يقطع سياق العملية الإنتاجية الرأسمالية العالمية ويعيق التطور اللازب الذي هو في طبيعة هذا النظام الرأسمالي الشامل والكلي القدرة والتأثير[1] .

فالسياسة هي التي تقرر اتجاهات وتطور علاقات التبعية، وتعطيها مضمونها وسماتها وتحدد مسار الاقتصادي في عملية الصراع بين الدول المتقدمة والدول التابعة، وبين النهج الوطني في عملية التنمية والنهج التابع خلال مرحلة التحديث لبناء الاقتصاد والدولة الحديثين. ولذلك كان التعديل الهيكلي الذي يفرضه البنك الدولي يتعلق بحصر السياسة الاقتصادية بالمبادئ الأساسية والحد من الاعتبارات السياسية في صنع القرار الاقتصادي. ولأن نجاح أي متمرد في تحقيق اختراق لهذا النظام فإنه قد يفجر الاستقرار المالي والاقتصادي الذي تنعم به الدول المتقدمة. وعندها سيفرض هيكلية جديدة للاقتصاد العالمي، ستؤثر على التبادل التجاري وعلى الاستثمارات ومعدلات الربح. ويغير موازين القوى العالمية الراهنة وعلاقات التبعية على سبيل المثال- زيادة أسعار النفط الخام (محاولات العراق بقيادة صدام حسين في أواخر الثمانينات بعد انتهاء حربه مع إيران1989 م) عن طريق مطالبته الدول

---

[1] وجه الآثينيون لأهالي ميلانو إنذاراً بالقتال حتى الموت أو الاستسلام.فرد أهالي ميلانو (بأنهم يقاتلون في سبيل حريتهم، فرد الآثينيون (القوي يفعل ما تمكنه القوة من فعله والضعيف يقبل ما يجب عليه قبوله).

العربـــية الخليجية المنتجة للنفط بخفض الإنتاج مما أدى إلى شن الحرب الأولى علـــى العـــراق 1991م والحـــرب الأمريكية الثانية 2003م، وتدمير صناعته النفطـــية وضـــرب الحصار عليه لمدة تجاوزت اثني عشر عاماً ثم احتلاله -أو فرض رسوم جمركية عالية على أنواع معينة من السلع، وانتهاج سياسة حمائية لصـــالح الصناعات المحلية والمواد الخام والزراعية، أو القيام بإنتاج تكنولوجيا مـــتطورة تعتبرها الإمبراطورية من احتكاراتها الرئيسة التي لا يجوز حيازتها إلا مـــن نـــادي الـــدول المتقدمة المتعاهدة فيما بينها على اقتسام النفوذ والهيمنة تحـــت قـــيادة الدولة الإمبراطورية. وعندها ستدق ناقوس الخطر لأن الفوضى ستدب في هذا النظام ، هذه الفوضى التي لابد منها للخروج منه وعليه، والقطع الفكـــري والثقافي معه وقد تكون السبيل الوحيد للانتقال إلى تأسيس نظام جديد وعلاقات متوازنة لا تقوم على التبعية.

هـــذه العلاقـــات التـــي حددنا جوهرها بأنها علاقات مقاومة وصراع بين مجـــالات حضارية وثقافية متفاوتة النمو يحركها قانون النمو المتفاوت وقانون التطور والبقاء للأصلح والتحديث المستمر للاقتصاد في قلب النظام الرأسمالي، ممـــا يجعـــل التغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي متتابعاً ويشمل تغيير مفاهيم الحـــياة نفســـها والعقل والعلم والمجتمع والاقتصاد والدولة والإنسان ويخضعها لإيقاعـــات عملية التراكم الرأسمالي والتقني والعلمي التي ما فتئت تتعاظم دافعة إلـــى الأمام إلى آفاق جديدة لم يعد الإنسان نفسه لا السوبرمان ولا العادي بقادر على تلمس ومعرفة أبعادها المعرفية المستقبلية.

يجـــب فهـــم الرأسمالية في بعدها كحقيقة عالمية وعدم اختزالها إلى مجرد نمـــط إنـــتاج رأســـمالي يعـــم الأرض . . . يجب كشف وتركيب المتناقضات الاجتماعـــية الخاصـــة بكل فرع أو مجموعة في النظام العالمي ومفصلتها على بعضها وبالتالي الخروج من إسار النظرية المركزية الأوروبية للتاريخ والتوسع الرأســـمالي[1]. ويتطلـــب هـــذا ترتيباً فكرياً ونظرياً حديثاً يأخذ بعين الاعتبار والحســـبان التـــنوع البنيـــوي الرأسمالي داخل المجتمعات المتقدمة وتناقضات المجـــال الاجتماعـــي-الاقتصادي فيها، والعلاقات الخارجية والصراعات حول الأســـواق والهيمنة العالمية على منابع الطاقة والحروب المحلية والعالمية التي

---

[1] الاقتصـــاد السياسي للتنمية في القرنين العشرين والحادي والعشرين -دار الفارابي ببيروت 2002م ترجمة د-فهيمة شرف الدين

تشجعها أو تشنها لتحقيق مصالح ومنافع خاصة استراتيجية واقتصادية، ولإعادة صياغة وترتيب مراكز القوى المحلية الموالية والمعادية والعالمية وموازينها في كل فترة وبعد حدوث تطورات جذرية مؤسسة لأوضاع سياسية وثقافية جديدة، بعد كل تقدم علمي أو ثورة تكنولوجية. ومن هنا فإن القول بأن الفوضى هي القانون الداخلي لحركة الرأسمالية التي تبدو بنيتها متماسكة ومترابطة في نظام متسق هو قول صحيح ، ففي داخل بنيتها الأساس التي اكتشفها ماركس في السلعة وتحققاتها في الكتاب الأول من رأس المال توضيح وشرح لهذه الفوضى وعملها الخلاق، وهي بقوانينها المتجددة تعيد تأسيس النظام الرأسمالي مع كل اكتشاف علمي أو تقانة صناعية أو شكل اقتصادي – اجتماعي جديد. فالتبعية بهذا المعنى ليست نظام إنتاج كولونيالياً –حسب نظرية مهدي عامل –ولا نظام إنتاج رأسمالياً تابعاً في الأطراف للنظام المؤسس–بحسب سمير أمين–كما أنها ليست ثقافة التخلف مقابل ثقافة الحداثة، ولا العقلانية–الفلسفية والمادية العلمية مقابل الروحانية واللاعقلانية، ولا الدولة الديموقراطية القومية الحديثة مقابل الدولة الاستبدادية – العشائرية – العائلية –الطائفية دولة الأعراف وعلاقات القوة بين مجموعات متنوعة الأعراق والثقافات.

التبعية مركب ثقافي –اقتصادي يتضمن التقدم والتخلف في وحدة جدلية وعلاقة متكاملة تفصل وتوصل ، في عملية التناقض والتضاد والنفي والصراع والتجاوز، فتنمية التخلف تظهر وكأنها وقف التقدم في المراكز المتقدمة. لتظهر وكأنها النقيض المقوض للحداثة. فتنتج عدم التكافؤ في الاقتصاد والثقافة بين مجتمعات ذات حضارات عريقة تريد الحفاظ على هويتها وبنفس الوقت ملاءمة أوضاعها للاستفادة من إنجازات واختراعات وتقنيات وعلوم الحضارة الحديثة، ومؤسساتها في بناء الدولة والاقتصاد . فتدخل في علاقات صراعية تكاملية. تؤسس لنظام عالمي حديث ومنظومة من القوانين والأفكار والآليات والمؤسسات على المستوى الدولي والقومي والمحلي؛ مشكلة نظاماً عالمياً تتوزع فيه القوى، بتناسب الفاعليات وقسمة العمل الدولية، الطرفي –الداخلي الحديث، والخارجي التابع– بما يساعد على التغلب على الأزمات البنيوية التي محركها الأساس الحرب من أجل المصالح واحتكار القوة وحيازة أعلى معدل للربح، والحفاظ على الهيمنة لضبط الفوضى التي تنجم بعد كل صراع ، لإعادة تكوين وتحديد موقع النقيضين، التبعية والحداثة مع نفي كل منهما للآخر بإعادة تركيب وتعريف وتجاوز المفهوم السابق، إما بتعميق التبعية أو بالمصالحة

الظرفية في شروط متغيرة على إيقاع التطورات العاصفة في مجالات التكنولوجيا والثورة العلمية والأعمال والمؤسسات والاقتصاد السياسي.

عبر مفكرون عرب وأجانب من مدارس اقتصادية متباينة وبصياغات نظرية متنوعة المذاهب و الأفكار الاقتصادية أبرزها ما سمي بمدرسة نظريات التبعية وتنمية التخلف حاولوا تلمس أبعادها وتحديدها وتعريفها وقوانينها، من أبرزهم على المستوى العربي الدكتور سمير أمين(في نظريته حول التطور اللامتكافئ والانقسام إلى مركز متقدم ومحيط متخلف). ومهدي عامل فيما سماه نظام الإنتاج الكولونيالي. وقد أولت هذه النظريات الأهمية المعيارية للجانب الاقتصادي في تحديد معنى التخلف والتبعية، بينما لم تول الجانب الثقافي ما هو فعلاً كعامل حاسم في تحديد الهوية. وبينما تنشر الحداثة قيمها وأخلاقياتها وأساليب عملها وأفكارها، لأنها الطرف المهيمن والأقوى والحد الرئيس والمفتاح لتطور الآخر ، والطريق الواضح لبناء الرأسمالية كنظام إنتاج عالمي وحضارة متقدمة. تحاول الدول التابعة المقاربة الاقتصادية و السياسية والثقافية، لتخفيف قيود وشروط التبعية في استبطان الحداثة، عبر طرق متنوعة ومتعرجة (مقاربة سلمية بتقليد مأثور، أو مبتكر، وإما بالقطع العنيف عبر الثورة الاشتراكية أو المقاومة المسلحة في حروب تحرر وطنية، أو باقتباس ما تظن أنه بوابة الدخول إلى العالم الحديث، في إطار أفكار وأيديولوجيات توفيقية وتلفيقية للجمع بين أيديولوجيا الحداثة وما تعتقد أنه الهوية القومية والوطنية، أو بالانفصال و الإنفكاك عن الحداثة باختراع أيديولوجيا مناهضة تحت شعارات الأصالة والعودة إلى الجذور).

إن مجموع ما كُتب عن آلية العلاقة بين المركز والمحيط التي أعاقت الأخير ازداد بشكل كثير في السنوات الأخيرة، وتتعامل نظرية التبعية مع ثلاثة مواضيع رئيسة:الاستغلال والتشويه البنيوي وقمع السياسات الاستقلالية، ففي الموضوع الأول(استغلال المركز للمحيط)تهتم التنمية الرأسمالية على المستوى العالمي بالمنافسة بين مختلف العوامل(رؤوس أموال ودول)من أجل الحصول على حصص الفائض الاقتصادي(يقول فرانك:إن اختراق المحيط بواسطة الاستثمار الأجنبي يصرف الفائض إلى المركز عن طريق إعادة الأرباح والفوائد إلى الوطن الأم مما يؤدي إلى تراكم رأس المال في المركز وتخلف المحيط، عن طريق هذا التبادل غير المتكافئ، والإخضاع لسيطرة خارجية. وفي الموضوع الثاني يجري التشويه البنيوي لاقتصاد المحيط من خلال

العراقيل التي يضعها المركز أمام تنمية المحيط، بجعل الاقتصاد الموجه للخارج والمتخصص في إنتاج المواد الخام للتصدير لا يطور بنية داخلية مميزة، وبناء البنية التحتية التي عمل الاستعمار من قبل والاستثمار الخارجي من بعده على تشغيلها، هي موجهة باتجاه موانئ التصدير والاستيراد لخدمة هذه المهمات ولا تعمل على ربط مختلف مناطق وقطاعات الإنتاج بعضها ببعض، لأن الروابط الموجهة خارجياً تحول الطلب إلى الاقتصاد العالمي ، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن التقلب في شروط التجارة العالمية يجعل أسعار المواد الخام متقلبة وتنحدر باستمرار بينما ترتفع أسعار المواد المصنعة والسلع الرأسمالية المنتجة في المركز. إن النماذج المستخدمة في التشويه تخلق حالة من التخلف الديناميكي، فالتبعية تشوه البنية الاقتصادية بالطرق التالية:التخصص في إنتاج المواد الخام، والبنية التحتية الموجهة خارجياً واستخدام أساليب متنوعة لإعاقة التنمية المستقلة . وفي الموضوع الثالث أي قمع السياسات الاستقلالية في المحيط ، لأن التبعية تعيق التنمية بفرضها القيود على خطط التنمية والتمويل واستيراد التكنولوجيات، وحماية بعض الصناعات الوطنية الناشئة، وتشوه نشوء طبقة برجوازية وطنية ، عن طريق تشجيعها لنمو روابط قوية بين نخب سياسية وتقنية وبيروقراطية مدنية وعسكرية وتكنوقراطية في المحيط تتمتع بامتيازات معينة في السوق الوطنية والعالمية، وتنتج عدم مساواة داخل المجتمعات التابعة وبين المجتمعات القومية، فالشركات متعددة الجنسيات لا تعمل على تنمية البلدان الموجودة فيها وتستخدم هذه الشركات نفوذها السياسي والاقتصادي لإبقاء تكاليف العمالة والضرائب منخفضة للحفاظ على شروط استثمارها المربح، فلا تستطيع الدول الخاضعة للسيطرة الخارجية وضع فائض رساميلها في الاستثمار ضمن تنمية مستقلة ومتوازنة نتيجة كل هذه الشروط، تظل تنمية التخلف والتبعية هي السائدة. إن أحد الحلول لمشكلة التبعية هو التحكم في المدخلات من المركز لضمان الانسجام في تنمية متوازنة، وهذه استراتيجية صعبة في عصر العولمة والشركات متعددة الجنسيات، التي تملك الأفضلية في فرض شروطها على بلدان التبعية[1]

---

[1] راجع كتاب من الحداثة إلى العولمة كتاب عالم المعرفة =الكويت –الجزء الثاني الفصل 14ص 51-76

3-حدود التبعية وأشكالها:

للتبعــية مظاهر وأشكال متحولة : تقوم نظرية التبعية كما أنتجتها مدرسة التبعــية فــي أمريكا اللاتينية في الخمسينات من القرن الماضي، ثم اتحدت مع الماركســية الجديــدة في الستينات:على نظرية التبادل غير المتكافئ بين البلدان الاســتعمارية الرأســمالية التــي تنــتج المواد والسلع المصنعة وتبيعها بأسعار احتكارية دائمة الارتفاع وبين البلدان المتخلفة التي عانت من خضوعها الطويل للاستعمار والتي تنتج المواد الأولية والزراعية والخامات المعدنية والطاقة غير المصــنعة والمجبرة على بيعها للبلدان المتقدمة بأسعار مفروضة تتراجع بشكل مقــابل لارتفاع المواد المصنعة . مما يجعل من المستحيل على هذه البلدان أن تستطيع اللحاق بالبلدان الرأسمالية المصنعة. وأن البلدان الرأسمالية التي تسيطر علــى العوامــل الرئيسة للتبادل والرساميل تجبر بلدان العالم الثالث من خلال الشــركات مــتعددة الجنســيات الاقتصادية على نمو غير متوازن، بالتخصص بإنــتاج المــواد غــير المصــنعة ذات القيمة المضافة الضعيفة-المواد الأولية والخامــات المعدنــية والطاقــة الرخيصــة. وهي تدعو لتصحيح هذه العلاقة بالانفصــال عــن نظــام التبادل الرأسمالي إما بالثورة الاشتراكية، أو بالتنمية المســتقلة، واتــباع سياســات حمائية وتخطيط مركزي وحشد للموارد البشرية والمالــية لبــناء قــاعدة مادية وبنية تحتية وفق برامج مكثفة لإنتاج التكنولوجيا الحديثة أو استيرادها تلبية لحاجات الاقتصاد الوطني وخطط التنمية القومية.

1- **التبعــية الاقتصادية** كما يعرفها علماء الاقتصاد هي درجة الانكشاف الاقتصــادي وهي تساوي الصادرات+ الواردات(مقسومة على) الناتج المحلي الإجمالــي. فكلما ارتفعت حصيلة الصادرات والواردات إلى الناتج المحلي زاد الانكشــاف، بيــنما يؤشــر التركيب السلعي للصادرات على سيطرة صادرات ســلعتين رئيسيتين على مجموع الصادرات والتركيز الجغرافي للصادرات أي الصــادرات إلــى أهم شريكين تجاريين على حجم التبعية ومضمونها. فصناعة بديــل الــواردات التي اعتمدتها العديد من الدول في الخمسينات والستينات من القــرن الماضي كاستراتيجية للتحرر من التبعية أدت إلى تبعية أعمق كما يقول هؤلاء الاقتصاديون، لأن استيراد المواد الأولية للإنتاج في الوطن العربي تصل إلــى 45%وإلــى 65% مــن حجم الاستثمارات السنوية في حين تناقص حجم الاستثمارات الأجنبية إلى أقل من 1% 1999م.

إن نمــط الإنتاج الرأسمالي هو النمط الاقتصادي الأول غير القادر على

الوجـود بذاتــه فهــو بحاجة إلى أنظمة اقتصادية أخرى كأدوات وكتربة للنمو والــتكاثر كما أشارت إلى ذلك روزا لوكسمبورغ في دراستها عن الإمبريالية. فالتبعية الاقتصادية إذن لن تختفي إلا باختفاء النظام الرأسمالي كنظام إنتاج سائد الــذي هــو بالجوهر نظام احتكاري وليس نظاماً تنافسياً. لأن التحول في إطار الرأسمالية والسوق العالمية إذا لم يكن تغييراً جذرياً فهو لن يكون سوى الانتقال مــن نمــط تبعــية إلى نمط تبعية آخر، في سلسلة تطورات النظام الرأسمالي العالمي.

2- **أمــا التبعية السياسية** فهي تعني أن حدود السيادة للدول التابعة ضيقة بالأصــل وتضــيق وتــتقلص باستمرار على إقليمها وشعبها وثرواتها الطبيعية وقواهــا العاملــة وعلى كيفية استخدام مواردها المالية والعلمية والتكنولوجية، وعلــى إنــتاجها المــادي والروحي، مما يدخلها في أزمة هوية نتيجة سياسات الــتجزئة والتفتيت أو الضم والإلحاق التي رسمت بها ولها الإمبريالية حدودها كــدول بحسب ما قدرت مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية، وجعلتها نهائية لا يجــوز تغييرها إلا بموافقتها. وعملت بكل دأب لتحويلها إلى مسألة خلافية بين الفــئات الإثنية والمذهبية والطائفية والقبلية، تتلاعب بها وتستخدمها عند اللزوم لتفجــير هذه الدولة، أو إشعال الحروب مع الجيران الذين يدعون أنهم أصحاب الأرض وأهلهــم فيها. فقد رسمت لها الدول المتقدمة والإمبراطورية الأمريكية دوائــر وخطــوط حمر ورمادية وصفر وخضر في إطار تقسيم العمل الدولي وعليها ألا تتجاوزها وهي مرتبة على درجات تبعاً لقربها أو بعدها من مصالح واســتراتيجيات تلك الدول، فيمكنها أن تعمل خلالها وتحت مراقبة صارمة ولا تــتعداها و إلا تعرضــت للعقوبــات الاقتصادية والسياسية والعسكرية وجرى الــتدخل لاحــتلالها مــن جديــد أو إشــعال الحــروب الطائفية والعرقية بين أقاليمها(مثال يوغوسلافيا والعراق، وأندونيسيا).

3- وأمــا **التبعــية الثقافــية** فأشــد التباساً وخطورة من التبعية السياسية والاقتصــادية ، فهــي تعــيد تشكيل الفكر والثقافة والشخصية القومية والفردية والمجتمعــية للأمــة التابعة خدمة للأهداف العامة للإمبراطورية الرأسمالية في أعلــى مــراحلها. فــتعمل ثقافة العولمة الإمبراطورية وفق استراتيجية الحذف والإلغــاء وقوانيــن الاحتواء والتجاوز للثقافات القومية والوطنية ابتداء بتغيير مــناهج التربية والتعليم والمعايير الأخلاقية، وانتهاء بكنس سلم القيم التي تشكل جوهر الهوية القومية، واستبدالها بنماذج المعايير الاستهلاكية الأمريكية المستندة

إلـــى منظومة أخلاقية مغايرة. مرجعيتها الفكرية الفلسفة-البراغماتية- وخطابها السياسي أيديولوجيا الرأسمالية، متوسلة بالإعلام المرسل عبر القنوات الفضائية، وعن طريق أفلام الفيديو والسينما ، وشبكة الإنترنت والمواد الإعلامية المنتجة للدعايـــة والنشر الواسع لثقافة الاستهلاك والتوزيع والإنتاج الإمبريالية، وأدوات الاتصـــالات وآليات إيصال هذه الثقافة إلى جميع أنحاء العالم. هي ثقافة السلعة والدعاية والإعلام التسويقي، بما يخلق من رموز ثقافية حديثة (أبطال الرياضة، ونجـوم السـينما والتليفزيون وموسيقى البوب والشخصيات المالية التي جمعت الملاييـن فـي فـترات قياسية)، بقدر ما تزيح من الذاكرة والممارسة الرموز الثقافـية القومـية والوطنية لمحو ثقافة الأمم والشعوب التابعة بحيث يصبح من العسـير رسـم سياسـات قومية قادرة على تعبئة وحشد الجماهير في مواجهة التبعـية وهيمـنة العولمـة والنظام العالمي الجديد على طريق التنمية القومية للتحرر من التبعية.

إن الـتحول إلـي الكونـية لا يتم على مستوى الأسواق والتجارة والعمل فحسب بل يخلق صوراً من التجانس والترابط في ميادين الحياة المختلفة، بالدمج بيـن الاقتصاد والثقافة عبر المجالات المتعددة، (الإثني بالهجرة والتقني والمالي والإعلامـي والأيديولوجـي والقيمـي بالتجارة والمثاقفة). وتشهد استراتيجيات الاندمـاج بيـن عمالقة صناعة الإعلام والسينما ودور النشر وشركات برمجة الكومبـيوتر والإنترنت(شركة إم إس إس mssلاتصالات الألياف الضوئية مع مؤسسات روبرت مردوخ الإعلامية وشركة وارنر للاتصالات مع التايمز-دار النشـر الصحفية ثم مع مؤسسة cnn)تشهد على الأهمية القصوى التي تعطيها العولمـة لنشـر ثقافتها في العالم. فآليات الاتصال الجديدة تنتج تكوين رأي عام فـوق قومـي فتجسـده فـي مفاهيم ورموز، أي انتقاء عناصر ثقافية ودمجها وعرضـها في صور، وبثها في قنوات الاتصال بهدف تشكيل ثقافة فوق قومية تخـدم المؤسسـات الاقتصادية متعددة الجنسيات، وتغليفها بخطاب علمي-تقني وأيديولوجـي على الرغم من نفي صفة الأيديولوجيا عنه، بلا هوية قومية على الـرغم مـن هويـته الأمريكـية. الربح والأدلجة وحالة مشوهة من المواطنة العالمـية، ليسـت في النهاية إلا من صنع دوائر التخطيط في الشركات متعددة الجنسـيات والدولة الإمبراطورية التي تقوم بترويجها وفرضها على العالم. هي ثقافـة القوة الرأسمالية والتكنولوجيا والمعلوماتية وسلطة المعرفة المنبثقة عنها (تجمعـات الإنترنـت)المكدونالديـة على سبيل المثال أي طريق إعداد الطعام

والشـــراب ، بكفـــاءة والاهتمام بالجودة والضبط باستخدام تقنيات غير بشرية، ووضـــع مشـــروع عقلاني للتنبؤ والضبط والفاعلية للمشروع الناجح . كما إن نمذجـــة الحياة على طريقة السوق قد أدى كما يقول نقاد العولمة إلى موت روح الإنتاج والإبداع والقدرات الإنسانية الخلاقة وموت المعنى بمعنى موت الإنسان فـــي ثقافـــة الصورة المرسلة عبر الأقمار الصناعية والقنوات الفضائية وتشكيل وعي زائف.

لقـــد أصبحت الثقافة ساحة نزال أيديولوجي في النظام العالمي الجديد بين العـــالم المـــتقدم والدول التابعة وهي الأكثر أهمية من الاقتصاد في قيادة عملية التغيـــير الاجتماعـــي ، و يكتب المفكر الاقتصادي الأمريكي وولرشتاين حول خطورة هذه الثقافة بما تثيره من متناقضات بين الثنائيات وتفجر من صراعات: العمومـــية مقابل الإثنية وعالم الاستهلاك مقابل عالم القيم، بأنها معركة مفتوحة علـــى أرضـــية ثقافـــية متحركة ومتطورة، وقد تجلى ذلك في منهجية العولمة، والمجتمع المدني، إذ تعمل هذه الثقافة على إضعاف المجتمع المدني القومي إما لصالح مجتمع مدني فوق قومي-كوزموبولوتي-أو تكسره لصالح تجمعات أدنى طائفـــية وإثنـــية أي تشتيته وتمزيقه[1]. لتضطلع الثقافة بالدور الذي كانت البيئة الحـــيوية (البيولوجـــية) تلعبه في تغيير الثقافات تاريخيا لأن هناك خطورة في تـــرك الـــثقافات تتمازج، بل يجب الإصرار على إبقاء ثقافات متخلفة وثقافات مـــتقدمة[2]، وهذه واحدة من المفارقات في إمبراطورية الفوضى للرأسمالية في تاريخهـــا المديـــد. يـــرى كارل بوبر أن(التصنيع في أوروبا وعلمها وفكرتها السياســـية عـــن الحـــرية أي كل جانب من تلك الجوانب الأساسية المميزة التي أدرجـــتها الحضارة الأوروبية هو نتيجة التفاؤلية الإبستمولوجية)، وهي لم تكن موجـــودة فـــي بلدان العالم المتخلف، وهي الصفات التي يعتقد أنها أهلت الثقافة الحديـــثة لـــتكون عالمـــية وكونية ومعيارية. بينما يقرر صموئيل هنتنجتون أن الفروق بين الحضارات فروق ثقافية معيارية، وفلسفية ودينية، صدامية وليست تحاوريـــة وهـــي صدوع ثقافية عميقة تتسع لتشكل هوات لا يمكن عبورها إلا بالمواجهات والحروب والصراعات الدامية والفوز فيها لمن يملك التكنولوجيات

---

(1) *راجع الدكتور أحمد زايد بحث في مجلة عالم الفكر عدد يوليو -سبتمبر مجلد-42 -2003 حول ثقافة العولمة*

(2) *باليبار البنك الدولي مرجع سابق.*

الأحـــدث والأرقـــى والعلـــم الحديث والاقتصاد الرأسمالي المتطور، وهي هنا الولايات المتحدة الأمريكية وحليفاتها.

فـــي حيـــن اعتبر إلياس مرقص وياسين الحافظ وعبد الله العروي التبعية الثقافية مسألة يجب بحثها من منظور تأسيس فكر قومي نهضوي عربي حديث يجمـــع بيـــن الليبرالية والعقلانية والماركسية التاريخانية ، لتكوين وعي عربي مطـــابق يمكنـــنا مـــن معرفة واقعنا علمياً وموضوعياً ، ويخلصنا من الأوهام الأيديولوجـــية التي تربك فهمنا عن التبعية وموضوعاتها وكيفية مواجهتها. (إن مـــنهج العلـــم منهج المناقشة النقدية هو الذي يجعل من الممكن لنا أن نعلو ليس فقط على أطرنا المكتسبة من الثقافة بل أيضاً على أطرنا الفطرية) (1). و لهذا نجـــرؤ علـــى القول بأن نقد ثقافتنا التي نظل نفتخر بها و نعتبرها كاملة وقمة التماهـــي مع هوية الأمة ليحتم علينا أن نضعها في مكانها الحقيقي كثقافة تابعة تـــتغذى من منتجات ثقافة العولمة وتقتبس منها دون أن تكون قادرة على تمثلها وإعادة إنتاجها كثقافة عربية.

4- قيود التبعية على الانتشار الرأسمالي في العالم المتخلف:

لـــم يضع التاريخ في جدول أعماله مسألة التوسع المتجانس للرأسمالية. بل علـــى العكـــس أدى إلـــى تعمـــيق الاستقطاب العالمي فالتوسع لم يلغ الأشكال الاجتماعـــية الســـابقة في الأطراف بل أدى إلى تكييفها وإخضاعها لاحتياجات الـــتراكم الرأسمالي في المراكز المسيطرة، وبذلك وضعت الرأسمالية في جدول الأعمـــال ثورة أخرى غير الثورة الاشتراكية العمالية العالمية هي ثورة شعوب أطـــراف النظام ولا أقول بروليتارياه[2]. وقد فرض هذا الاتجاه التاريخي نفسه عـــبر الحـــروب والغزوات التي شنتها الدول الرأسمالية على بلدان الأطراف، وأجـــبرتها علـــى الامتـــثال لمصالحها، ومقتضيات النمو الرأسمالي فيها، وبما أوجـــدت مـــن قـــيود سياســـية واقتصـــادية على الاستثمارات فيها. هذه القيود مؤســـساتية واقتصـــادية ومجتمعية، وبنيوية، من جهة البلد التابع، أما من جهة البلدان المتقدمة فهي استراتيجية سياسية واقتصادية تفترضها شروط الإنتاج في أسلوب الإنتاج الرأسمالي. فإعادة الإنتاج موسعاً تفترض سوقاً واسعة لتصريف

---

(1) أسطورة الإطار -كارل بوبر ص87-كتاب عالم المعرفة -الكويت ترجمة د يمنى طريف الخولي

(2) سمير أمين نحو نظرية للثقافة ص-125.

المنتجات، ومناطق تابعة غنية بالمواد الأولية الرخيصة والمواد المنجمية سهلة الاستثمار ويد عاملة رخيصة وبالتالي فائض مواد غذائية رخيص، وهذا يستدعي تقسيماً للعمل على مستوى عالمي تكون فيه البلدان المتخلفة التابعة متخصصة بإنتاج مستلزمات الإنتاج الأولية والمواد الغذائية، كي تستمر البلدان المتقدمة متخصصة بإنتاج السلع المصنعة والتكنولوجيات الحديثة والثورة العلمية ، والتراكم الرأسمالي اللازم لإعادة الإنتاج وتوسيعه وتطويره وتحديثه.
إن التعبير الأكثر استخداماً للإشارة إلى الاقتصاديات المختلفة المرتفعة النمو في شرق آسيا وأمريكا اللاتينية هو الدول الحديثة التصنيع أو (NICs) وقد جرت صياغة هذا التعبير من قبل الدول الرأسمالية المتقدمة في منتصف السبعينات من القرن العشرين، حيث كانت هذه الدول مهتمة بكون عدد من الدول النامية توسع حصتها في الإنتاج وتصدير السلع المصنعة بشكل ملحوظ(تشمل الدول حديثة التصنيع كوريا الجنوبية وتايوان وهونكونغ وسنغافورة والبرازيل والمكسيك وإسبانيا والبرتغال واليونان. . . . وجاءت نظريات واستراتيجيات التنمية في دول العالم الثالث انطلاقاً من هذه الوقائع، وأشارت إلى نجاح استراتيجية التنمية الموجهة إلى الخارج التي كانت السبب في أداء اقتصادي جيد بخصوص التصدير والنمو والتوظيف في هذه الدول وعليه فعلى الدول الصناعية الجديدة لشرق آسيا القيام بدور النموذج الذي يجب أن يحتذيه العالم النامي، مع التأكيد على دور العوامل الثقافية[1]

يجادل منظرو الليبرالية الاقتصادية بأن التخلف لم يكن ناجماً عن عدم المساواة المرتبط بالرأسمالية، وإنما بالأحرى عن الدرجة غير الكافية من الرأسمالية التي طبقت في بلدان العالم الثالث في الماضي. فالعودة إلى القطاع الخاص وحرية التجارة أصبحا التعبيرين السائدين في الاقتصاد الجديد في هذه البلدان. إن نظرية التحديث كما عرضها ماكس فيبر و دوركهايم تضع التطور الصناعي كعامل رئيس في إنتاج ترسيمة متماسكة من النمو سوف تنتج على الأمد القصير بعض البنى الاجتماعية والسياسية، التي تشكل قاعدة للتطور الرأسمالي الليبرالي السريع النمو. ويرى هؤلاء أن الإنجاز التكنولوجي لدولة ما سيقاس بمدى استثمارها في دمج وتطبيق التكنولوجيات الحديثة والمتوافرة عالمياً سواء تم الحصول على هذه التكنولوجيا من خلال الأبحاث الأساسية

---

[1] *من الحداثة إلى التنمية مرجع سابق ج-2-ص 80-81 جار جيريفي*

للدولـــة أو من الدولة الرائدة في مجال التكنولوجيات، وسيؤدي تدفق قوة عقول التكنولوجـــيات المتقدمة في الاتجاهين من الدول النامية والغرب ، وتعاظم حجم القـــوة العاملة التي تجيد التعامل مع الحواسيب وتكنولوجيا المعلومات في بعض الـــدول النامية وجهود الشركات العالمية لتنويع عملياتها في مجال التكنولوجيات المتقدمة إلى تعزيز انتشار التكنولوجيات الجديدة[1]

بيـــنما جادلـــت المدرسة الاقتصادية الماركسية الفرنسية ومن أبرز ممثليها شارل بتلهايم، بأن التبعية في العلاقات الاقتصادية الدولية هي نتيجة للاستعمار الأوروبـــي والانتشار الرأسمالي، وقد نشأت في لحظة تاريخية واحدة مع نشأة وتطور التقدم الرأسمالي في مراكزه الرئيسة في أوروبا الغربية، أي أن التبعية هـــي مـــن مظاهـــر قـــانون النمو المتفاوت والتبادل غير المتكافئ بين الدول الاســـتعمارية ومســـتعمراتها وأشـــباهها، بين أسلوب الإنتاج الرأسمالي وأنماط الإنـــتاج القديمـــة الإقطاعـــية ما قبل الرأسمالية، الذي كرس هذه العلاقة غير المتكافـــئة بجعل الإنتاج في هذه البلاد تلبية لحاجات وطلبات الدولة المستعمرة ووفـــق سياســـاتها المخططـــة؛ تصدر إليها السلع المصنعة وتغرقها ببضائعها الرخيصة الثمن نسبياً كي تدمر قدراتها الإنتاجية الموروثة وتستورد منها المواد الأولـــية والخام الزراعية والمعدنية اللازمة لمصانعها، فتمنع تراكم رأس المال الضـــروري لإقامـــة صـــناعة مشابهة فيها، فتجبرها عن طريق سياسة الباب المفـــتوح وحـــرية الـــتجارة علـــى فـــتح أسواقها وتخفيض الرسوم الجمركية والضـــرائب علـــى وارداتهـــا مـــن السوق العالمية، وإعفاء منتجاتها المصنعة والمصـــدرة إلـــيها من كل الرسوم. بينما تقوم هي بفرض الضرائب والرسوم العالية على وارداتها منها. وتغرقها بالبضائع من كل الأصناف. وتضع ما تشاء مـــن العقبات المالية والتكنولوجية والإدارية بالإضافة إلى الاقتصادية والسياسية والعســـكرية، لتحول دون قيام صناعات بديلة، وتعرقل النمو الاقتصادي الذاتي وإمكانـــية الـــتحول إلـــى الرأسمالية ، كأسلوب إنتاج ونمط ثقافة وثورة علمية وسياســـية. ولـــتفرض علـــيها نمواً مشوهاً وتابعاً، فهي لا تسمح أو تجعل من العســـير حصـــول تـــراكم رأسمالي ضروري للتنمية بسبب السياسات السعرية للمـــواد الأولية وبدائل المستوردات التي تفرضها السوق العالمية وهي منتجات

---

[1] *تقريـــر الاســـتخبارات القومـــي الأمريكي رسم مستقبل العالم لعام 2005م.ترجمة وإعداد جريدة الخليج الإماراتية-2005/1/21*

بلـــدان العـــالم الثالـــث. مما يؤدي إلى انخفاض مستمر في أثمانها بينما يقابلها ارتفـــاع متواصـــل في أسعار المنتجات المصنعة في بلدان المركز الرأسمالي، يضاف إلى ذلك سياسات نهب الثروات والأدمغة والرساميل الوطنية مما يحبط المحاولات الجادة لحصول التراكم الضروري والذي لا بد منه لأية تنمية وطنية مستقلة. ونظراً لأن سياسات الدول الإمبريالية كانت تعارض خلق قوى إنتاجية جديـــدة إلا تلـــك التـــي تساهم في إنتاج ما تحتاج إليه من مواد أولية صناعية وزراعـــية، فقد اتخذ الاقتصاد الحديث هنا شكلاً تجارياً وهذا ما ساهم في جعله اقتصاد خدمات، وأضاف عقبات جديدة أمام تحوله إلى اقتصاد صناعي إنتاجي وحديـــث. تقـــوم الـــدول الصـــناعية الجديدة في إطار التقسيم الجديد للعمل في الاقتصـــاد العالمي، في إطار أربعة أدوار وكلها تكرس التبعية:1-دور تصدير الســلع2-دور منصـــة التصدير3- دور التعاقد على المواصفات4- دور مورد المكونـــات، فالمركز يسيطر على مراحل إنتاج وتصدير وتسويق سلاسل السلع للبضائع الاستهلاكية، والمساهمة الرئيسة لبلدان المحيط هي العمالة الرخيصة[1]

وقد رأى الدكتور سمير أمين أن الاحتكارات الخمسة مجتمعة وهي احتكار التكنولوجـــيات والاحـــتكارات العاملة في مجال التدفقات المالية و الاحتكارات العاملة في مجال الحصول على الموارد الطبيعية والاحتكارات العاملة في مجال الإعـــلام و الاتصـــالات وأخـــيراً الاحتكارات العاملة في مجال أسلحة الدمار الشـــامل تحدد الإطار الذي يعمل به قانون القيمة للعولمة نفسه وبعيداً عن كونه تعبـــيراً عـــن عقلانـــية اقتصـــادية(تقـــية)يمكن فصلها عن الإطار الاجتماعي والسياسي. قانون القيمة هو تعبير مكثف عن مجمل هذه الشروط، وتحديداً هي التي تعطل إبعاد تصنيع الأطراف وتبخس العمل المشيّء في منتجاتها في حين تـبالغ فـــي تثميـــن ما يسمى بالقيمة المضافة المرتبطة بنشاطات الاحتكارات الجديـــدة لمصـــلحة المراكـــز وهي بذلك تنتج تراتبية جديدة وتخضع صناعات الأطراف إلى نشاطات من الدرجة الثانية[2])

---

[1] *مـــن الحداثـــة إلـــى العولمـــة مـــرجع ســـابق ص-106-107 (نشير هنا إلى الاتفاقيات المســـماة(بالكويتز)التي وقعتها مصر مع الولايات المتحدة الأمريكية ودولة الصهاينة في فلســـطين لصـــناعة وتصدير سلسلة من السلع إلى الأسواق الأمريكية، وكان الأردن قد وقـــع اتفاقـــيات مماثلـــة مـــن قـــبل، وهدف مثل هذه الاتفاقيات سياسي لجعل التطبيع الاقتصادي مع العدو الصهيوني حقيقة ملموسة.*

[2] *الاقتصاد السياسي للتنمية مرجع سابق 96*

لقد كانت التبعية في الأساس ذات طبيعة سياسية فأدت إلى أشكال مستديمة من التبعية الاقتصادية[1]. وظل الشطر الهام من المؤسسات الصناعية والتعدينية والمستغلات التجارية والزراعية ملكاً لأشخاص أو شركات أجنبية تنظم الإنتاج حسب مصلحة السوق في البلدان المتقدمة وأصبحت تبعية مزمنة يستمد الاقتصاد الحديث فيها أصوله وتوجهاته ووسائله المالية والتقنية وإطاراته ومجالات تسويقه من الأقطار المتقدمة . مما أدى إلى عسر دائم في إمكانية تطور مستقل وتنمية ذات آفاق وطنية ونمو ذاتي حافز خارج إطار النموذج الرأسمالي وقوانين التبعية المفروضة.

تحدث إنجلز في إحدى رسائله عن أسلوب الإنتاج الكولونيالي عند حديثه عن التمايز بين أسلوب الإنتاج الرأسمالي في البلدان المستعمرة، وأسلوب الإنتاج في المستعمرات، ووصف بيير جاروس باتاهي أسلوب الإنتاج الكولونيالي، بأن له منطقاً تراجعياً للتراكم، بسبب التخلف، وتطويراً تأخرياً للعلاقات الإنتاجية الرأسمالية في الزراعة، وبنية صناعية متخلفة وأحادية الجانب، وتتركز الصادرات فيه على محاصيل زراعية كما أن الطبقات الاجتماعية غير متبلورة فيه. فالبروليتاريا بطيئة التطور، مع غياب طبقة رأسمالية فاعلة، بينما تنمو البرجوازية الصغيرة وطبقة الفلاحين، وتبرز الدولة كجهاز توحيدي أوجده الاستعمار . وواضح هنا أن الكولونيالية هي علاقة سيطرة وهيمنة وتبعية، وقد أعادت تشكيل الجغرافيا والتاريخ والجماعات و الاقتصاد والثقافة لخدمة مصالحها كاستعمار وإمبريالية وبما يكرس هذه العلاقة ويعيد إنتاجها ، ويعيق أية محاولة للانتشار الرأسمالي المؤسس لتنمية مستقلة تخدم حاجات الناس والاقتصاد في هذه البلاد، أو تتيح نمواً ذاتياً منتجاً ومتجدداً ومتوسعاً، خارج إطار علاقات السوق الرأسمالية التي تحددها علاقات الاستعمار و الإمبريالية.

وبما أن جميع الحروب أيديولوجية أي ثقافية تخترقها سلطة الأفكار والتكنولوجيات وبالتالي وسائل الإنتاج . ولكي تتمكن البلدان المتأخرة من السير على طريق التقدم الاجتماعي والتطور الاقتصادي لابد لها من تغيير كامل في الإطار السياسي والفكري والثقافي الذي تعيش ضمنه ، فيجب تحطيم التحالف القائم بين البيروقراطية الحاكمة والبرجوازية الكومبرادورية الطفيلية وبين الفكر التقليدي وثقافة السلطة ونسف مرتكزات الدولة الأمنية كواقع وإيديولوجيا.

---

[1] *إيف لاكوست جغرافية التخلف دار الحقيقة بيروت 1970م*

ولأن المتمسكين بالماضي لا يستطيعون بناء الغد وكذلك منتجي أفكار السلطة الشمولية فقد آن الأوان لتوفير الفرص الملائمة لكي تضطلع العناصر التقدمية والديموقراطية والليبرالية النشطة بقيادة بلدانها باتجاه النمو الاقتصادي والاجتماعي، مع التركيز على ضرورة بناء طبقة وسطى قادرة عددياً ومكانة على قيادة هذا التحول. فالطبقات الوسطى القليلة العدد في معظم البلدان المتخلفة ظلت عاجزة عن إنشاء مؤسسات المجتمع المدني اللازمة لحمل أعباء النمو الاقتصادي والثورة الثقافية والسياسية المصاحبة. فالتخلف الموروث وفقر البلاد والوقوع في براثن الإمبريالية والاستعمار لم يتح لها تجميع القوى والوسائل والرساميل الضرورية لتحقيق ذلك الهدف الموضوعي ، كما أنه لم يوفر لها ما يلزم من عمق الفكر والرؤيا والثقة بالنفس لقيادة المجتمع في هذا الاتجاه، فهي وقد عاشت في ظل قرون من الحكم الإقطاعي و البيروقراطي وخضعت لقوانين الرأسمالية الاستعمارية والاحتلال العسكري المباشر لوطنها فقد اعتادت على اعتناق قيم الطبقات المسيطرة سياسية كانت أم أخلاقية أم ثقافية. بينما لعبت الطبقات الوسطى في البلدان التي أحرزت التقدم في وقت مبكر مثل بريطانيا وفرنسا دوراً متميزاً في إفراز نظرة عقلانية جديدة شاملة للعالم. واجهت بها ضبابية القرون الوسطى المرتبطة بالعصر الإقطاعي.

في حين لم تستطع البرجوازية الضعيفة والفتية في بلدان العالم المتخلف أن تطمح إلى لعب هذا الدور وجل ما أنجزته هو اعتراف الدولة القائمة بها وبمصالحها الاقتصادية، ولأنها قامت في مجتمعات تقوم على الامتيازات فقد عملت لنيل حصتها من هذه الامتيازات المتوفرة، فعقدت الصفقات السياسية والاقتصادية مع الأسياد الإقطاعيين المحليين أو مع الرأسماليين الأجانب الأقوياء في السوق العالمية والوطنية. فانصب تطور الصناعة والتجارة في المائة سنة الأخيرة في المناطق المتخلفة في قالب الاحتكارات العائلية بمشاركة الحكام البيروقراطيين، فكانت النتيجة مزيجاً من الاقتصاد والسياسة جمع أسوأ سمات كلا العالمين الرأسمالي والإقطاعي الاستبدادي العسكري الاستهلاكي، مما عرقل نجاح جميع إمكانيات النمو الاقتصادي[1] . وبتحالف الطبقات الكومبرادورية مع سائر فصائل الطبقات الحاكمة أخذت تتخلى عن مواقعها

---

[1] بول ماران وإيف لاكوست الاقتصاد السياسي للتخلف وأسباب التخلف ترجمة دار الطليعة بيروت .

الاستراتيجية الواحد بعد الآخر ولخوفها من الحركة الشعبية الديموقراطية تخلت عــن أفقهــا التقدمي بصدد القضايا الرئيسية. ولخوفها ونزاعها مع رجال الدين والعســكر كــي لا تضعف سلطة الحكومة السياسية مما سيهدد مصالحها تخلت عــن جميع الاتجاهات الليبرالية ولخوف الرأسماليين المحليين أن يؤدي عداؤهم للمصــالح الأجنبية إلى حرمانهم من الدعم الأجنبي في حال نشوء وضع ثوري تخلوا عن اتجاهاتهم المعادية للإمبريالية[1].

إن الطــبقة الوسطى-البرجوازية الصناعية تحديداً وبما أنها تعمل في حقل التكنولوجيات الحديثة والعلم التطبيقي على المواد الطبيعية والأولية لتحويلها إلى سـلع ومنــتجات أي خلــق قيم جديدة وتغيير طبيعة هذه العناصر إلى حاجات وموضوعات وسيطة أو نهائية لاستخدامات الناس وتطوير حياتهم بقصد الربح وتعظــيم الــثروة، فلذلك نعتبرها طبقة مجددة قادرة على إنشاء منظمات مدنية موازيــة لمؤسســات الدولة، بل ومنافسة لها ، مما يؤدي إلى قيام مجتمع مدني مــواز للمجــتمع السياســي الذي تشكله الدولة. بينما الطبقة الكومبرادورية – التجارية– هي في الجوهر طبقة مقاولة تقوم بتوزيع القيم التي ينتجها غيرها إمّا داخــل الســوق المحلــية أو في الأسواق الخارجية ، تجيد التفاوض والمساومة والانــتقال بيــن الــدول، والمجتمعات. تعتمد على حرية الانتقال وعلى مرونة العــرض والطلــب فــي إطار الدول القائمة وفي تغلغلها في عروق هذه الدول تــتغذى وتزيد من نفوذها وجاهها ، فهي ليست بحاجة إلى منظمات حديثة ولا إلــى سياســات خاصة، ولذلك فهي ليست ثورية في إطار المجتمعات التابعة، وتصطف بشكل تام إلى جانب القوى المحافظة . وبما أنها هي الأكثر عدداً في المجــتمعات الــتابعة فهي تتحمل جزءاً من مسؤولية استمرار التبعية التي بها وعن طريقها تظل في موقع الهيمنة والتأثير على مجمل الحياة السياسية بوسائط مختلفة.

5-آليات عمل ومفاعيل التبعية على الأمم والشعوب التابعة:

التبعية وفي إطار النظام العالمي الجديد، الذي تقوده الدولة العظمى الوحيدة علــى طــريق استكمال تأسيس إمبراطوريتها، تخلق ضغوطاً مكثفة على الأمم والشــعوب والدول المستضعفة والمتخلفة عن الحداثة، بما يزيد و يفاقم الخلخلة

---

[1] *نفس المرجع السابق*

الثقافية، وتمزيق النسيج الاجتماعي والقومي والسياسي، ويجعل من تفاوت النمو بيـن الطـبقات والشرائح الاجتماعية والاقتصادية مجالاً للصراع والتجاذب مع وضـد الخـارج المتـبوع. لتتشـظى الأمة إلى جماعات أدنى عرقية وطائفية وعشـائرية، بحسب كثافة هذه الضغوط. ويتعلق الأمر هنا بالموقع الجغرافي و الثروات المنجمية والطبيعية اللازمة لاقتصاد الإمبراطورية وحلفائها، وبطبيعة وحجـم الإنـتاج الزراعـي و الصـناعي الحالي والمستقبلي الممكن للتصدير والتـبادل، وكذلك بالأهمية الاستراتيجية والقدرة على تشكيل مركز قوة منافس للإمـبراطورية. ممـا يخلـق فجوات تتسع باستمرار مع تجذر التبعية وزيادة مفاعيلها على التشكيلة الاجتماعية-الاقتصادية حديثة التكوين، وتفاقم الصراعات الاجتماعـية والعرقـية والثقافية بين الطبقات والأعراق الداخلة في صلب هذه التشكيلة التابعة، بين طبقة الكومبرادور والنخب السياسية والثقافية المتغربة التي تـرى مسـتقبلها و مصالحها بالدخول في العولمة بدون تحفظات أو شروط، والتـي تـبادر إلـى العمل في هذا الاتجاه ولمصلحة العلاقات المشتركة التي تعتـبرها اسـتراتيجية مع الشركات والهيئات والمؤسسات والطبقات المسيطرة اقتصـادياً وسياسـياً على الدولة الإمبراطورية وحلفائها العالميين، وبين طبقات ونخـب وطنية تضررت مصالحها من العولمة والتبعية بسبب البطالة ومنافسة السـلع المسـتوردة ونهـب ثروات الوطن من قبل أولئك الذين يعملون كحلفاء ووكـلاء للشـركات متعددة الجنسيات في السوق الوطنية. وقد تندلع الحروب الأهلـية بيـن الأطراف المتصارعة على خلفية الأزمة الاقتصادية المزمنة مما يشـجع الجـيش علـى الـتدخل لحسـم الموقـف وفرض السلم الداخلي ووأد الديموقراطـية الولـيدة. فالعولمة بحسب مركز الاستخبارات القومي الأمريكي (nic) تتسم بالتقلبات المالية المزمنة والفجوات الاقتصادية المتسعة وتعني نمواً أكـثر بطـئاً مـع وصول ثمار العولمة الليبرالية الجديدة إلى من يتبع القواعد المقـررة، وإيقاعهـا الأذى بالفقـراء فـي الغالب، وتعمق الركود الاقتصادي والاضـطراب السياسـي والاغـتراب الثقافـي ممـا يغذي التطرف الإثني و الأيديولوجـي والدينـي إلـى جانـب العنف الذي غالباً ما يلازمه)[1]. فيتعزز الصـراع الداخلي ويتوطد ويطرد إلى صراع تناحري وتناقض غير قابل للحل

---

[1] *نعوم تشومسكي -الهيمنة أم البقاء السعي الأمريكي إلى السيطرة على العالم ترجمة سامي الكعكي ص247 -دار الكتاب العربي 2004م.*

بالوسائل السلمية بعد انحياز الدولة القطرية الشمولية إلى جانب المطالبين بالخضوع الكامل لسياسات ومطالب الإمبراطورية ، تحت وطأة الإكراهات الاقتصادية والسياسية والثقافية والهيمنة الأيديولوجية، ومصالحها كدولة وطغمة تهمها امتيازاتها والحفاظ على احتكارها للدولة، مما يهدد الوحدة القومية والوطنية ويسرع في تفجير الدولة وتحويلها أو انقسامها إلى دويلات للأقليات العرقية والطائفية أو الأكثرية تحميها حراب الجنود الأجانب برعاية الأمم المتحدة أو الدولة الإمبراطورية الأمريكية بدون سيادة(حال يوغوسلافيا- الكونغو -سيراليون- وليبيريا -والسودان -والعراق) لتستخدمها هذه الإمبراطورية كذرائع في استراتيجيتها الكونية للهيمنة والإلحاق والتبعية.

وهكذا لا ينمو العالم نمواً يحرز الالتئام أو التلاحم بل التناحر والتنافر، في إطار الإمبراطورية التي تتجسد في مؤسسات وهيئات وشركات اقتصادية وإدارية وعسكرية وسياسية وفي ثقافة وأيديولوجيا تتضافر جميعها لبلوغ أهدافها الكونية المضمرة في بنيتها كنظام رأسمالي يجمع في بنيته المتناقضات ويعيد توحيدها بما يخدم مصالحه، حتى تصل إلى الدرجة التي لا يمكن تجاوزها إلا بتدمير النظام ذاته (فهناك أربعون ألف شركة أممية من كل الأحجام تبتز العامل بالعامل الآخر والدولة بالدولة الأخرى ، الخمس منها يتمتع بالثروة والأربعة أخماس من الفقراء). ومن جراء هذه التطورات فقد مارست الإمبراطورية ضغوطاً هائلة لفتح الحدود في إطار اتفاقية التجارة الدولية(الغات G-A-t)[1]، وخارجها فجرى التخلي عن الرقابة الحدودية على تنقل رؤوس الأموال والتهرب من الضرائب، فصارت الدول وحكوماتها عرضة للابتزاز بالإضافة، إلى ضغوط المؤسسات الدولية المالية (البنك الدولي وصندوق النقد الدولي)التي أمرت بتخفيض الضرائب على الثروات والاستثمارات و خصخصة كل الخدمات المالية ، وبتخفيض الإنفاق الحكومي على الخدمات والرعاية الاجتماعية للدخول في حلف خداع، فأصبح حجم الاستثمارات المالية لا يتوقف على حجم المدخرات الوطنية بل على حجم المتاح من المدخرات على المستوى

---

[1] حددت منظمة التجارة العالمية لنفسها هدفاً هو إعادة تنظيم كل جوانب الإنتاج المحلي في الدول المختلفة، وإخضاع حياتها الاجتماعية والسياسية والثقافية لمقتضيات دخول الرأسمال العولمي المسيطر إليها، ومنع أية محاولة من جانب الدولة لضبط نشاط هذا الرأسمال.إن منظمة التجارة العالمية تستحق صفة" وزارة المستعمرات " في العهد الإمبريالي.ما بعد الرأسمالية المتهالكة -مرجع سابق سمير أمين

العالمي والقروض الأجنبية، فحيثما يعولم رأس المال ينضم أصحاب الثروة من أبناء البلد إلى قائمة المقيّمين للسياسة في بلدهم)[1]، وتصب جميع هذه السياسات في طاحون التبعية لترسيخها وفرضها ورعايتها، من أجل توطيد الروابط والعلاقات التي تنتجها وتعيد إنتاجها، وبما يمكن الدول الإمبريالية من التدخل السياسي والعسكري في شؤونها لتصحيح الاتجاهات الخطرة وتقويم الأخطاء وإجبار العصاة على العودة إلى القواعد المفروضة، لتكون وسائط للتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان التابعة. ونتيجة لهذه الإملاءات تصبح الأيديولوجية القومية التوحيدية خطاباً من الماضي وتاريخاً يعيق الانتقال إلى ما بعد الحداثة أي ما بعد الإمبريالية، لأنها تتضمن في جوهرها مواجهة التبعية والتفتيت والتجزئة، واستراتيجية التأهيل وإعادة تشكيل العالم التابع سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً، يجب محاربتها وكنسها من العقول ومن الثقافات القومية لتحل محلها ثقافة العولمة عديمة القومية.

إن وجود مركز قيادي مؤهل اقتصادياً ومالياً وعلمياً وثقافياً وعسكرياً هو ضرورة كامنة في جوهر الرأسمالية كنظام إنتاج ، وهو أساس عقلاني ومادي لإنجاز الطور الأخير من الانتشار والتفتح الرأسمالي في العالم أجمع وتتطلبه المرحلة الراهنة لتدويل رأس المال الذي نضجت وتراكمت خبراته إلى الحدود القصوى حيث وصل إلى القمة، وبخاصة بعد الانتصار على الاشتراكية النظام البديل والمنافس والإنساني، كما جاء في فلسفة ماركس وإنجلز، وحاول لينين جعله ملموساً في دولة الاتحاد السوفييتي التي تأسست في روسيا بعد الثورة البلشفية 1917م.

وقد تبوأت الولايات المتحدة الأمريكية هذا المركز بجدارة لتقود الرأسمالية في مرحلة الانتقال التي لاحت بوادرها إلى نظام جديد نلمس أشكاله الجنينية في التحولات التي طرأت على مفاهيم النقد والرأسمال و الأسواق والسلع والتشكيلات الاقتصادية-الاجتماعية الحديثة التي غلبت عليها القيم المعنوية والتداولية متخلية عن قيمها الاستعمالية والمادية الصلبة التي كانت لها، وليصبح ثالوثها المقدس- التكنولوجيا والعلم والإدارة-، وبخاصة بعد ثورة الاتصالات والمعلوماتية، وغزو الفضاء واكتشاف الشفرة الوراثية، وتفكيك المادة إلى

---

[1] فخ العولمة 115-126- عالم المعرفة- هانس بيترمارتين – هارالد شومان ترجمة د عدنان عباس علي مراجعة وتقديم رمزي زكي –عالم المعرفة الكويت.

أصـــغر جزيـــئاتها، وقيام الدولة الإمبراطورية الأمريكية كتشكيلة اقتصادية – اجتماعية تتشابه في الكثير من الملامح مع الإمبراطورية الرومانية القديمة، مع الفـــارق البعـــيد والواســـع جـــداً بين العصريين التاريخيين؛ إذ لا يمكن مقارنة الحدثين إلا من ناحية المظهر العام. وكان هذا ما تحتاجه الرأسمالية في المرحلة الراهنة من تطورها، فلن تتقدم العولمة إلا إذا تصرفت الولايات المتحدة بالقدرة العلـــيا التي اكتسبتها كقوة عظمى، فلا يمكن أن يزدهر ماكدونالد من دون ماك دونـــال دوغـــلاس[1]. وتملك الولايات المتحدة أكبر اقتصاد في العالم فهي تنتج 30% مـــن الإنـــتاج العالمي في حين لا يتجاوز عدد سكانها ال5% من سكان العالم. لقد صنف صموئيل هنتنجتون الدول في علاقتها بالولايات المتحدة حسب المعايير التي رأى أنها تخدم المصالح الأساسية للإمبراطورية الأمريكية: 1-هذه المعايـــير التي تتعلق كما يدعي بحقوق الإنسان والمخدرات والإرهاب والقضايا العســـكرية والحريات الدينية، وأوصى بتطبيق العقوبات على الدول التي تمتنع عـــن تحقـــيق هذه الأمور. 2-تشجيع المصالح الأمريكية التجارية تحت شعار حـــرية الـــتجارة والأســـواق المفتوحة. وقد جاء في استراتيجية الأمن القومي الأمريكي لعام2002م(التركيز على ضمان الوصول الحر إلى الأسواق الرئيسة ومصادر الطاقة والموارد الاستراتيجية.

تعني استراتيجية الهيمنة والتبعية إدارة اقتصاد العالم عبر الشركات متعددة الجنســـيات الأمريكـــية، أي إدارة الأزمة التي دخلت فيها الرأسمالية منذ القرن العشرين لإيجاد منافذ لفائض الأموال والتوظيفات، إدارة اقتصادية تهدف لإلغاء الضـــوابط وتحريـــر الأســـعار والأجور وتقليص الإنفاق العام، والتخصيص، وتحرير العلاقات مع الخارج[2]. إن استراتيجيات التنمية المفروضة على العالم الثالث من الدول الغربية والمطبقة من قبل المؤسسات الاقتصادية الدولية أو من قـــبل الدول والشركات الكبرى ذاتها، لها آثار كبيرة في حياة السكان المعنيين. يبيـــن ســـجل التطبـــيق بوضوح أن السياسات التي دعت إليها أو نفذتها الدول الغربـــية وما رافقها من كلام رنان مغرور إنما كانت تسترشد بالمصالح الذاتية

---

[1] تومـــا س فـــريد ما ن الصحفي الأمريكي المشهور نقلاً عن سمير أمين المرجع السابق، والمعـــنى واضح فلن تزدهر وتنتشر مطاعم ماكدونالد الشهيرة إلا إذا أنتجت مصانع ماك دوغلاس العسكرية –طائرات ف 15.

[2] راجع سمير أمين المرجع السابق

الخاصـــة بأصحاب الحل والربط، وليس بـي فهم رصين لاقتصادات التنمية أو اهتمام جدي بالأثر الإنساني الناجم عن تلك القرارات. إن المنافع المادية التي قد تصيب الآخرين هي منافع عرضية إلى حد كبير شأنها شأن الكوارث التي تنشأ عـــادة[1]. لقـــد أوضحت إحدى الدراسات الجيدة وبإسهاب العلاقة بين نظريات التنمـــية والتحديـــث التي أنتجت في الولايات المتحدة الأمريكية في الخمسينات والستينات من القرن الماضي وبين اهتمامات السياسة الخارجية الأمريكية بدول العـــالم الثالـــث ومواجهة الاتحاد السوفييتي في فترة الحرب الباردة، وتوضحت هـــذه العلاقة بشكل خاص في دراسات وتقارير الدول النامية التي أعدها أساتذة العلـــوم الاجتماعـــية وبخاصـــة العلـــوم السياســـية لصـــالح وزارتـــي الدفاع والخارجـــية... ففـــي بدايـــة الخمســـينات اهتمـــت الحكومة الأمريكية ضمن اســـتراتيجيتها فـــي الحـــرب الـــباردة بدراسة ظاهرة التنمية في الدول النامية واعـــتمدت بعـــض الأكاديميـــن للقيام بذلك وأهم النقاط الأساسية التي حظيت باهـــتمام السياســـة الخارجـــية 1-دراسة ظروف الدول النامية والمشاكل التي تواجهـــا وتحديـــد الأسباب التي تؤثر في استقرارها، ومن نقاط الاهتمام أيضاً دراسة أسس القروض والمساعدات الخارجية والظروف التي تؤدي إلى انتشار الاتجاهـــات اليســـارية فـــي هذه الدول ودراسة تأثير سيطرة العسكريين على السلطة ودورهم في قيادة التنمية ، وأهم من ذلك كله وضع نماذج للتنمية منبثقة مـــن الـــنموذج الأمريكي وصياغتها لتلائم الظروف الخاصة في البلدان النامية لمجابهـــة الـــتحدي الثوري الذي يمثله الفكر الماركسي، وكانت تهدف لإحباط الاتجاهـــات اليسارية. . . . . فعُقدت عدة اجتماعات أكاديمية في آسيا وأوروبا وأمـــريكا اللاتينـــية والولايـــات المـــتحدة ضمت عدداً من كتاب ومثقفي الدول النامـــية)[2]. وهـــذا ما تقوم به الإدارة الأمريكية في الوقت الراهن وفي مرحلة العولمـــة من خلال تمويل نشر تقارير التنمية البشرية العربية التي تصدر باسم الأمم المتحدة اعتباراً من عام 2002م ولغاية تقرير التنمية البشرية العربية رقم -3-لعـــام 2004م الـــذي تمانع في نشره لأنه يتعرض بالنقد لاحتلالها العراق وتحالفهـــا الاســـتراتيجي مـــع دولة الصهاينة المحتلة في فلسطين لقمع الشعب

---

[1] إعاقـــة الديموقراطية، الولايات المتحدة والديموقراطية-نعوم تشومسكي -ترجمة وإصدار مركز دراسات الوحدة العربية 1992م-ص283-284.

[2] مجلة العلوم الاجتماعية بجامعة الكويت1988م مجلد 17-عثمان ياسين الرواف

العربـــي الفلســطيني وحماية الاحتلال الصهيوني للأراضي العربية، واستغلال هــذه الــتقارير لدعــم استراتيجيتها بفرض أنماط معينة من الإصلاح السياسي والاقتصادي والثقافي على الأقطار العربية خدمة لاستراتيجيتها الكونية في بناء النظام العالمي الجديد.

إن هــذا الــنظام الجديد الذي بدأ بالظهور. لم تتضح كافة مكوناته بعد. قد يكون الاشتراكية ولكن ليس على شاكلة اشتراكية الاتحاد السوفيتي الذي انهارت دولــته 1991م، وقــد يكون نظاماً ليبرالياً منقحاً عن الرأسمالية ومتطوراً عنها ولــيس هــو الرأسمالية الأمريكية أو الأوروبية. ولكنه سيكرس التبعية في ظل الشــروط الراهنة التي عززتها الثورات العلمية والتكنولوجية التي قادتها الدول الرأســمالية واستغلتها لخدمة تفوقها وتقدمها. فصار على العالم التابع أن يكافح بكــل ضراوة ليس ليلحق بالمتقدمين بل ليخطو على طريق تضييق الفجوة التي تفصــله عــنهم وهــي واســعة وعمــيقة، وتباعد بينه وبين أهدافه تلك خمسة احتكارات جديدة هي 1-ميدان التكنولوجيا 2-الهيمنة على التدفقات المالية ذات المدى العالمي(عن طريق البنوك الكبرى وشركات التأمين وصناديق المعاشات) 3- الحصــول على موارد الكوكب الطبيعية4- حقل الاتصالات والإعلام 5- مــيدان أســلحة الدمار الشامل[1]. وهي الاحتكارات التي تحاصره وتحدد مدى الــتقدم المســموح له أن يحرزه، إنها قسمة جائرة، وعليه أن يكافح ليكسر هذه الحواجز ويتخطى تقسيم العمل الدولي الذي فرضته الإمبريالية عليه.

6-مفارقات في طبيعة المواجهة في ظل العولمة:

إن المواجهــة مع نظام العولمة والتبعية كلية من حيث الأهداف والغايات، ولا يمكــن أن تكــون غــير ذلــك، فقد أصبح العالم جميعه في قبضة علاقات وقوانيــن هــذا الإخطــبوط كلــي القدرة، فلم يبق جزء من الكرة الأرضية أو مــنظومة فكــرية أو ثقافية أو قطاع أهلي أو حكومي، وأساليب العيش والحياة والتصــرف وإدارة شــؤون المجــتمعات والدول من الدين حتى السياسة والعلم والتربــية والأخــلاق والسلوك والمثل العليا وأداء المهمات العامة والخاصة إلا وهــو داخــل في مجال التأثر والتلاؤم والتكيف معه، ومن الزراعة والصناعة والحــرفة والاقتصاد الكلي والجزئي إلى طرق التفكير ومناهج البحث المعرفي

---

(1) *المرجع السابق.*

إلا وهو في تبعية لذلك الآخر المتقدم والمهيمن، وعلى درجات متفاوتة من الانخراط في منظومة التبعية الشاملة. والكل ينمو ويتحول أو يزول في إطار قوانينه التي صارت كونية. ويعيد صياغة منطقاته وأهدافه وقواعده تبعاً للتطورات العلمية والتقنية الجارية فيه.

ولذلك فالمواجهة الشاملة والمتكاملة على جميع الأصعدة هي التي ستقرر نقطة الاختراق لهذه المنظومات من العلاقات المتشابكة في كل مجالات الحياة، وهذا لا يعني أبداً شن الحرب الشاملة على التبعية على طريقة أولئك المتمردين سواء كانوا أصوليين إسلاميين أو ماركسيين أو فوضويين الذين يعلنون الحرب ويقاتلون عدواً لا يعلمون الكثير عنه فينطحون رؤوسهم بدروعه الحصينة فيقتلون ويُقتلون ثم يُهزمون. وما هذا الطريق سوى محض أوهام وتغليب للتصورات الذاتية على العوامل الموضوعية التي تؤكد أن النظام الرأسمالي وطيد، وما زال يقوم بدور رئيس في تشكيل العالم المعاصر والحضارة العالمية، وحروبهم ليست إلا خربشات ستجرح كبرياءه وتجعله ينزف قليلاً، إلا أنها ستكون علامات مهمة على طريق الكفاح الطويل لتقويض هذا النظام غير الإنساني.

وما لم نتناول بالدراسة والتحليل موضوع التبعية لتكوين مفاهيم علمية عنها من أجل اكتشاف آليات وأساليب ومناهج وقوانين عملها وانتشارها وتمكنها على المستوى العالمي ثم على المستوى القومي والوطني في مقاربة مستمرة للإحاطة بحقائق الأحداث وتطورات النظام نفسه، فإن المواجهة معها ستكون خاسرة قبل أن تبدأ.

إن الخروج من التبعية ليس قراراً سياسياً تتخذه حكومة بلد ما في جلسة تاريخية بإرادة حرة للانسحاب من علاقات التبعية وشبكاتها الكثيفة المالية والاقتصادية والتجارية والسياسية وليس انغلاقاً وعزلة عن العالم. ومن يسلك هذا السبيل فسوف يجد نفسه غارقاً في التبعية بشكل أعمق وأكثر إحاطة، ومهزوماً ستطيح به عثراته وقراراته الخاطئة محاطاً بشبكة أشد تعقيداً مما كان يتوقع؛ لأن دائرة التبعية واسعة وما خفي منها أكبر مما هو ظاهر تحيط بقراراته السياسية والاقتصادية، التي إن جهل مداها وعلاقاتها وقوانينها العامة والخاصة فيتساقط من فشل إلى فشل، ليعود تابعاً وليذعن مكرهاً لما كان رفضه وتمرد عليه من قبل ، وذلك لأن الخروج من التبعية يعني الخروج من النظام العالمي بكل ارتباطاته واشتراطا ته، وأفكاره ومنتجاته وإبداعاته ومخترعاته

التـــي شـــكلت الحضارة الحديثة التي غيرت العالم والحياة الإنسانية بشكل كامل وكلـــي. وهذا غير ممكن في عالم تتقارب قاراته ومدنه وأريافه وثقافاته لتصبح كما يقول منظرو العولمة قرية كونية. تخضع لقوانين واحدة إنتاجية واستهلاكية ومالـــية، بـــل وسياسية تفرضها السوق العالمية ومجموعة الدول المتقدمة بقيادة دولـــة إمـــبراطورية تسـير أمورهـــا من أقصاها إلى أدناها في عصر وسائل الاتصـــالات الحديثة والسريعة و الإرسال عبر الأقمار الصناعية وأجهزة شبكة الإنترنـــت والهواتـــف المحمولة وعبر أسواق المال الدولية ، ويتلقى الجرعات الثقافـــية ذاتهـــا لجعلـــه موحـــد الـــذوق والقيم الاستهلاكية والمعايير الأخلاقية والاهـــتمامات والمشـــاغل الفكـــرية والفنـــية كـــي يصبح الإنسان مواطناً في إمبراطورية عالمية.

ولهذا أقول لا يمكن الخروج من نظام التبعية العالمي إلا بالدخول فيه بقوة والـــتغلغل فـــي أحشائه ومسامه ، في استيعاب تقنياته وثقافته وقوانينه واحتلال موقـــع ثابـــت والتمكـــن فـــيه، والسعي من خلاله للتأثير على مجرى الأحداث الاقتصـــادية والسياســـية بما يعزز هذا الموقع ويوسعه ويجعله في وضع يؤثر علـــى إعادة صياغة العلاقات المترابطة في بنية النظام ، لخدمة أهداف التحرر مـــن إســـار التبعية[1]. فإذا كانت الثورة في إطار الشروط الراهنة غير ممكنة لإحداث قطع حاد في بنية النظام بعد سقوط أول دولة اشتراكية، دولة السوفييت فـــي روســـيا1991م. فلا بد من البحث عن أساليب أخرى لشق طريق جديد ، وتقديمه أيديولوجياً وثقافياً واقتصادياً كبديل ممكن. يقول سمير أمين إن الخروج مـــن مـــأزق التبعية ممكن قطعاً وهذا يتطلب أكثر من مجرد كفاح على صعيد الفكـــر، إذ يتطلب أولاً وقبل كل شيء الخروج من المأزق في مجالات الحياة الاجتماعـــية والاقتصادية والسياسية. بل برأيي هو إن التحول في ميادين الحياة الاجتماعـــية هـــو العنصـــر الحاسم والمحرك الأول. فإذا تم التحرر في الحياة الاجتماعية كان انهيار الفكر الميتافيزيقي الذي أصبح فكر العجز والفقر[2].

كان الدكتور سمير أمين قد صاغ أطروحته حول الخروج من نظام التبعية قـــبل سقوط الاشتراكية السوفييتية. وقد تضمنتها كتبه العديدة وبخاصة (التطور

---

[1] الانخـــراط النشـــط في العولمة كما يقول سمير أمين خيار مختلف عن استراتيجية أولوية الصادرات)ما بعد الرأسمالية المتهالكة ص115 -دار الفارابي 2003

[2] نحو نظرية للثقافة -مرجع سابق ص139

اللامتكافئ)، وقال فيها بأن الخروج من التبعية لن يكون إلا بالقطع مع السوق العالمية عن طريق الثورة الاشتراكية والتنمية المتمحورة على الذات(وهي إخضاع الروابط الخارجية لمتطلبات التنمية الداخلية تحديداً ورفض التكيف مع الاتجاهات المسيطرة عالمياً. ووضع شروطاً: تفترض التنمية المتمحورة على الذات الإمساك بناصية شروط أساسية خمسة للتراكم1-السيطرة المحلية على إعادة إنتاج قوة العمل، ما يعني أولاً أن تؤمن سياسة الدولة تطوراً زراعياً قادراً على استخراج فائض تمويني كاف وبأسعار ملائمة لمقتضيات مردودية الرأسمال، وأن يكون الإنتاج ثانياً مواكباً لتوسع رأس المال وكتلة الأجر في آن معاً2- السيطرة المحلية على تمركز الفائض، وهذا لا يستوجب فقط وجوداً رسمياً لمؤسسات مالية وطنية بل استقلاليتها النسبية إزاء تدفق الرأسمال عابر القوميات؛ ما يضمن القدرة على توجيه التوظيفات بما يناسب عملية التنمية3- السيطرة المحلية على سوق مخصصة أساساً للإنتاج الوطني حتى في غياب حماية جمركية قوية أو سواها وقدرة السوق على المنافسة عالمياً على الأقل بصورة انتقائية 4- السيطرة المحلية على الثروات الطبيعية التي تفترض أبعد من الملكية الشكلية، أي قدرة الدولة القومية على استغلالها أو الاحتفاظ بها كاحتياطي. بهذا المعنى لا تملك الدول النفطية هذه القدرة لأنها ليست حرة في خيار استثمار هذه الثروة أو ادخارها- إذا شاءت إبقاءها بديلاً للملكية النقدية القابلة للمصادرة في أية لحظة. 5- وأخيراً السيطرة المحلية على التكنولوجيا يعني أنه يمكن إعادة إنتاج التكنولوجيا سريعاً حتى لو كانت مستوردة من دون الاضطرار إلى استيراد موصلاتها الأساسية، إلى ما لانهاية- قطع التبديل- المعدات- الخبرات. . . . ولكنه عاد وأقر في كتابه (الاقتصاد السياسي للتنمية) بأن التنمية الرأسمالية ممكنة في إطار العلاقات الدولية التي تفرضها السوق العالمية، وأن اللحاق ممكن بالدول المتقدمة على الرغم من نسبة التفاوت التي أصبحت 1إلى 60 بين التقدم والتأخر وذلك بالانخراط النشط في العولمة والإنتاج الموجه للتصدير ووضع العامل الثقافي القومي في موقعه كعامل مؤثر في هذه الحركة. وأضاف حداً لتعريف التنمية المتمحورة على الذات بأنها ديناميكية نمط التنمية الذي يعتمد على مفصل رئيسي هو ذلك الذي يقيم تبعية داخلية وثيقة بين نمو وسائل الإنتاج ونمو إنتاج وسائل الاستهلاك الجماهيري)،

و هــذا هــو تعــريف فك الارتباط[1] . إن استراتيجيات فك الارتباط هي الحل الواقعــي غــير الطوباوي ، بشرط أن ندرك تماماً أن عملية فك الارتباط هي عنوان الانطلاق في مرحلة طويلة، وليست حلاً فورياً وكذلك بشرط أن يفهم أن هــذا الخــيار مــن شــأنه أن يؤثر بدوره في الغرب نفسه أي بمعنى أن نكون صــابرين وقادريــن علــى إنمــاء رؤية طويلة تفوق في طول بصرها الرؤية السائدة[2] .

لقــد صــاغ ســمير أميــن هذا المفهوم قبل سقوط الاشتراكية في الاتحاد الســوفييتي فــي العقد الأخير من القرن الماضي كما ذكرنا في البداية، وعودة الرأسمالية بقوة إلى روسيا ومجموعة الدول التي كانت تشكل الاتحاد السوفييتي والمــنظومة الاشتراكية في أوروبا الشرقية. فهو من رواد مدرسة التبعية، وقد عــبر عــن وجهــة نظره هذه في كتابه التطور اللامتكافئ، ودرس قوانين هذا الــتطور فــي المركز والمحيط وبين أسباب عدم التكافؤ وكتب في مقدمة كتابه الطبقة والأمة في المرحلة الإمبريالية(أن ليس أمام المحيط إلا الخيار التالي إما تطور تابع وإما تطور متمحور على الذات وبالضرورة ذو أصالة خاصة تميزه عــن تطــور الــبلدان المــتقدمة الراهن)، ونلتقي من جديد هنا بقانون التطور اللامتكافــئ للحضــارات، إن المحيط لا يمكنه اللحاق بالنموذج الرأسمالي إنه مضطر لتجاوزه[3] .

وقــد توصــل إلى استنتاج يقول(إن مفهوم التنمية مفهوم نقدي للرأسمالية القائمــة فعلياً وأن هدف بناء نظام وطني متمركز على الذات هو هدف محوري

---

[1] والســؤال هنا من هو القادر على إخضاع الروابط الخارجية لمتطلبات التنمية الداخلية في ظــل العلاقــات الدولــية في المرحلة الراهنة التي تسيطر عليها دولة عظمى واحدة في استراتيجيتها منع أية دولة لا ترضى عنها أن تمتلك أية تكنولوجيا متقدمة، فإذا لم تكن من الحلفاء الذين يلتزمون باستراتيجيتها فلا سبيل أمامها لبلوغ هذا الهدف.واشتراطات سمير أميــن للــتعريف بفــك الارتباط والتنمية المتمحورة على الذات هي اشتراطات مستحيلة التحقيق في ظل العولمة وعسكرتها والتخلف والتبعية التي تعيش فيهما بلدان العالم الثالث حتى الصين نفسها بمساحتها الواسعة التي تزيد عن مساحة أوروبا وسكانها الذين يتجاوز عددهــم الملــيار نسمة غير قادرة على تلبية هذه الاشتراطات، وهي تخضع بصورة أو بأخرى لاستراتيجيات العولمة الرأسمالية.

[2] نحو نمط جديد للثقافة -دكتور سمير أمين ص-118.

[3] الطبقة والأمة في المرحلة الإمبريالية والتاريخ ترجمة هنرييت عبودي المقدمة ص6.

وأن استراتيجية تحقيقه هي فك الارتباط أي إخضاع العلاقات الخارجية لمتطلبات البناء الداخلي)[1]. وفي مرحلة لاحقة ركز على أهمية الثورة الثقافية لتشكيل مهد ثوري للتغيير الاشتراكي أي القطع المعرفي الفكري والعملي مع الرأسمالية كنظام إنتاج وثقافة.

في حين رأى مهدي عامل أن أسلوب الإنتاج الكولونيالي الذي أفرزته السوق الرأسمالية العالمية ونظام الإنتاج الرأسمالي كنقيض متمم لأسلوب الإنتاج الرأسمالي الذي تأسس في أوروبا الغربية هو المقولة التي يجب إنتاجها فكرياً كمفهوم علمي. كي تدلنا على كيفية الخروج من التبعية(فهو النمط المكمل والذي يُعاد إنتاجه من قبل الرأسمالية العالمية كي تستمر مسيطرة تصدر إليه أزماتها وتحصل من خلاله على فائض القيمة والربح المنجمي)[2]. ومجابهتنا لمجتمعاتنا الكولونيالية هي محاولة لإنتاج معرفتها، أو على الأرجح إنتاج هذه المعرفة الضرورية للقيام بمهمة التحويل الثوري ، وما الأدوات هذه سوى جهاز المفاهيم النظرية الذي ننطلق في بنائه من جهاز المفاهيم الماركسية، وعدم وجود نظرية في التخلف هو في حد ذاته ظاهرة رئيسية من ظواهر التخلف[3]). وهذه المفارقات في فهم جوهر وإشكاليات التبعية ظلت من المسائل الرئيسة في قصور الفكر العربي الحديث عن صياغة نظرية سياسية-اقتصادية وثقافية عن التبعية في عصر النهضة الأولى والثانية منذ مطلع القرن الماضي.

-7-إدارة العولمة وأدواتها في فرض التبعية على المستوى الدولي.

(الإمبراطورية الأمريكية ومؤسساتها) قيادة التحولات ومرحلة الانتقال من مرحلة الإمبريالية إلى العولمة.

إن دراسة وتحليل العولمة كظاهرة ومرحلة من تطور الرأسمالية، بل التفكير العميق في معرفة القوانين والمؤسسات والهيئات والأشكال الجديدة التي بها تهيمن وتسيطر على الاقتصاد والسياسة والثقافة العالمية ومراكز القيادة والتشكيلة الاقتصادية -الاجتماعية التي بها وعن طريقها تقود الإمبراطورية هذا الشكل الجديد للدولة العظمى المتمثل بالولايات المتحدة الأمريكية. تساندها

[1] الاقتصاد السياسي للتنمية مرجع سابق

[2] في نمط الإنتاج الكولونيالي مهدي عامل ص158-197 طبعة 1971م

[3] المرجع السابق

مجموعـــة الـــدول الســـبع المتقدمة صناعيا (وهي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا واليابان وإيطاليا وكندا التي تأسست 1976م)[1]. وقد أصبحت ثمان بانضمام روسيا إليها 1998م. وهي الحكومة القائمة فعلاً بحسب صحافة المال والأعمال بإدارة شؤون الاقتصاد والمال والسياسة العالمية. وتقوم مجموعـــة أخـــرى مـــن الدول النامية في القارات الثلاث(آسيا-أفريقيا-أمريكا اللاتينية)التي أحرزت تقدماً ملحوظاً على طريق التنمية الرأسمالية بدور الوسيط بمســاعدة ودعـــم وتأييد الدول السابقة وبرعايتها تقوم بأدوار مرسومة لها بما تشكله من قواعد استراتيجية واقتصادية متطورة للرأسمالية مثل كوريا الجنوبية وتـــايوان وماليزيا وسنغافورة[2]. وتأتمر بأوامر المراكز والحواضر الإمبريالية

---

[1] مجموعة السبعة هي هيئة تنفيذية عالمية لا تملك أي مشروع شامل للعالم والحق إنها ليست إلا إدارة أزمـــة.فقد اكتفت 1976 م بوضع مبادئ التكيف الوحيد الجانب للأطراف وسنة 1980م بتنظـــيم إعادة تدوير البترو دولار في صالح الدائرة المالية المضاربة ثم تشجيع خفـــض أســـعار المنتجات الأولية(السبب الرئيس في حرب الخليج)، وسنة 1982م تنظيم إعـــادة جدولة الديون-من دون أي شروط لحل هذه المشكلة-، وسنة 1992م ضم روسيا وبلدان الشرق لاستراتيجيات التكيف الوحيد الجانب واليوم إدارة أزمة يوغوسلافيا وأزمة الإرهاب. غوستاف ماسيا نقلاً عن سمير أمين المرجع السابق ص172.

[2] تجـــربة مالـــيزيا التـــنموية فـــي إطـــار التبعية للسوق العالمية وبرعاية أمريكية يتخذها الإيديولوجـــيون الرأسماليون مثالاً لما يمكن أن تحرزه دولة صغيرة بدون موارد طبيعية مـــن تطـــور صناعي ومالي يؤهلها للدخول إلى السوق العالمية كمنافس للبلدان المتقدمة، ويقومـــون بالدعايـــة لمهاتـــير محمد وحزبه الحاكم على أن نجاح تجربة ماليزيا التنموية الرأســـمالية هو نموذج للتنمية في ظل التبعية الرأسمالية لاجتياز عتبة التخلف والانضمام إلـــى الـــدول المتقدمة صناعياً.إذا توفرت القيادة السياسية القديرة والبيروقراطية صاحبة الخـــبرة والاســـتقرار السياسي، والديموقراطية المؤطرة والمسيطر عليها من قبل الحزب الحاكم .والإيديولوجيا التنموية الواقعية والعلمانية والمؤسسات التي تتيح للشركات متعددة الجنســـيات أن تســـتقر وتستوطن فيها وتنتقل إليها بالرسا ميل والتكنولوجيا الحديثة الأقل تطورا، لتجعلها مركزا قياديا لعملياتها في العالم .وهم يتناسون خصوصية الوضع الجيو-سياسي لماليزيا في استراتيجية أحجار الدومينو الأمريكية في جنوب شرقي آسيا، من أجل تطويـــق اليابان وتوسيع السوق الآسيوية أمام البضائع والسلع الأمريكية كي تكون ماليزيا مركز انطلاق إلى غرب آسيا المسلم، عن طريق النموذج الماليزي المسلم الذي يعمل في إطـــار الإســـتراتيجية الأمريكية، لنزع المنطلقات الفكرية الإسلامية الجهادية، وإنتاج فكر إســـلامي معتدل وممهجن يباعد بين الكلية العقائدية والدولة الحديثة، ليخلصها من سيطرة رجال الدين الأصوليين ولتكون في خدمة الانتشار الرأسمالي والسوق العالمية ، بما يمكن مـــن تأســـيس مجـــتمع إسلامي حديث ، وفكر إسلامي تابع للأيديولوجية الرأسمالية التي

←

لتنفيذ خططها المالية والاستثمارية والتنموية ، وقد حاولت نظرية النظم العالمية كما بلورها (إيمانويل وولر شتاين المفكر الأمريكي في كتابه ذي الأجزاء الثلاثة-نظام العالم الحديث- الذي صدر في الولايات المتحدة الأمريكية 1974م أن تصوغ نظرية متكاملة لنظام رأسمالي عالمي تخضع له كل الاقتصادات وحددت أربع مسلمات أساسية لنظرية النظم العالمية، فأولا هناك مجموعة واحدة من عمليات التنمية الواسعة على مستوى العالم تعد محددات أساسية للتنمية والتغيير ، وثانيا تفصيلا لعمل منظري التبعية، يتألف النظام العالمي من ثلاث مناطق(المركز-شبه المحيط- المحيط) ويضم شبه المحيط دولا مثل البرازيل وجنوب أفريقيا، تعمل كوسيط في عمليات استغلال المحيط[1]، ثالثاً تشبه العمليات التي تستخلص بها الثروة من المحيط تلك التي وصفها منظرو التبعية:التبادل غير المتكافئ، القمع الفعال أو الخفي للسيطرة على التسويق، والأهداف عالية القيمة للسلسلة السلعية، وأخيراً تفترض نظرية النظم أنه بالإضافة إلى الحلقات والدوائر ، فإن للرأسمالية بعض التوجهات العالمية الأساسية منها توسيع المشاركة العالمية في التبادل الرأسمالي والتعميق المستمر لربط كل شيء بثمن، وتحويل الجميع إلى عمال مأجورين والمكننة، واستقطاب الطبقات الاجتماعية[2] . إن معرفة كهذه لابد منها لتكوين مفاهيم محددة عن تأثير الاستراتيجيات الإمبريالية على مجمل حركة الدولة والمجتمع وسياسات التحرر الوطني في بلدان التبعية ، ومن ثم تحديد السبل و الأدوات والأساليب المناسبة للعمل المقابل، والقوى الاجتماعية التي ستدخل في التحالف الوطني للنضال من أجل الخلاص من التبعية.

لقد نشأت الإمبراطورية الأمريكية في خضم المواجهة بين الدول

تكرس التبعية وتقبل بها كخيار مقبول للتحديث والعولمة، وهذا ما يجري تطبيقه في تركيا بوصول حزب التنمية والعدالة إلى السلطة 2002 م..وقد أصدرت مؤسسة راند الأمريكية دراسة بعنوان(الإسلام المدني الديموقراطي) عام 2003م دعت فيها الكاتبة شيرلي برنارد وهي زوجة زلمي خليل زاده السفير الأمريكي الحالي في أفغانستان، إلى تبني سياسات أمريكية من شأنها مساعدة الجماعات الإسلامية العلمانية والتقدمية مالياً وسياسياً وإعلامياً.

[1] *من الحداثة إلى العولمة-تأليف-ج.تيمونز روبيرتس وايمي هايت -ترجمة سمر الشيشكلي مراجعة محمود ماجد عمر ص 30-31 كتاب علم المعرفة -الكويت تشرين الثاني 2004م رقم 309*

[2] *المرجع السابق ص 31-32*

الرأسمالية والحروب التي خاضتها ضد بعضها من أجل استعمار العالم القديم. وفي سبيل الحصول على الأسواق والمواد الأولية والمنجمية و المعدنية وقوة العمل بأرخص الأسعار ونهب ثروات هذا العالم الطبيعية والنباتية. ومن أجل تكوين إمبراطورية مهيمنة كما فعلت أسبانيا(الإمبراطورية الكارولنجية)، وبريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا وبلجيكا وألمانيا من قبل. وكان تشكيل الإمبراطوريات جزءاً رئيساً من هيكلية الاستعمار الأوروبي الغربي التي تولت إدارة شؤون الرأسمالية الصناعية الأوروبية وجعلتها عالمية بالاستعمار والإمبريالية وفرضت عليها التحول إلى الرأسمالية. وقد استفادت الولايات المتحدة من تدمير هذه الإمبراطوريات لبعضها في الحربين العالميتين الأولى 1914-1918م والثانية 1939-1945م لتحل محلها . وقد استنجد بها من سموا أنفسهم معسكر الديموقراطية وهم الأنجلو-ساكسون الذين حالفتهم أكبر قوة مالية عالمية هي الحركة الصهيونية التي كانت تسيطر وما زالت على حركة رأس المال العالمي ، ليقيموا فيما بينهم تحالفاً وثيقاً للهيمنة على العالم من خلال التحكم بالرساميل العالمية، عن طريق شبكة المصارف والبنوك التي توزعت في أنحاء العالم لجمع الأموال واستثمارها عن طريق القروض والتوظيف في مشاريع مشتركة مع الدول والهيئات والشركات الوطنية والأجنبية، وبخاصة في مجال الأبحاث العلمية والطبية والتحديث الصناعي والتسليح واستخراج الطاقة(مناجم الفحم ثم النفط)ثم الكهرباء وصولاً إلى الذرة.

وفي فترة الحرب الباردة خلال الصراع مع أول دولة اشتراكية في العالم بعد الحرب العالمية الثانية كنست الإمبريالية الأمريكية الإمبراطوريتين الاستعماريتين اللتين كانتا ما تزالان تتحكمان بمستعمراتهما منذ القرن الثامن عشر، وأعادت تشكيل العالم الرأسمالي لمواجهة الاشتراكية والثورة العالمية وحروب التحرر الوطني من أجل الاستقلال والخروج من التبعية.

يقول كلود جوليان مؤلف أول كتاب عن الإمبراطورية الأمريكية 1969م والمترجم إلى العربية(بعنوان الإمبراطورية الأمريكية -كانت حاجة أمريكا وراء ولادة إمبراطورية فريدة من نوعها بلا حدود، كانت الخرائط الجغرافية ترسم بلون معين للمناطق المنتشرة في القارات الأربع والتابعة للإمبراطورية الفرنسية، واللون الآخر للإمبراطورية البريطانية. أما الإمبراطورية الأمريكية فلا يمكن رسم صورة بيانية لها وللمناطق الخاضعة لها والتي تسيطر عليها

سـيطرة شـبه كاملة، لكن من الأفضل الاعتماد على معلومات عن امتيازاتها البترولـية والمنجمية، وعن قنواتها العسكرية والبرية والبحرية المنتشرة في كل مكـان وعن توظيفاتها المالية الخاصة وقروضها الحكومية وعن نفوذها المالي والسياسي وعن صداقاتها المخلصة والمصلحية وعن قوتها كزبون كبير)[1].

فلقـد توفـرت لهـا بنية عسكرية واقتصادية وإدارية وكانت لدى طبقتها الحاكمـة إرادة القـوة والتطلع إلى الهيمنة والسيطرة، ووراثة الإمبراطوريات السـابقة لـتحل محلها وتستولي على مستعمراتها وتحوز الأرباح الطائلة التي كانت تجنيها، وبفضل تقنيات التجارة والاستثمار والبيع في الأسواق الخارجية. كمـا أنهـا لـم تتورع عن استعمال دبلوماسية الدولار والعصا الغليظة وحينما يقتضـي الأمـر إشـعال ثـورة مناسـبة أو إجهاض أخرى تسبب لها الضيق استخدمت أسلوب مساعدة البلدان النامية اقتصادياً وتقنياً)[2].

أمـا الادعـاءات الأيديولوجـية فكانـت لتغليف سياسات القوة والوحشية والـبربرية التي بها تم الوصول إلى السيطرة العالمية[3]، واحتكار تجارة المواد الأولـية وخامات المعادن اللازمة للصناعات الحديثة والدقيقة. ولم يكن التفكير في بناء الإمبراطورية لدى كبار المنظرين الاستراتيجيين الأمريكيين ليتجاوز ما هـو سـائد في دوائر الأعمال والاحتكارات حول المصلحة الأمريكية التي هي مصـلحة هـذه الشـركات كمـا قال تشارلز-إ-ويلسن وزير الدفاع الأمريكي والرئيس السابق لشركة جنرال موتورز (ما هو في مصلحة جنرال موتورز هو فـي مصـلحة الولايات المتحدة)ولخصها آبي فورتاس(ما يلائمنا يلائم العالم) ، والعـالم الثالـث منطقة يجب أن تقوم بوظيفتها الرئيسة كمصدر للمواد الأولية وكسـوق للمجـتمعات الصـناعية الغربية. إذن من الممكن بعد زوال الاتحاد السـوفيتي أن تمـتد أشـكال الاستعمار الحديثة نحو حدودها الطبيعية[4]. وفي الولايـات المتحدة نجد أن قطاعات الاقتصاد التي ظلت قادرة على المنافسة هي تلـك التـي تتغذى من الوعاء العام صناعة التقانة العالية والزراعة كثيفة رأس

---

[1] *الإمبراطورية الأمريكية -كلود جوليان ص 17 ترجمة دار الحقيقة بيروت 1970م*

[2] *نفس المرجع السابق31*

[3] *يقـول السـيناتور بيفردج (إن الله اختار الشعب الأمريكي من جميع الأجناس ليقود العالم أخيراً إلى تجديد نفسه)ص38 المرجع السابق*

[4] *إعاقة الديموقراطية -نعوم تشومسكي -مركز دراسات الوحدة العربية ص170.*

المال وصناعة المواد الصيدلانية وغيرها.

إن النموذج الجديد للرأسمالية كما يصفه نعوم تشومسكي حيث يجري التنسيق من قبل مؤسسات الدولة والشركات الكبرى الصناعية والمالية أحيانا بصحبة عمليات ديموقراطية وعقد اجتماعي من أنماط متنوعة وأحيانا بدونها، لتعطي أمجاد الاقتصاد الحر سلاحاً مفيداً ضد السياسات الحكومية التي قد تفيد عموم السكان، أما الرأسمالية فستكون بالطبع وافية بالغرض بالنسبة إلى المستعمرات السابقة. . إن النموذج بالنسبة إلى الذين سيقومون بوظائفهم خدمة لسادة النظام العالمي الجديد والموصى به فهو سيسهل استغلالهم، ويجعلهم عرضة لقوى التدمير الكامنة في رأسمالية السوق الحرة[1].

وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي في بداية تسعينات القرن الماضي وإعلان الرئيس الأمريكي جورج بوش الأول استراتيجية أمريكا لبناء النظام العالمي الجديد بعد انتصار الرأسمالية على الاشتراكية كما ادعى بعد الحرب على العراق 1991م. أصبح بناء الإمبراطورية سياسة معلنة وحثيثة في دوائر الدولة ووزاراتها ومراكز البحوث ومعاهد الدراسات الاستراتيجية ولدى الطبقة السياسية الحاكمة، وفي الكونغرس بمجلسيه النواب والشيوخ وفي الأوساط الإعلامية المسموعة الكلمة التي كانت متفقة على أن الفرصة سانحة لجعل القرن القادم -الواحد والعشرين- أمريكياً، ولذلك يقتضي العمل المخطط والمبرمج لإخضاع العالم وجعله أمريكياً بقوة الاقتصاد والعلم والتقنيات الحديثة وبالثقافة الأمريكية وبقوة أمريكا العسكرية التي من اللازم أن تظل متفوقة، وأن تمنع أية دولة من منافستها في هذا المجال . يجب أن تؤدي أمريكا رسالتها بصفتها طليعة تاريخية عليها أن تغير النظام العالمي ومن خلال هذا وذاك تديم هيمنتها عملاً بحتمية التفوق العسكري الذي ينبغي الحفاظ عليه دائماً ومد خطوطه إلى أرجاء العالم قاطبة) وهذا هو المبدأ الأول للسياسة الخارجية الأمريكية. [2]

وقد ورد في تقرير لمؤسسة التراث foundtion-hirtage، تحت عنوان كيف نبني العالم آمناً بالنسبة لأمريكا شارك في إعداده ومداولاته أشخاص

---

[1] *المرجع السابق ص171.*

[2] *الهيمنة أم البقاء السعي الأمريكي للسيطرة على العالم ص76 ترجمة سامي الكعكي -دار الكتاب العربي 2004م*

عديدون من إدارة بوش الابن الحالية. جاء فيه(يجب طرح مفهوم الديموقراطية بشكل واضح لتكون أيديولوجيا السياسة الخارجية تجاه العالم الثالث- وضرورة سيطرة الولايات المتحدة على منابع النفط وإمداداته، ودعم إسرائيل كحليف استراتيجي وتوثيق العلاقات معها، وإلى نشر فكرة الديموقراطية حيث يكون في ذلك خدمة للمصالح الأمريكية، والعمل لتحقيق تفوق أمريكا العسكري باستمرار وحرمان أية قوى أخرى حليفة أو معادية من امتلاك عناصر القوة الكامنة التي تستطيع بها منافسة الولايات المتحدة . وفي وثيقة (إعادة بناء الدفاعات الأمريكية) الصادرة عن المحافظين الجدد-وول فويتز نائب وزير الدفاع ولويس ليبي كبير مساعدي نائب الرئيس ديك تشيني-جاء ما يلي:على الولايات المتحدة أن تثبط عزم الدول الصناعية المتقدمة وتمنعها من تحدي زعامتنا حتى الطموح إلى القيام بدور إقليمي أو عالمي أكبر، وتقوم بتصنيف الدول التي تعتبرها خطراً على الزعامة الأمريكية وكيفية التصرف معها، ووصولاً لتبرير وجود النظام الأمريكي المسيطر على العالم)[1] . وللتغلب على أزماتها الاقتصادية فإن عسكرة الاقتصاد تتخذ منحنى خطيراً في عهد تأسيس الإمبراطورية فقد أعلنت الولايات المتحدة عن أكبر ميزانية للدفاع في تاريخها أكثر من أربعمائة مليار دولار لعام 2004م يضاف إليها ما أضافته من موازنة إضافية لتغطية نفقات حربها على أفغانستان والعراق بمبلغ 64مليار دولار ومبلغ 87مليار دولار من أجل مواجهة حربها الاستعمارية في العراق عام 2003م، ليصل المبلغ إلى أكثر من 500مليار دولار أمريكي. وتعادل نفقاتها الدفاعية هذه نفقات 15 دولة تليها في القوة الاقتصادية والعسكرية.

تعمل الإمبراطورية بوسائل مختلفة لبناء مؤسساتها أو فلنقل لتضم تحت جناحيها الأشكال الجديدة للمؤسسات الرأسمالية لتستخدمها لتحقيق أهدافها- الشركات متعددة الجنسيات والأسواق المالية الدولية-، وتدمج في مخططاتها التطورات التي تحصل في البنى الرأسمالية بعد الإمبريالية(ففي الاقتصاد العالمي الجديد حيث الانفصال بين الطبيعة الإقليمية للسيادة والطبيعة العالمية للتدفقات الاقتصادية، أي أن الفضاء الإقليمي للدولة الحديثة وسيادتها يصطدمان

---

[1] *أيلول عام 2000م*

شـيئاً فشـيئاً بعولمة الاقتصاد[1]. وتخترع ما تراه مناسباً لتطوير آليات عملها وزيـادة فاعليـتها الرقابـية كدولة لحماية ما تسميه الاقتصاد العالمي وهو في الحقـيقة هيمنتها على اقتصاد العالم و إخضاعه لمصالحها الخاصة. فقد أنشأت المؤسسـات الدولية عن طريق الأمم المتحدة للتحكم بالتمويل وأسعار العملات والنقد العالمي والتنمية في العالم الثالث مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والوكـالات الخاصة بالتنمية. إن نقلة نوعية في شكل التنظيم الاجتماعي، تمثل تحـولاً تاريخـياً فـي نظـام العالم الرأسمالي، يستخدم رأس المال المضارب مؤشرات موحدة عالمياً لتقرير أي الشركات أو حتى الحكومات يمكنها اقتراض المال وبأي شروط. يضع هذا التوحد العالمي سلطة هائلة في أيدي طبقة حاكمة عالمـية جديدة، تصنف في ثلاث فئات من المديرين البيروقراطيين والسياسيين الراغبين في خفض الإنفاق الحكومي والعمل بمقتضى القواعد العالمية الجديدة، ومالكي الشركات متعددة القوميات، والبنوك الدولية ومديريها التنفيذيين، وأولئك الذيـن يديـرون منظمات متعددة الأطراف-صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية[2] .

لقـد تأسسـت اللجـنة الثلاثـية عام 1973م للتخطيط ودراسة مشكلات الرأسـمالية وإيجاد الحلول لها لإدارة الاقتصاد العالمي من كبار رجال الأعمال ومـد راء الشركات والاحتكارات العملاقة متعددة الجنسيات وموظفي وزارات الخارجـية والدفـاع والـتجارة والمالـية وشخصيات نافذة الكلمة من الرؤساء والوزراء السابقين لخلق الانسجام بين سياسات المراكز الثلاثة الرئيسة لاقتصاد العـالم -الولايـات المتحدة -اليابان-أوربا الغربية-(من أمثال فاليري جيسكار ديسـتان رئـيس جمهورية فرنسا الأسبق . وناكاسوني رئيس الوزراء الياباني الأسبق و هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي الأسبق).

وفـي إطـار مجموعـة السبع ثم الثمان بعد ضم روسيا إليها بعد انهيار الاتحـاد السـوفييتي والتـي تقوم برسم السياسات المالية والاقتصادية للعولمة، تجـري الاجـتماعات الدوريـة والطارئـة لوزراء المال والاقتصاد و رؤساء المصـارف المركـزية فـي هذه الدول لمواجهة الأزمات الطارئة في أسواق

---

[1] *انظـر العولمـة وآفاق المستقبل في الوطن العربي -سيد الصديقي-المستقبل العربي عدد تموز 292-2003م*

[2] *من الحداثة إلى العولمة -كتاب عالم المعرفة رقم-309-تشرين الثاني 2004م ص15*

صـــرف العملات ، والأزمات الاقتصادية الطارئة في أي بلد في العالم ، والتي قــد تهــدد بمفاعــيلها الــنظام الرأســمالي برمته وتعمل من خلالها على تنفيذ الإجــراءات والسياســات العامــة للرأســمالية. كما عمدت إلى إنشاء النوادي الاقتصــادية التــي تجمع السياسيين ورجال المال والأعمال والشركات متعددة الجنســيات وعلمــاء الاقتصــاد والاجــتماع والأكاديميين في مراكز البحوث والجامعــات لدراسة اتجاهات الاقتصاد والتنمية والقروض والديون وكل ما من شــأنه أن يؤثــر علــى الاستثمار والتوظيف والاستهلاك والأزمات الدورية أو المزمنة، ورسم السياسات الاقتصادية العالمية، من أهمها:

1- نــادي رومــا:أسســه 1966م أكاديميون بتمويل من الشركات متعددة الجنســيات وقــام بإصــدار العديد من الدراسات حول البيئة والموارد والمواد الأولية والتنمية الرأسمالية.

2-ومنــتدى دافوس الاقتصادي في سويسرا أسسه اقتصاديون وسياسيون ورجال دولة ومد راء شركات متعددة الجنسيات وأكاديميون ليبراليون بعد عام 1976م. يجمع بين مديري الشركات متعددة الجنسيات ورجال الدولــة في الدول الرأسمالية وأقطاب صنع القرار في العالم من أهدافه توفــير مناخ مناسب للاستثمارات الرأسمالية ومواجهة مخاطرها عبر تــبادل مباشــر وحر للأفكار ، والقيادة السياسية والاقتصادية في مناخ غــير مستقر وعالم متغير. ويجتمع كل عام فيما يشبه المؤتمر الدولي يحضره رؤساء الدول الرأسمالية ورؤساء الوزارات ووزراء الاقتصاد والمال والخارجية فيها إلى جانب العديد من رؤساء الدول النامية الذين يدعون لإلقاء الكلمات وإجراء المباحثات وعقد القروض والصفقات مع رجال الأعمال من مختلف أرجاء الكرة الأرضية. بما يسميه هنتنجتون ثقافة دافوس يقول عنهم (إنهم يشتركون بوجه عام في الإيمان بالفردية واقتصادات السوق وبالديموقراطية السياسية والتي هي اعتقادات شائعة أيضاً بين الناس في الحضارة الغربية، ويسيطر أصحاب منتدى دافوس عملــياً على كل المؤسسات الدولية والعديد من حكومات العالم والقسم الأكبر من إمكانيات العالم الاقتصادية والعسكرية.)[1] .

---

[1] *مجلــة الــثقافة العالمــية العدد 85 نوفمبر–ديسمبر1997 م مقال بعنوان يا عولمي العالم اتحدوا بقلم دانييل دريزنر ترجمة عبد السلام رضوان.*

3-بالإضافة إلى النوادي الخاصة برجال الأعمال المنتشرة في كل بلاد العالم والتي تجمع هؤلاء مع عملاء المخابرات المركزية الأمريكية وكبار البيروقراطيين في وزارات الدفاع والخارجية والمالية والتجارة والاقتصاد الذين يعملون جميعاً لخدمة هدف واحد هو مواجهة الثورة على النظام العالمي الرأسمالي، ويتلقون الأوامر ويعقدون الاتفاقات فيما بينهم وبين دولهم لخدمة استراتيجية الإمبراطورية، مساهمين بالأموال وتجنيد العملاء، لتقويض الأنظمة الوطنية التي تعمل من أجل الاستقلال والتنمية لمصلحة شعوبها وللخلاص من التبعية[1] .

4-والمنتديات الاقتصادية- السياسية، هي إحدى الظواهر الجديدة والمبتكرة لإدارة الجيو-سياسة العالمية مثل المنتدى السياسي الاقتصادي لآسيا والمحيط الهادي(الأسيان) والمنتدى السياسي-الاقتصادي لدول البحر الأبيض المتوسط الأوروبية والعربية. (منتدى برشلونة)ومنتدى الشرق الأوسط الأوسع وشمال إفريقيا الذي تحدث عنه كولن باول وزير الخارجية الأمريكية وقد أُطلق عليه اسم منتدى المستقبل وانعقد في مدينة الرباط في المغرب في 11 كانون الأول 2004م وحضرته وفود ثلاثين دولة من الدول العربية والإسلامية ومن الدول الثمانية المتقدمة صناعياً وبرعاية وإشراف وحضور وزير الخارجية الأمريكية كولن باول. وقد أقر استراتيجية الإصلاحات الأمريكية تحت الشعار الذي رفعه الوزير الأمريكي الإصلاح الديموقراطي في مواجهة الإرهاب. . . . . . وكلها تعمل لتسهيل انتشار الرأسمالية وتكريس التبعية بما يخدم الرأسمال العالمي.

5-وهناك النوادي الاقتصادية-المالية التي أسستها الدول الرأسمالية المتقدمة وتضم ممثلي الدول الدائنة و المقرضة للرساميل أو الضامنة لها مثل نادي باريس ويبحث في سياسات الإقراض والديون المترتبة على الدول المدينة ، ونادي لندن الذي يضم ممثلي المصارف والشركات المالية الخاصة الدائنة. وتعمل هذه النوادي ضمن استراتيجية الإمبراطورية والدول الصناعية المتقدمة والخطط المعدة

---

[1] راجع كتابنا-النظام العالمي الجديد الصادر عن دار الأهالي 1994م ففيه تفصيل واف عن هذه النوادي.

للأســـواق المالـــية الدولية، إلى جانب أعداد كبيرة من مراكز البحوث والفكر والمؤسسات الممولة جيداً مثل(معهد أمريكان أنتربرايز والمعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي ومنتدى الشرق الأوسط ومعهد واشنطن لسياسات الشرق الأوسط ومعهد أبحاث ميديا.

6-وعلـــى خطـــا التكـــتلات الاقتصـــادية الكبرى التي تشكلت في نطاق الممارســـة وعـــبر الأزمات الاقتصادية الدورية والطارئة للتغلب على الأعـــراض المدمرة لنظام الإنتاج الرأسمالي، شرعت الدول الصناعية المـــتقدمة بإقامـــة هذه التكتلات على مستوى قاري لأغراض سياسية واقتصـــادية وثقافـــية مثل الاتحاد الأوروبي الذي أسسته سبع أو ثمان دول فـــي أوروبـــا الغربية ليتسع إلى خمس عشرة دولة ثم إلى خمس وعشرين دولة أوروبية في غر بها ووسطها وشرقها عام 2004م. وقد يشـــمل القـــارة كلهـــا فـــي العقد القادم، وقد يمتد ليشمل حوض البحر الأبـــيض المتوســـط بحســـب اتفاقـــية برشلونة للشرا كة الأوروبية- المتوسطية التي بالإضافة لأهدافها السياسية وهي إدخال الدول العربية المتوســـطية والدولة الصهيونية المحتلة لفلسطين في شراكة اقتصادية وسياســـية وثقافية بطريق غير مباشر، فإن أهدافها الاقتصادية واضحة وهـــي تعزيـــز تبعيتها لأوروبا الاتحادية الجديدة. ومنظمة نافتا التي تجمـــع أمـــريكا الشمالية -الولايات المتحدة وكندا-وأمريكا الوسطى- المكســـيك وبانامـــا. . ومنظمة المحيط الهادي للتجارة والتنمية وتجمع الـــدول المطلـــة عـــل ضفتي المحيط الهادي في أسيا وأمريكا بزعامة. الولايـــات المـــتحدة. وفـــي قمـــة هـــذه المـــنظمات مـــنظمة التجارة العالمـــية(الغات GAT) التي ستحل محل العديد من المنظمات السابقة التـــي أنشأتها الدول الرأسمالية لتحرير التجارة العالمية من قيود التبادل والحمايـــة والرسوم الجمركية لفتح ا لأسواق الوطنية والقومية للتغلب علـــى الأزمـــات المدمرة التي يعاني منها هذا النظام وهي أزمة الغذاء وأزمـــة النظام النقدي وأسعار الصرف وأزمة الطاقة وأزمة الانكماش وأزمـــة المديونـــية وأزمة التنمية والنمو الرأسمالي، وأزمة انهيارات الأســـواق المالـــية العالمية 1987م و 1997م في جنوب شرقي آسيا، وأزمة التجارة العالمية المزمنة.

هذه الأزمات الدورية المزمنة والحادة هي التي تؤرق سادة الإمبراطورية

وتجعلهم في حالة استنفار دائم للبحث عن حلول أو تأجيل انفجار الأزمات والحيلولة دون تحولها إلى أزمة سياسية اجتماعية مدمرة؛ ولذلك تحولت مهمة المنظمات المالية والاقتصادية الدولية التي تأسست بعد الحرب العالمية الثانية إلى أدوات بيد الإمبراطورية. فأصبحت في نطاق هيمنة الدولة العظمى الوحيدة مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي تهتم بد ل البناء والتنمية ببرامج الإصلاح الاقتصادي والخصخصة والتكيف في بلاد حركة التحرر الوطني التي كانت سلكت طريق التنمية الاشتراكية من أجل إلحاق اقتصادها بالسوق العالمية للإمبريالية. فأصبح البنك الدولي يمارس الرقابة وفرض العقوبات وتنفيذ سياسات الدولة العظمى القائدة للرأسمالية العالمية على تصدير التكنولوجيات. وقام بإنشاء بنوك تابعة في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية مثل بنك التنمية الزراعية، وبنك التنمية الأوروبي(لتأمين القروض لتنمية بلدان شرقي أوروبا التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي)، لتعمل كوسيط لتدفق الأموال وتقديم المساعدة إلى الشركات متعددة الجنسيات بالضغط على الحكومات المقترضة لزيادة الإعفاءات الضريبية للاستثمارات الأجنبية، والإصرار على الإنتاج من أجل التصدير، ومعارضة كل أنواع الحماية للمشروعات الصناعية والتجارية التي يمتلكها المواطنون. فلا يقدم القروض إلا في مجال النقل والكهرباء والاتصالات[1].

وعبر مشروطية البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، يتم الآن إخضاع البلدان النامية وإعادة احتوائها وتطويعها لمطالب النمو في المراكز الرأسمالية الصناعية حتى ولو أدى ذلك إلى فقدانها لاستقلالها الوطني وتزايدت فيها حالات الركود والفقر والبطالة، وتدهور الأحوال المعا شية للغالبية العظمى من سكانها[2].

في كتابه عن العولمة وخيباتها يتحدث البروفيسور جوزيف-إ-ستيغليتز- الأستاذ في علم الاقتصاد والحائز على جائزة نوبل والذي ترأس المجموعة الاقتصادية في البنك الدولي منذ 1997م عن مهام البنك واستراتيجيته وقراراته

---

(1) يمارس البنك الدولي رقابته على نقل التكنولوجيات ليس فقط عن طريق رقابة صرف أموال القروض ولكن أيضاً عن طريق التحكم في تعيين مديري المشروعات ومقدرته على تجنب الضوابط الحكومية)البنك الدولي شيريل بيبار ترجمة أحمد فؤاد بلبع

(2) المرجع السابق من مقدمة الدكتور رمزي زكي للكتاب

فـيقول(إن القـرارات الاقتصـادية تتخذ على أسس أيديولوجية وسياسية وليس اقتصـادية وكذلـك قرارات صندوق النقد الدولي فالإيديولوجيا هي التي ترسم الوصـفة، وكان يُفترض أن تعمل البلدان النامية بموجبها دون أن تناقش خطة الصندوق ومظالم نظام التجارة العالمي[1]، والبنك الدولي هو جهاز قيادة الحياة الاقتصادية –السياسية الدولية، والعولمة هي القبول بالنمط الأمريكي للرأسمالية. وقـد اسـتخدمت الولايات المتحدة هاتين المؤسستين الدوليتين لفرض سياسات الليبرالـية الجديـدة علـى اقتصـا ديات التنمية في العالم الثالث منذ –ريغان وتاتشر–وهما تعملان بحسب الإرادة الجماعية لنادي السبعة أي حكومات الدول السـبع الصـناعية الأكثر أهمية وخصوصاً وزراء ماليتها ووزراء خزانتها[2]. وتوافق واشنطن و (ص–ن–د)و(ب–د)ووزارة الخزانة الأمريكية حول السياسة الصالحة التي يجب أن تعتمدها البلدان النامية هو من الأساسيات لعمليهما[3].

لقـد غيرت الإمبراطورية المالية الأمريكية من طبيعة عمل ومهام الهيئات الدولية التي تأسست بعد الحرب العالمية الثانية لتصبح أدوات للهيمنة الأمريكية فـي عصر ما بعد الإمبريالية(– البنك الدولي للإنشاء والتعمير وصندوق النقد الدولـي ووكالـة التنمـية الدولية. . .). إذ كانت مهماتها السابقة ترتكز على المساهمة في بناء الاقتصاد الرأسمالي على المستوى العالمي وبخاصة في بلدان العـالم النامي، فأصبحت مهمتها إصلاح اقتصاديات هذا العالم لتكون في خدمة اقتصـاد الإمـبراطورية مـن الخصخصـة إلـى الإصلاح الهيكلي لتستجيب للتطورات العاصفة في بنية الرأسمالية ما بعد الإمبريالية.

بيـنما جعلت منظمات الأمم المتحدة السياسية ومجلس الأمن الدولي منابر لفـرض اسـتراتيجيتها وتصـوراتها للنظام العالمي الجديد الذي تريد بناءه أي الإمـبراطورية العالمـية للرأسـمالية. وقد توضح هذا المنهج في سياساتها في يوغوسـلافيا السـابقة وأفغانستان والعراق، جاعلة من شركائها السبع في نادي الـدول الصناعية المتقدمة وتوابعها من دول العالم الثالث شركاء ثانويين عليهم تقديـم الأمـوال لتمويل عملياتها العسكرية واحتلال هذه البلدان أو القيام بدور

---

[1] *العولمة وخيباتها جوزيف–إ–ستيغليتز ترجمة ميشيل كرم دار الفارابي ببيروت ص 20-21*

[2] *المرجع السابق ص36*

[3] *المـرجع السابق ص37 (إن صندوق النقد الدولي مؤسسة سياسية مرتبطة بوزارة الخزانة الأمريكية)ص199*

الشرطي لحماية الاحتلال الأمريكي من المقاومة الوطنية في هذه الأقطار .

إن ديكتاتورية الأسرة المالية الدولية التي تسيطر على اقتصاد وسياسات العالم تتألف من تحالف الدول الرأسمالية السبع والشركات متعددة الجنسيات والمصارف العالمية العملاقة والأسواق المالية الرئيسة في(وول ستريت في نيويورك ولندن وطوكيو وفرانكفورت وباريس)والطبقة الرأسمالية العالمية الجديدة التي هي في الظاهر لا تنتمي إلى وطن ولكنها في الحقيقة تحمل جنسية الإمبراطورية الدولة الأقوى في العالم . وتعمل انطلاقاً من أراضيها وبالتحالف معها. لقد مهد مشروع مارشال في الحقيقة الطريق لمجاميع ضخمة من الاستثمارات الأمريكية الفردية والمباشرة في أوروبا، واضعة الأسس للشركات متعددة الجنسيات)[1]

فالشركات متعددة الجنسيات والدول الرأسمالية الصناعية تعملان معاً، إذ تلعب الدولة في المرحلة الراهنة من الرأسمالية ما فوق الإمبريالية(العولمة) الدور المحوري في عمل المؤسسات الرأسمالية الجديدة فهي تتدخل في خلق الأسواق وصياغة شكلها وتشجيع استخدام التكنولوجيات الجديدة. فالرأسمالية لو تركت وشأنها يكون لديها اتجاه إلى أن تنساق إما إلى عدم استقرار وإما إلى الاحتكار، فلو لم تسارع حكومة الولايات المتحدة إلى الإنقاذ لكانت الرأسمالية حسب النموذج الأمريكي في طريقها الآن إلى الانهيار . . ولو لم يكن النظام المصرفي مكفولاً من الحكومة لساد الذعر عند فقد الأفراد حساباتهم الادخارية.. ومن الغريب أنه بينما تقوم أوروبا الشرقية بعمليات الخصخصة تقوم الولايات المتحدة بعمليات تأميم مع انهيار جانب كبير من النظام المصرفي. فقد اضطرت الحكومة الأمريكية في بداية 1991م إلى الاضطلاع بإدارة أصول خاصة قيمتها مائتا مليار دولار ومن المتوقع أن ينتهي الأمر بتملكها أصولاً خاصة قيمتها ثلاثمائة مليار دولار[2] . فالدولة والأسواق في حالة تكامل، وفشل السوق العالمية يقتضي تدخل الدولة في أية مرحلة من المراحل ، ولذلك يجب فهم هذه الحقيقة في أية استراتيجية للتنمية القومية والوطنية.

إن الرأسمال الاجتماعي هو اللحمة التي تجعل المجتمع متماسكاً فحين التفريط به نكون قد دخلنا في التيه، وهذا ما تحاول ثقافة العولمة الأمريكية

---

[1] *نعوم تشومسكي مرجع سابق الهيمنة أم البقاء ص277 .*

[2] *البنك الدولي مرجع سابق ص15*

عملـــه في النسيج الاجتماعي والقومي والوطني، من خلال الإفقار المطلق الذي تفرضـــه علـــى بلـــدان العالم الثالث وقلبه الوطن العربي، وتشهد على ذلك ما أسميناه هجرة الأدمغة أي العناصر البشرية المؤهلة والفنية والعلمية و الحاصلة علـــى الشـــهادات العلمية العالية والتي كان من المفروض أن تساهم في تحديث وتقدم أقطارها وأوطانها التي أنفقت عليها الأموال الطائلة من أجل إعدادها لهذا الغرض.

8-نتائج التبعية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في البلدان التابعة.

مـــن مظاهر التبعية 1- التخلف الاقتصادي والعلمي والتقني عن المراكز والحواضـــر والـــدول المتقدمة 2- السيادة الناقصة على الأرض والجو والبحر والثروات الطبيعية والأسواق في الإقليم الذي تسيطر عليه الدولة التابعة3-تدني مســـتوى دخـــل الفرد والبطالة الواسعة في قوة العمل -4-ارتفاع معدل الأمية بيـــن الســـكان 5- تخلف وتدني إنتاجية العامل والعمل 6- سيادة طرق الإنتاج القديمـــة وتخلف التقنيات المستخدمة في الزراعة والصناعة والحرفة، والاعتماد علـــى تصدير المواد الخام والأولية والمنجمية واستيراد السلع المصنعة والمواد الغذائـــية-7-تراجع القدرة على النمو الذاتي بالإضافة إلى انحسار القدرة على المنافســـة8- خضوع سياستها الخارجية والمالية والاقتصادية للدول المتقدمة9- صراع الهوية بين القومية والوطنية والطائفية والعشائرية -10-الصراع الثقافي بيـــن ثقافة قديمة موروثة وثقافة حديثة وافدة11-صراع النخب بين نخب دينية ونخـــب علمانية ونخب تكنوقراطية ونخب سياسية 12 -سيادة الإيديولوجيا في الفكـــر السياســـي -13-صراعات إثنية وطائفية تدور بين أكثرية وأقليات على خلفـــية علاقـــات التبعية[1]14- صراع حول الدولة ونظام الحكم، حول الدولة الديموقراطـــية الحديـــثة والدولـــة الشـــمولية دولة المستبد العادل دولة العائلة والعشيرة، ودولة الشعب الديموقراطية.

هـــذه المظاهـــر تجعل الدولة التابعة بلا هوية على حافة الحرب الأهلية،

[1] تتســـم مفاعيل العولمة بالتقلبات المالية المزمنة والفجوات الاقتصادية المتسعة وتعني نمواً أكثر بطئاً مع وصول ثمار العولمة الليبرالية الجديدة إلى من يتبع القواعد المقررة وإيقاعها الأذى بالفقـــراء في الغالب، وتعميق الركود الاقتصادي والاضطراب السياسي والاغتراب الثقافـــي مما يغذي التطرف الإثني والأيديولوجي والديني إلى جانب العنف الذي غالباً ما يلازمه) نعوم تشومسكي مرجع سابق الهيمنة -أم البقاء ص247 .

مـــنهكة القـــوى فـــي صراعات النخب والطبقات متعثرة النمو تهددها الحروب الإمبريالـــية تحت ذرائع شتى -حروب استباقية وحروب لاحقة مخططة-تثيرها الإمبراطورية وحلفاؤها، من أجل إعادة تركيب وترتيب وتنظيم المجال الدولي. لـــيكون أكـــثر خضـــوعاً لهيمنتها تحت ذرائع مختلفة في مقدمتها حماية أمنها القومي ومصالحها الحيوية كدولة إمبراطورية.

9-برنامج وطني مقترح لمواجهة التبعية.

إن درجـــة تأثـــر هذه المظاهر بالتبعية متفاوت، وكيفية استجابتها لها غير متســـاوية وموقـــف الطبقات الاجتماعية منها مختلف. علينا أن نتقصاه ونفهمه بمنهجـــية مقاربـــة تتيح لنا تحديد مكانة هذه الطبقات والنخب في المجال التابع انطلاقـــا من مصالحها المفترضة لتأسيس ما يمكن تسميته القاعدة الاجتماعية-الثقافـــية-السياســـية- الاقتصـــادية، ككتلة تاريخية متماسكة للأكثرية المتحالفة بموجـــب بـــرنامج وطنـــي للحد من نفوذ واختراق نظام التبعية للجسد القومي والوطني، والعمل لتحصينه مادياً وروحياً من الانهيارات والتفتت والتجزئة التي ينـــتجها نظام العولمة في غزوه المبرمج لوطننا العربي على وجه الخصوص. والذي تشكل القاعدة الصهيونية المحتلة لفلسطين عنصراً أساسياً في استراتيجيته لفرض العولمة و المزيد من التبعية، مع الظن أنها قد تكون بالمقابل حافزاً قوياً للـــتحدي والتعزيز والتماسك الاجتماعي والسياسي للدفاع عن الأرض والوطن والهويـــة والانـــتماء والســـيادة وفقـــا للبرنامج الوطني لمواجهة التبعية، الذي عناصره الأساسية:

1-قـــاعدة اجتماعية-سياسية ثقافية حديثة تكون مرتكزاً مرجعياً لإيديولوجيات وفكر مرحلة التحول هذه.

2-تحـــالف اجتماعـــي -سياسي يجمع الأحزاب والقوى الاجتماعية التي تتبنى ميثاقاً وطنياً بالاستناد إلى القاعدة السابقة، وتشكل هذه المقاربة استراتيجية للعمـــل السياســـي وتـــتغذى من المضمون العملي للحركة الاجتماعية في ممارســـتها الكفاحـــية لتحقـــيق الـــبرنامج الوطني على مستوى الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية للتحرر الوطني من التبعية.

3-بـــناء الدولة الحديثة على مبادئ الديموقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة والمواطنة في إطار نظام سياسي يكفل التعددية السياسية والحريات العامة (حـــرية الـــرأي والتفكير والعقيدة وتأسيس الجمعيات والأحزاب في إطار

القوانيـــن التـــي تـــنظم ذلـــك) وعمل مؤسسات المجتمع المدني والحقوق الأساسية للإنسان العربي، وعلى قاعدة تداول السلطة عن طريق صناديق الاقـــتراع ، وتحديـــد المدة الزمنية لإشغال المناصب العامة التي لا يجوز بعدها لأي كان أن يتولاها أو أن يرشح نفسه لها أو أن يستمر في إشغالها مـــد نيا كان أو عسكرياً ، وفصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية والإعلامـــية. ووضــــع دســـتور يكفـــل كـــل ذلك من قبل ممثلي الشعب المنتخبيـــن. وفي ظروف يزداد فيها ارتباط البلدان النامية باقتصاد السوق العالمـــية بصـــورة مطـــردة تشـــكل الدولة العامل الأهم في إعادة البناء الاقتصادي وتدبيره، ففي اقتصاد عالمي حيث المعاهدات والوثائق الدولية هـــي صاحبة اليد الطولى في المضمار الاقتصادي يكون اللاعب الفردي الأكـــثر أهمية هو الدولة. ولنقل إن هذه النظرة هي عبارة عن دعوة إلى إحياء دور الدولة الوطنية في حقبة العولمة[1]-

4-وضــــع نمـــوذج اقتصادي -ثقافي للتنمية الاقتصادية والبشرية يكون بمثابة مرجعـــية واســـتراتيجية قومية ووطنية لبناء اقتصاد حديث وتنمية مستقلة تهدف إلى الاندماج في الاقتصاد العالمي والاستقلال عنه في نفس الوقت أي الجمـــع بيـــن الـــتكامل والاعتماد المتبادل ؛ التكامل العربي من جهة والتمكـــن فـــي قطاعـــات معينة في السوق العالمية لتكون قاعدة انطلاق وطنية وقومية للحفاظ على أو للانطلاق إلى استقلال ما في إطار الحركة العامـــة للسوق العالمية والمعولمة، والمزج بين القطاع العام المدعوم من الدولـــة والقطاع الخاص الوطني بعيداً عن البيروقراطية وهيمنة ووصاية أجهـــزة الأمـــن والتخطيط المركزية وفق الاستراتيجية التنموية التي تتيح تعاون وتكامل القطاعين على قاعدة النموذج التنموي المقترح.

5- العمل الفكري لتأسيس ثقافة حديثة قومية ووطنية تنأى بمنطلقاتها عن ثقافة التبعية، والثقافة التقليدية تستند على العلم والتقانة والمعلوماتية والعقلانية، ونـــبذ الصراعات الإيديولوجية بين الموروث والوافد وبين التقليد والتجديد ، هدفهـــا تكـــريس بناء شخصية المواطن العربي الحر الفاعل -المفكر ، كفـــردية تـــتطلع إلـــى المستقبل بعيداً عن الدوغما ، والسلفية والوضعية

---

[1] *الإصلاح الاقتصادي، ما هو أبعد من التعديل الهيكلي.د.إيليا حريق مجلة المستقبل العربي العدد 296 الشهر العاشر لعام 2003م*

وتبعات التاريخ الزاهر، لبناء شخصية الإنسان المكافح بدون شعارات صاخبة، الساعي إلى تحقيق تكامله مع أقرانه في مجتمع عربي حر والعامل على بناء وطن ودولة واقتصاد تكفل مواجهة التبعية وعلاقاتها في إطار الاستراتيجية المقترحة لتحقيق هذه الأهداف.

6-أيديولوجيا سياسية للحشد والتعبئة الجماهيرية، يكون هدفها خلق وعي تنموي عند جماهير الشعب، وضمان مشاركة منظماتها المهنية والشعبية والأحزاب السياسية المعارضة والحاكمة في جهد التنمية وخططها وفي تنفيذها وتمويلها، بما يكفل الرقابة والتقويم والمحاسبة على منجزات الهيئات الحكومية، ويعزز دور القطاع العام، ويجعل القطاع الخاص شريكاً فاعلاً وليس طفيلياً يتسلق على منجزات القطاع العام، يستغل الأموال العامة دون مساهمة فعلية حقيقية. والتركيز على مكافحة الفساد والهدر في الأموال والموارد العامة و الاستهلاك الخاص والعام، وإعادة بناء الأجهزة الإدارية والقضاء ومؤسسات التعليم وهيئة الموظفين بتطهيرها من المرتشين وغير المؤهلين، وإعدادها لكي تقوم بدورها بفاعلية، وبما يكرس وظيفتها الحيوية في تسهيل إعادة الإنتاج الاجتماعي والاقتصادي والمساهمة في ترشيد وتصويب عمل الإدارة العامة، وتخليصها من الروتين والإجراءات الشكلية، لفتح أبواب التنافس أمام الكفاءات، لتحقيق ما تراه كفيلاً بتطوير الاقتصاد وتحقيق إنجازات تنموية مناسبة، وتصحيح دور الدولة كمساهم فعال ونشط في عملية التنمية والإنتاج والإدارة.

7-إن خطورة إنتاج النخب المثقفة على مسار عملية التحرر من التبعية تعود إلى الأهمية التي تضطلع بها الأفكار والتصورات والخطط والبرامج التي تدخلها إلى الحقل المعرفي والثقافي والسياسي القومي و الأيديولوجي على أنها حلول حداثية لإشكاليات الفكر والثقافة العربيين المأزومين، بينما هي في الجوهر مسائل وإشكاليات مستوردة تعكس هموم ثقافة ما بعد الحداثة للرأسمالية في مرحلتها ما فوق الإمبريالية والتي تصيبنا لأننا جزء تابع منها، فتعرقل إدراكنا وفهمنا ووعينا المعرفي لطبيعتها وإنشاء المفاهيم العلمية الصحيحة عنها، وتؤدي إلى تداخل مستويات متنافرة من القضايا التي قد لا تكون هي الرئيسة بالنسبة لتطورنا ونمو قدراتنا على الفعل السياسي والاقتصادي والثقافي. فتفجر المتناقضات والصراعات الثانوية

لتضـــعها في المقدمة، وتعيق بل تدمر خططنا النهضوية والتحديثية بتغيير ســلم الأوليات وجعل ما هو رئيسي ثانوي وبالعكس . فنغرق في متاهات الــتعريفات والمصـــطلحات المــنقولة التـــي يجــب أن تظل نتاجاً ثانوياً لممارســتنا النظرية والفكرية والعملية. ولذلك كان على المثقفين القوميين والنهضـــويين والإصلاحيين ومن في حلفهم وصفهم أن يظل فكرهم نقدياً فـــي المـــنهج والطـــريقة عقلانييـــن وعلمانيين تربطهم علاقات وشيجة بأطـــروحات الثقافة الموروثة ومثقفيها ليس للإشادة والافتخار بل لتعميق الحـــوار والفهم بينها وبين ثقافة الآخر، ولتحديد موقعها في ثقافة الحداثة والتحرر من التبعية من منطلق عقلاني ونقدي.

8- العمـــل الفكري الجاد لدراسة وتحليل ظاهرتي العولمة والتبعية من منظور عالمـــي بأبعادهـــا السياســـية والمالية والاقتصادية والثقافية والمؤسساتية والقانونية، والأشكال التي من خلالها تسيطر الإمبراطورية وحلفاؤها من الدول الصناعية المتقدمة على الاقتصاد العالمي والسياسة العالمية، وكذلك مراكـــز القيادة والقرار والمرجعية لهذه الإمبريالية في مرحلتها الراهنة، وتكويـــن مفاهيم علمية عنها في حركتها العامة والخاصة، واستراتيجياتها وأنظمـــتها التـــي بهـــا تدير هذه الإمبراطورية، وتحديد السبل والأدوات والمناهج والأساليب التي تعمل بها ومن خلالها في المجال القومي العربي والقطـــري، والآثـــار السلبية والإيجابية التي تفرضها التبعية على حركة التحرر العربية .

9-السعي لتشكيل تحالف دولي وعالمي من الدول والمنظمات والهيئات الشعبية وجماعـــات الحفـــاظ علـــى البيئة التي أصابت العولمة مصالحها الوطنية والقومـــية ورؤاهـــا الثقافـــية والحضارية للعمل بشكل متكامل والتعاون لمناهضة العولمة والتبعية.

إن حلفـــاً يقـــوم بيـــن دول متساندة بهدف الحفاظ على السيادة والاستقلال الوطني واختيارات حرة للتنمية الوطنية هو وسيلة مناسبة لبقاء هذه الدول والأمـــم حـــرة تتمتع بالسيادة غير المنقوصة في هذا العصر الذي يتميز بهمجـــية وبربـــرية القـــوة الغاشمة التي ترفع رايتها الليبرالية المحافظة الجديـــدة في الغرب الرأسمالي كاستراتيجية لإعادة إخضاع وتأهيل العالم الثالث؛ كي يظل تابعاً يقوم بوظائفه الاقتصادية والسياسية التي حددتها له الرأســـمالية المنتصرة في الحرب الباردة بعد سقوط أول دولة اشتراكية ،

وهو الوسيلة الفعالة لتفكيك تحالف الرأسمالية وتعميق أزماتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية[1].

10- إن أيديولوجيا التنمية المتمحورة على الذات أي إيديولوجيا التنمية الوطنية المستقلة تؤكد على أن هذه التنمية في جوهرها هي تنمية الاقتصاد الوطني بفروعه الأساسية إنتاج وسائل الإنتاج والزراعة والصناعة لتلبية حاجات هذا الاقتصاد وحاجات الشعب بتحديث الصناعة الوطنية وحمايتها من المنافسة في السوق الوطنية، وتقديم الخدمات العامة للطبقات الكادحة- التعليم المجاني في كل مراحله-والصحة والضمان الاجتماعي، والتعويض ضد البطالة والمرض والتسريح التعسفي، وتأمين فرص عمل متساوية للجميع، وحد أدنى من الأجور بما يؤمن تنمية القوة العاملة لتلبية طلب الاقتصاد من اليد العاملة المدربة والمؤهلة. ومكافحة البطالة بزيادة الاستثمار الرأسمالي، من أجل زيادة ملموسة في الدخل القومي وحصة الفرد في الناتج الإجمالي، وتأمين فرص العمل للوافدين الجدد.

كما ترتكز على مبادئ أساسية هي:

1-التضحية من قبل الأجيال الراهنة من أجل مستقبل الأجيال اللاحقة وهي تتطلب ضغط النفقات والاستهلاك العام والخاص، بالتأكيد على التوفير والادخار، لضمان تمويل خطط التنمية.

2-أن تتحمل الطبقات الأغنى العبء الأكبر من تكاليف هذه التنمية عن طريق الضرائب المباشرة التصاعدية.

3 -وجود قطاع عام قائد في المشروعات الرئيسة التي لا يقدر القطاع الخاص على تحمل نفقات وتكاليف تأسيسها وإقامتها، على أن يصار إلى إدارتها وفق الأصول والإجراءات الاقتصادية وعلاقات السوق، وقانون القيمة.

4-مكافحة الفساد واستراتيجية الإفساد التي تستخدمها الرأسمالية المعولمة في بلاد العالم التابع لإعاقة وتدمير أي نهج وطني للتحرر والاستقلال والتنمية الوطنية المستقلة بخلقها لفئات اجتماعية -اقتصادية تعمل لحسابها في السوق الوطنية وفي مؤسسات الدولة البيروقراطية والحزبية والاقتصادية والعسكرية؛ ترتبط مصالحها بمصالح الشركات متعددة الجنسيات عن طريق

---

[1] *راجع كتابنا النظام العالمي الجديد الصادر عن دار الأهالي 1994م*

تخصيصها بحصص صغيرة من الأرباح على مستوى السوق المحلية والعالمية. فتوسع لها في المجال لتهريب الأموال المسروقة والمنهوبة من مؤسسات الدولة ومن المؤسسات الخاصة وحتى لو كانت من تجارة المخدرات والسلاح والعملة وتسهل عملية ضخها وسحبها من بلادها إلى الأسواق المالية الدولية وتستثنيها من حروبها على الأموال القذرة كما تسميها. مما يزيد من حدة التفاوت والاستغلال الطبقي والفقر وتهميش قطاعات عريضة من قوة العمل ويتركها في دائرة الفقر المطلق والنسبي.

في الوضع الراهن لعلاقات التبعية، عندما تتحقق درجة عالية من التصنيع في دول العالم الثالث ، فإن هذا النمو الصناعي لا يجلب سلعاً أرخص ثمناً وعمالة أعلى أو حياة أفضل لجماهير السكان بل يجلب على العكس ازدياد التفاوت في توزيع الدخل وتزايد استقطاب الفئات وتدهور أوضاع موازين المدفوعات مما يفاقم من أعباء الديون[1]، و يعمق التبعية، ويوسع مجال عملها لتنخرط جماهير كثيرة في علاقاتها الكثيفة وتخضع لقوانينها وآليات عملها. فلا تجد ما يحميها من هذا الإخطبوط الذي يعمل على تغيير نمط حياتها و نسق قيمها ويحولها إلى جماهير واسعة من المستهلكين في أنحاء العالم أجمع، فتكنولوجيا الاتصالات الجديدة والثورة المعلوماتية تهدف إلى التوحيد النمطي للثقافة العالمية أي أمركة العالم. بحيث أصبح إنتاج السلع ظاهرة ثقافية من الاقتصاد إلى الثقافة وبالعكس، ولأن الاستهلاك ثقافة أمريكية لذلك يجب أن تحل محل الأنساق الثقافية والنظم الفكرية عند الأمم الأخرى، ولأن وضع التبعية مفروض علينا ويخترق مجمل حياتنا العامة والخاصة طوعاً أو كرهاً فهو يحول ثقافتنا إلى مجرد مردد لهموم المركز الإمبريالي القائد. فنعيد إنتاجها بظلال عربية باهتة وألوان وطنية بائسة، وبأدوات مستعارة تفرضها السياسات التابعة لدولنا السائرة على دروب تعميق التبعية والانفتاح غير المشروط عليها.

تنسف التكنولوجيات الحديثة الاستراتيجيات القديمة للنجاح الاقتصادي، فالثورة الخضراء وثورة علم المواد قللتا من أهمية الموارد الطبيعية في التنمية الاقتصادية، فتوافر الموارد الطبيعية في بلد ما لم يعد يجعله غنياً كما أن عدم توفرها لدى بلد آخر لم يعد عاملاً يحول دون أن يصبح غنياً. وكذلك ثورة الاتصالات والحاسبات الآلية والنقل والإعداد قد سمحت بتوفير مصادر عالمية

---

[1] *البنك الدولي مرجع سابق ص139*

للتزود والشراء وبتطوير سوق عالمية لرأس المال . . . صناعات التكنولوجية البيولوجية تتوقف على المقدرة العقلية وليس على توفر المواد الأولية[1] .

وعلـــى الرغم من انتصارات التكنولوجيات الحديثة وفتوحاتها الهائلة، فإن الـــبلاد التي تمتلك الثروات الطبيعية -مصادر الطاقة وبالأخص النفط والخامات النادرة التي تدخل في الصناعات الدقيقة والتكنولوجيات الحديثة- أصبحت هدفاً للإمبريالـــية فـــي مرحلتها الراهنة، لتستولي عليها كغنائم، ولتستفيد من موقعها الجـــيو-سياســـي الهام والمؤثر في محيطها. وتستخدمها كقواعد للانطلاق في مـــراحل لاحقـــة. فعمدت إلى التدخل في شؤونها لاحتوائها، وعندما لم تستطع عمدت إلى شن الحرب عليها واحتلالها -أفغانستان-العراق- لتكون قادرة على فـــرض نظامهـــا الجديـــد الذي تسعى لبنائه بإعادة تشكيل الوضع الدولي وفق تصـــوراتها الموهومة عن العظمة الإمبراطورية الأمريكية ورسالتها إلى العالم، والتـــي هـــي مـــزيج مـــن الأفكار الدينية المسيحية للكنائس الجديدة والليبرالية الرأسمالية، والديموقراطية المؤولة والمفسرة على أنها حقوق الإنسان الأساسية. وتســـتخدم مـــا تحصل عليه من غنائم لتمويل احتلالها والإنفاق على مشاريعها اللاحقة للهيمنة وتوسيع دائرة الاستعمار الأمريكي الحديث.

10-استراتيجية محتملة للتصدي للتبعية والعولمة:

الجمـــع بين المواجهة والاعتماد المتبادل على مستويات الأصعدة السياسية والاقتصادية يمكن أن يشكل استراتيجية ثقافية في سعينا للتحرر من التبعية وفي ســـلوكنا تجاه نظام العولمة وباستخدام الدهاء بكل ما تعني هذه الكلمة من معان في العربية. طالما أن أهدافنا واضحة وهي ضمان تحقيق تقدم جوهري في خلق حالـــة نهضـــوية. ولا تقـــل مسؤولية الدولة في هذا الصدد عن مسؤولية رجال الأعمـــال الذيـــن يجب أن يفهموا أن مصالحهم هي مصالح وطنهم ولهم فضل الـــريادة فـــيما يجب إنجازه على هذا الصعيد وكذلك العلماء و المفكرين الذين علـــيهم الانخـــراط فـــي إنـــتاج هـــذه الصيغة المعقدة من الجمع بين الممارسة والـــنظرية بـــالحوار والنقد المنهجي والبناء المفاهيمي لجوانب هذه المسألة كما هي موضوعياً وأيديولوجياً في برامج الأحزاب السياسية والفكر السياسي لإغناء

---

[1] الصـــراع على القمة-ليستر تارو -مقدمة الكتاب -كتاب عالم المعرفة -الكويت -ترجمة أحمد فؤاد بلبع

الثقافة السياسية والربط الوثيق بين أصعدتها المتنوعة والممارسة السياسية. كي تظل الأهداف واضحة وملموسة فلا يغشاها الغطاء الأيديولوجي فيحجب مظاهرها وتناقضاتها ، بتسوية إشكالياتها الرئيسة لمصلحة الطبقة المهيمنة أو شرائح منها، فتكون الأخطاء كارثية على مجمل الحركة الاجتماعية.

لا يستوعب مفهوم نمط الإنتاج الكولونيالي ولا مفهوم تخلف التنمية الاقتصادية، ولا مفاهيم التقدم والتأخر ، والغزو الثقافي، ولا الحرب المؤامرة على العروبة والإسلام من قبل الإمبريالية والصهيونية العالمية، لا تستوعب إشكاليات مفهوم التبعية، التي هي في التحليل الأخير مجموع هذه الإشكاليات، ويمكن التأليف بينها في مركب نظري يجب البحث عنه في تطوراتها التاريخية وفي تحققاتها الواقعية وعلاقاتها، بالابتعاد قليلاً أي وضع فكر الحداثة وما بعدها الوافد إلينا من المراكز الإمبريالية المعبر عن ثقافة الطبقات والنخب الحاكمة في النظام الإمبراطوري، بين قوسين لتفحصه ودراسته وتحليله وتركيبه ونقده، لتقصي أبعاد استراتيجيتنا الثقافية والاقتصادية في مواجهة العولمة، ومدى استقلالية إشكالياتنا المنهجية في طرح قضايانا العامة والخاصة ضمن إطار الوحدة والكلية والصراع، قوانين الديالكتيك الأساسية، ليظل فكرنا قادراً على ممارسة التأليف والتجاوز المنهجي على طريق تحصين حالتنا النهضوية، وتصحيح الأخطاء وبعث الحياة المتجددة دائماً في فكرنا المكافح من أجل التحرر.

وهذه العملية هي وقفة لإعادة النظر والتفكر نقدية ومنهجية في مجمل أفكارنا وممارستنا لنستبين حقيقة ما أنجزناه ولماذا لم نستطع تجاوز حدود التبعية، بل زادت روابطنا الاقتصادية والسياسية والثقافية توثقاً بالنظام الرأسمالي ودوله المتقدمة وخضوعاً للدولة الإمبراطورية التي وصلت إلى قلب الوطن العربي واحتلت العراق وهي تعمل بكل تصميم على إعادة رسم وتشكيل الخريطة الجديدة للوطن العربي لخدمة استراتيجيتها الكونية ودولة الصهاينة حلفائها في فلسطين.

إن المواجهة مع الإمبراطورية في مرحلة تشكلها الراهنة، يجب ألا تصيبنا بالإحباط والتراخي ، لأن أمماً وشعوباً أخرى تشاطرنا همومنا وقلقنا وتعاني مثلما نعاني منها ، وهي في صف المواجهة معنا. وكذلك الطبقات الاجتماعية في مراكزها الرئيسة، البروليتاريا الجديدة وبقاياها القديمة، والناشطين من أجل السلام والبيئة النظيفة والمثقفين والمفكرين الطامحين إلى عالم أكثر عدلاً وأمناً.

وجميع هؤلاء يشكلون الجبهة المقابلة لعنف وبربرية علاقات التبعية التي تفرضها هذه التشكيلة الاجتماعية-الاقتصادية على العالم. وكما أن تكريس علاقات التبعية يتم بأشكال متنوعة ، وبأساليب مختلفة. فإن على استراتيجية محتملة ضد العولمة والتبعية أن تهدف إلى زج أكبر عدد من القطاعات الشعبية والصناعية والرأسمالية في هذه المواجهة وفق برنامج الحد الأدنى الوطني والقومي.

هنا لا بد من التذكير بالدور الذي يمكن أن تقوم به نوادي رجال الأعمال العرب التي يمكنها أن تصبح واحدة من القنوات الرئيسة في استراتيجية الحد من التبعية ، فهي تملك من الوسائل والأساليب والعلاقات المالية والسلعية والتجارية، ولها نصيب كبير ومساهمة في السوق العالمية والشركات متعددة الجنسيات وهي جزء عضوي من منظومة العولمة العالمية، ما يؤهلها للقيام بدور وطني ريادي في هذا السبيل إن أرادت ذلك[1]. وإن وعت مصالحها الخاصة والوطنية والقومية، ووفرت الدولة الوطنية لها ما تعتقد أنه مصالحها الرأسمالية، وأشركتها في برامجها الوطنية كحليف موضوعي، ولنا في تجربة اليابان وكوريا الجنوبية وماليزيا ما يشجع على سلوك هذا الطريق. . إن هؤلاء سيظلون أسرى الصراع بين مصالحهم الموضوعية في وطنهم ومصالحهم الذاتية في السوق العالمية، والوصول إلى توازن مقبول هو الذي سيضعهم في الصف الوطني أو ضده ويحدد موقفهم من قضية الاستقلال والتبعية، ولذلك يجب أن نضمهم إلى التحالف الوطني لمناهضة التبعية.

11-إعادة الإعمار ماذا تعني من وجهة نظر الإمبريالية. ؟

للجواب على التساؤل ماذا يعني أن تستخدم الولايات المتحدة في غزوها للعراق عراقيين من حاملي الجنسية الأمريكية والبريطانية في إدارة شؤون العراق وتشكل منهم مجلساً انتقالياً لحكم العراق تحت مظلة الاحتلال

---

[1] *ورد في الأخبار الصحافية المتداولة وتحدث أحد المحاضرين في ندوة دبي حول الإصلاح في الوطن العربي وفي القطر السوري على وجه الخصوص.أن أكثر من مائة مليار دولار أمريكي قد هُربت من القطر السوري إلى الخارج وهي تستثمر في مشاريع مختلفة في كل أنحاء العالم. كما أن أكثر من خمسمائة مليار دولار من الأموال العربية تعمل في أسواق المال الدولية، وهي تعود لرجال أعمال عرب يعيشون ويعملون في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.*

الأمريكـــي-الإنكلــيزي لإعـــادة ما أطلقت عليه (إعما ر العراق) . وكانت قد استخدمت حامد قرضاي الأفغاني حامل الجنسية الأمريكية ونصبته رئيساً على أفغانســـتان بعد أن احتلتها. ومن قبل جاء رئيس وزراء بولونيا المنافس لتحويل بولونيا إلى الرأسمالية من الولايات المتحدة، كما أن زعيم المعارضة الجيورجية (ساكشــيفللي) التـــي أسقطت شيفارندزة الرئيس الجيورجي الموالي لأمريكا هو أيضـــاً من حاملي الجنسية الأمريكية وقد عمل محامياً في الولايات المتحدة قبل أن يعـــود عام 2000م، ويصبح وزيراً للعدل في حكومة شيفارندزة، وهو اليوم مرشـــح المعارضـــة لانـــتخابات الرئاسة الجيورجية وقد أصبح الرئيس الثاني لجمهورية جورجيا بعد انفصالها عن الاتحاد السوفييتي. والجواب هو أن مرحلة جديـــدة قـــد بدأت تفصح عن نفسها لبناء الإمبراطورية وقد أخذت تتحقق على الأرض وترتسم ملامحها في الواقع.

كـــان هـــدف الغـــزو العسكري الاستعماري الذي قامت به أوروبا لقارات العـــالم القديم والجديد منذ القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين هو احتلال دول وبلدان وشعوب وأمم هذه القارات، وجعلها مستعمرات ترسل إليها بفائض الســـكان وممـــن يعتبرون خطراً على أمنها الداخلي ، ولجعلها سوقاً لتصريف منـــتجاتها الصناعية ومجالاً لتصدير الرساميل إليها لاستثمار ثرواتها الطبيعية وخامـــات المعادن وأراضيها الزراعية الغنية، و استغلال اليد العاملة الرخيصة فـــيها، وتحويلهـــا إلـــى قواعد عسكرية لحماية طرق التجارة الدولية البحرية و الـــبرية واســـتخدامها في الصراع على النفوذ والهيمنة على الأسواق والمناطق الغنية بالمواد الأولية.

المرحلة الجديدة الثالثة في الغزو الإمبريالي في عصر العولمة غيرت من الأهـــداف والوســـائط وإن ظل الجوهر واحداً، ويمكننا تلمس ذلك في إعلانات الغـــزاة الأمريكيين والإنكليز للعراق ، بأن هدفهم الاستيلاء والاحتلال و إعادة إعمـــار العراق، وتحريره من الاستبداد وأسلحة الدمار الشامل!!والحقيقة التي لم يفصـــحوا عـــنها هـــي احـــتلال العراق والسيطرة على ثرواته النفطية(الغنيمة الكـــبرى) ومؤسســـاته العلمية وعلمائه لتوظيفها في خدمة بناء الإمبراطورية. بالتأثـــير المباشـــر في إعادة تشكيل وتكوين الوطن العربي. وتحديد مكانته في النظام العالمي الجديد كمنطقة هيمنة ونفوذ للتحالف الأنكلو-أمريكي- الصهيوني كمـــا جاء في خطاب كولن باول وزير الخارجية الأمريكي أمام مجلس الشيوخ الأمريكـــي فـــي آذار 2004م . ومشـــروع الشرق الأوسط الكبير والإصلاح

المقـــترح والذي أقرته قمة الدول الثمان في الولايات المتحدة(حزيران 2004م هو من الخيارات الاستراتيجية الأساسية للإلحاق والتبعية.

إذن تتطلـــب إعـــادة الإعمـــار أكثر من الاحتلال العسكري والاقتصادي والسياســـي، تتطلـــب تغيـــير الفكر والثقافة والتاريخ وسلم القيم ومفاهيم الدين الإســـلامي والجغرافيا لبناء وطن جديد هو الشرق الأوسط الجديد كما عبر عنه شمعون بيريس رئيس وزراء الدولة الصهيونية المحتلة الأسبق في فلسطين في كتابه المعنون بهذا الاسم (الشرق الأوسط الجديد).

إن استراتيجية التأهيل والتكييف الإمبراطورية لتغيير الثقافة والفكر والعقل ومـــنظومة الديـــن الإســـلامي، وتعمـــيق الإلحاق والتبعية تقتضي جعل النخب الحاكمـــة أمريكية الجنسية كي تكون إعادة الإعمار في العراق سياسة أمريكية داخلية، وكي يكون العراق الجديد جزءاً عضوياً من الإمبراطورية. وقد صرح نائب وزير الدفاع الأمريكي وولفويتز بأن مسألة إعادة إعمار العراق هي مسألة تخـــص الأمـــن القومي الأمريكي، ولذلك ستُحرَم الشركات والمؤسسات التابعة للدول التي عارضت الحرب الأمريكية على العراق وبالأخص (فرنسا وألمانيا) من العقود والعطاءات الخاصة بإعادة إعمار العراق، وستقتصر على الشركات الأمريكـــية والشـــركات التي تنتمي إلى العراق والدول الحليفة التي ساهمت في دعم الحرب الأمريكية لاحتلال العراق[1].

فالعراقـــي حـــامل جنســـية الإمـــبراطورية والموظـــف في وزارة الدفاع الأمريكية والذي يساهم في حكم وطنه الأصلي كممثل للإمبراطورية يشبه تماما ولاة سوريا والعربية ومصر وأفريقيا في الإمبراطورية الرومانية الذين كانوا قد حصـــلوا علـــى المواطنة الرومانية وتسموا بالأسماء الرومانية، وتثقفوا بالثقافة اللاتينية . فالإمبراطورية على طريق التحقق تستخدم نفس الأساليب في إخضاع الوطـــن العربي الحديث، وهذه إحدى اختراعات الفكر الاستراتيجي الصهيوني الباحـــث عـــن ســـبل لكسر إرادة القومية العربية وكنس الفكر القومي العربي، وتدمير الإسلام الجهادي.

حـــاملو الجنسية هؤلاء اعتبروا احتلال الغزاة الأمريكان والإنكليز لوطنهم انتصاراً لهم وتحريراً؛ وقرروا اعتبار يوم سقوط بغداد بيد الجيش الأمريكي في

[1] تصريحات وولفوفيتز في 9 كانون الأول 2003م وقد أذاعتها هيئة الإذاعة البريطانية

9 نيسان 2003م عيداً قومياً ، وهم يحلمون بالانضمام إلى الإمبراطورية الأمريكية التي تعدهم بجعلهم قادة وحكاما، بينما تفرض على الشعب العراقي نمطا أمريكياً للعيش والمعايير الأخلاقية يتعارض والمعايير العربية الإسلامية، تماماً كما كانت روما أيام ازدهار إمبراطوريتها في القرون الأولى للميلاد تمنح رعويتها للقادة العسكريين والبارزين في جيوشها(وقد يذكرنا اسم الجنرال جون أبو زيد الذي أصبح قائداً للقيادة الوسطى الأمريكية الذي تتبع لقيادته القوات الأمريكية في العراق، والوطن العربي وأفغانستان، وهو لبناني الأصل بقادة الفيالق العرب في الجيش الروماني). كما أن للعلماء ورجال الأعمال والتكنوقراطيين والمثقفين الذين يحصلون على الجنسية الأمريكية أدواراً مشابهة سيلعبونها في المستقبل في الأقطار العربية الأخرى، عندما تستدعي حاجة الإمبراطورية ذلك. فقد يصبحون أعضاء في مجلسي الشيوخ والنواب الأمريكيين أو حكاماً للولايات الأمريكية أو رؤساء على الإمبراطورية أو قادة جيوش، مثلما استطاع قادة الفيالق العرب في الجيش الروماني أن يتوصلوا لتنصيب أنفسهم أباطرة في روما.

لقد جاء في الأخبار المتداولة أن أكثر من أربعين ألف جندي ممن شاركوا في غزو العراق في عداد الجيش الأمريكي كانوا من طالبي الجنسية الأمريكية، وأن الإدارة الأمريكية قد جعلت الشرط الأول أمام هؤلاء للحصول على الجنسية هو تطوعهم في الجيش الأمريكي كمرتزقة للقتال في غزو العراق. ويذكرنا هذا بما كانت تفعله روما لتجنيد جيوشها بعد تحولها إلى الإمبراطورية، وذلك بمنح المنخرطين في فيالقها الرعوية الرومانية أي الجنسية.

إننا أمام استراتيجية إمبريالية جديدة كوسموبوليتية المظهر، حداثية المضمون إمبراطورية تجعل أمن الإمبراطورية، فوق كل الاعتبارات الأخرى الاقتصادية والسياسية، وتحشد له جميع الموارد والإمكانيات والحلفاء والتوابع، وتخضعهم لهذه الغاية، وهذا من علامات الوهن والضعف مما سيفاقم من مشكلاتها الاقتصادية والسياسية، ويعجل في انهيارها كقوة عظمى وحيدة. وستكون من نتائجه القريبة على المستوى العربي، ظهور طبقة سياسية جديدة عربية اللسان أمريكية الجنسية والولاء من التكنوقراط والعسكريين ورجال الأعمال ومديري الشركات متعددة الجنسيات ومن المثقفين والإعلاميين، ستقوم بدور الحليف والتابع للإمبراطورية والناطق باسمها والنخبة التي تتولى إدارة الأقاليم التابعة لها، والجيش المرتزق الذي يحمي احتلالها، وهذا تحول نوعي

علينا أن نتهيأ لفهمه وكيفية مواجهته.

12-حروب العولمة الاستباقية من أجل تبعية أشد وأقوى:

يقول جون آدامز الرئيس الثاني للولايات المتحدة الأمريكية بين1797-1800م منظراً للدور الإمبريالي الأمريكي (لطالما نظرت إلى توطيد واستقرار أمريكا بتبجيل وتعجب مثل افتتاح مشهد عظيم من العناية الإلهية من أجل تنوير الجهالة وعتق الجانب المستعبد من الإنسانية في كافة أنحاء الأرض).

الدبلوماسية القسرية أو استراتيجية القسر والقهر الإمبريالية هي طريق الإمبراطورية الأمريكية لإعادة تشكيل العالم لخدمة النظام الرأسمالي العالمي. وفي إطار هذه الاستراتيجية تندرج استراتيجية الحرب الوقائية التي جعلتها الولايات المتحدة الأمريكية بعد 11أيلول 2001م عقيدة قتالية لتشريع الحرب العدوانية على كل من تقرر أنه يهدد مصالحها أو تعلن بأنه يهدد أمنها القومي . فتعددت الحروب التي تخوضها في وقت واحد ، والتي تشكل بمجملها حرباً شاملة ومستمرة كي تعالج أزماتها الاقتصادية والمالية والسياسية، وتعيد الاستقرار إلى الرأسمالية كنظام إنتاج عالمي ودولة وثقافة وحضارة بعد تفاقم أزماتها وترنحها تحت وطأة مقاومة الشعوب المكافحة للتحرر الوطني من مظالمها واستغلالها ونهبها لثرواتها ولقواها المنتجة. هذه الحروب العدوانية الظالمة تبرز الحاجة الماسة للثورة على هذا النظام الجائر وأزماته المستعصية التي تستلزم شن الحروب الدائمة وقمع الشعوب بشكل وحشي باستخدام الأكاذيب والذرائع لإقناع العالم بعدالتها وهي فاقدة لأية مبررات أخلاقية. فهي شرعية القوة الغاشمة التي تستبيح كل القيم والمعايير التي أنتجتها الإنسانية في تاريخها المديد.

يمكننا أن نعدد هذه الحروب في المرحلة الراهنة على الشكل التالي:

1- الحرب على الإرهاب.

2- الحرب لمنع انتشار أسلحة الدمار الشامل .

3-الحرب على الفقر.

4- الحرب على المخدرات .

5- الحرب على الأمراض المستعصية والوبائية والغامضة المنشأ.

6-الحرب على الأموال القذرة .

7- الحـــرب علـــى الهجـــرة غير الشرعية أي الحرب لمنع تدفق القوى العاملة(العمالة غير الماهرة والنساء والأطفال). ودوران اليد العاملة بالتوازي مع دوران رأس المال العالمي.

8-حـــروب الهويـــات التـــي نشـــأت بفعل استراتيجيات التفتيت والتجزئة وأيديولوجـــيات الليبرالية الجديدة لإعادة استعمار العالم القديم معتمدة على هشاشة المجتمعات السياسية في بلدان العالم الثالث والتدخل في شؤونها الداخلية لإرغامها على الخضوع لاستراتيجيتها الكونية.

جـــاء فـــي مقـــال في مجلة الثقافة العالمية(إن تحسين الصحة وإطالة حياة الفقراء هما غاية بحد ذاتها وهدف أساسي للنمو الاقتصادي). وكذلك ما أوردته مـــنظمة الصحة العالمية في تقرير لها تنصح المستثمرين من البلدان الغنية بأن يستثمروا أموالهم في مشروع صحي واسع النطاق باتجاه البلدان الفقيرة، [1] .

هـــذه الحروب تُشن إذن لغايات خاصة من أجل التغلب على أزمات نظام الإنـــتاج الرأســـمالي الذي يولد الفقر ويساهم في تدهور الصحة العامة لملايين الناس، ويعمل على نشر الأمراض الفتاكة التي هي من منتجاته المباشرة وغير المباشرة في سعيه من أجل الأرباح والهيمنة. فالرأسمالية الإمبريالية المالية في حقـــبة العولمـــة تـــزرع الفوضى والدمار في كوكبنا الأرضي وتسعى إلى نقل نشـــاطها إلـــى الفضاء الخارجي للسيطرة عليه وجعله امتداداً لمجالها الأرضي لاستغلاله لمصالحها الخاصة واحتكاره وادعاء ملكيته مستقبلاً. لأن العالم الثالث غـــير قادر على القيام بأي مسعى في هذا السبيل وهو الغارق في تخلفه وفقره ومشـــاكله الأرضـــية التـــي فرضتها عليه هذه الإمبريالية. فالفوضى التي هي الجوهر الكامن في حركة الرأسمالية وبنيتها ونظامها الإنتاجي، تجعل الكوارث البيئية والحروب المستمرة والمدمرة للآخر جزءاً عضوياً من أسلوبها وحركتها.

لقـــد تأســـس نمـــط الإنـــتاج الرأسمالي وتوطد وتوسع ليشمل العالم القديم والجديد عن طريق الحروب الطويلة والقصيرة والحملات والغزوات العسكرية فـــي مشرق الأرض ومغربها التي استمرت أكثر من ثلاثة قرون حتى عصرنا الحديـــث . تغـــيرت الرأسمالية وأنظمتها السياسية والقانونية والثقافية خلالها ، وغـــيرت العالم معها، فأوجدت التشكيلات الاقتصادية -الاجتماعية التي تتلاءم

---

[1] *جون-بيير لينتين- مجلة الثقافة العالمية عدد أيلول- تشرين الأول -2003- ترجمة محمد الدنيا-رقم120*

وتستجيب لبنيتها وأهدافها وحاجاتها المادية والروحية، ورسخت مفاهيمها الحقوقية والأخلاقية ومعاييرها القيمية وثقافتها الحديثة حيناً بالدولة الملكية المستبدة وحيناً آخر بالدولة القومية الليبرالية والجمهورية الديموقراطية ، وإن لم تنفع فبالديكتاتوريات الحديثة، وبالثورة الاجتماعية الطبقية والوطنية التحررية. ثم اخترعت الدولة البرجوازية الحديثة –الدولة الأمة– والدولة التوتاليتارية الشمولية حيثما كانت البرجوازية حاملة نسقها الثقافي والفكري ضعيفة. تتوسل بتحالفها مع القوى الاجتماعية التي تيسر لها سبل الهيمنة والنهوض بتوسيع وتعميق أسلوب الإنتاج الرأسمالي وصولاً إلى سيطرتها الشاملة على السلطة والدولة والمجتمع. وعملت خلالها على تأسيس الهيئات والمؤسسات المبتكرة المالية والاقتصادية والسياسية والثقافية لخدمة استراتيجيتها الكونية في تشغيل رساميلها المتراكمة باستمرار ، والبحث عن أسواق خارجية ومناطق جديدة لاستثمار هذه الكتلة المالية الهائلة، أو بتوسيع قائمة المخترعات والسلع الصناعية أو بتجديد أساليب الإنتاج لتتكيف مع تعاظم الثورتين التقنية والعلمية، على الطريق لحل أزماتها الدورية ومشكلاتها السياسية كلما تقدمت واقتربت من النضج والتفتح في مراكزها المتقدمة وانتشارها في العالم القديم.

وكانت الحرب وظلت قانونها الرئيس للتغلب على الفوضى التي تنتجها في سياق حركتها العامة والخاصة، والمشاكل التي تهدد بانهياراتها، واندحار الرأسمالية كأسلوب إنتاج ، وكنظام اجتماعي وسياسي ، وكثقافة للقوة المنفلتة من عقالها، وكحضارة تستخدم العنف لبلوغ أهدافها. مئات الحروب بين دولها الرئيسة ومثيلاتها على العالم القديم والجديد منها حربان عالميتان مدمرتان الحرب الأولى1914-1918م والثانية 1939م -1945م هذا عدا عن الحروب الباردة والأهلية حتى تشكل النظام العالمي الجديد.

لقد قامت الرأسمالية ببناء دولتها القومية على اقتصاد منغلق داخلياً يعمل لتلبية حاجاته الخاصة بعيداً عن الضغوط الخارجية، أي أنها جعلت العلاقات الخارجية الاقتصادية والسياسية في خدمة نمو الاقتصاد الوطني-تشجيع الصادرات والحد من الواردات وفتح الأسواق الخارجية سلماً أو حرباً وبكل الوسائل العسكرية والدبلوماسية والاكراهية القسرية، وجمع الثروة المتمثلة آنذاك بالمعدنين الثمينين –الذهب والفضة– وتكديسها في مصارفها المركزية وزيادة حجم قواتها المسلحة والتفوق في ميدان اختراع الأسلحة الفتاكة والمدمرة، والتي بها كانت تقاس قوة أية دولة على مسرح السياسة العالمية.

بيـــنما تدعـــو الـــيوم الدول التابعة لتحرير التجارة وفتح الأسواق ومنع انتشار أســـلحة الدمار الشامل التي تهدد بها وتجبر الآخرين على الخضوع لإملاءاتها كدولـــة إمـــبراطورية تـــرعى بل تفرض تقسيم العمل الدولي وتعاقب الآخرين وتحثهم على الالتزام به طوعاً أو كرهاً.

اضطرت الأمم والشعوب التي هُزمت في هذه الحروب أمام التكنولوجيات الحديـــثة والأســـلحة الفتاكة وقوة التدمير الرهيبة التي طورتها الدول الرأسمالية إلى الخضوع مؤقتاً والقبول بالاستعمار والاحتلال المباشر لأراضيها، واستغلال قواهـــا العاملة وأراضيها الزراعية الخصبة ونهب ثرواتها إلى حين. ثم أعلنت الـــثورة والمقاومة المسلحة للحد من سيطرة المستعمرين ومظالمهم، وفي سبيل الحفـــاظ علـــى هويـــتها ومـــن أجـــل استقلالها الوطني والخلاص من الهيمنة والاحتلال الأجنبي ، والتخلف والتبعية ، وقد عبر فرا نز فانون في كتابه معذبو الأرض عـــن المغزى العميق لمعنى الثورة في المستعمرات كطريق لاسترداد الهويـــة القومـــية والمعاني الإنسانية للتحرر الوطني والحقوق الأساسية للإنسان والشخصية الحضارية لهذه الأمم التي عملت الإمبريالية على هد مها وتدميرها فـــي إطـــار ســـعيها لإلحاقهـــا القســـري والقهري بمنظومتها وإمبراطوريتها الاستعمارية .

لقـــد ساهمت حروب التحرر الوطني، في إبراز وكشف مضمون وجوهر الرأســـمالية كـــنظام قمعـــي وحشي وبربري، وديكتاتوري للطبقات البرجوازية الحاكمـــة، التـــي أســـست الدولة الرأسمالية الحديثة في أوروبا الغربية وأمريكا الشـــمالية، مركـــز قـــيادة هذا النظام العالمي الجديد. و استطاعت الشعوب من خلالهـــا وبعـــد ســـنوات طـــوال من التضحيات الكبيرة من تحرير بلدانها من الاحـــتلال العسكري المباشر بعد أن أصبحت كلفته المادية والبشرية للرأسمالية الاســـتعمارية غالية وغير اقتصادية. وقد ساهمت أول دولة اشتراكية في العالم بعد الثورة البلشفية الروسية 1917م في قطع حاد في بنية هذا النظام الرأسمالي وساعدت الشعوب المكافحة من أجل التحرر الوطني على نيل استقلالها.

فالإمبريالية التي حددها لينين بأنها أعلى مراحل الرأسمالية والتي أظهرت ثـــورة تشـــرين الثانـــي1917 م البلشفية إمكانية استبدالها بالاشتراكية العلمية، والماركســـية اللينينـــية كـــنظام إنتاج جديد لصالح العمال والفلاحين والشعوب المقهـــورة. هـــذه الإمبريالية التي كانت قد أنهكتها أزماتها الدورية التي صاغ مـــاركس قوانيـــنها في كتابه -رأس المال- والحروب الطاحنة بين دولها على

استعمار العالم القديم والجديد، وكفاح الطبقة العاملة في بلدانها ، والمقاومة المتصاعدة للشعوب ضد الاستعمار. وقد لاحت بوادر هزيمتها على المستويين الداخلي والخارجي آنذاك، مما دفعها للشروع بإصلاح أدواتها ومؤسساتها وإعادة صياغة قوانينها . فجعلت علم الاقتصاد السياسي العلم الأول في جامعاتها من أجل تطوير النظرية الاقتصادية للرأسمالية. ولتبدع في الممارسة أشكالاً جديدة للأسواق الوطنية والعالمية وللمؤسسة الرأسمالية تمثلت بالشركات المساهمة والاحتكارات العملاقة القومية والعالمية والمصارف الكبيرة ، واتحاد الرأسمال المالي والتجاري بالرأسمال الصناعي في مركب رأسمالي حديث هو الإمبريالية. أخذ يستبدل بالاحتلال العسكري المرهق مالياً وبشرياً تحت وطأة المقاومة المسلحة المتنامية وحروب الشعوب ضد الاستعمار والاحتلال العسكري المباشر، التبعية الاقتصادية والثقافية.

إذ عمدت إلى استخدام استراتيجيات التنمية وآليات السوق العالمية للتحكم بالرساميل والتكنولوجيات والثورة العلمية في مجال تخليق واختراع الخامات البديلة اصطناعياً بدل الطبيعية، والاستثمارات والأسواق المالية الدولية، مستغلة نتائج الحربين العالميتين الأولى والثانية في القرن العشرين لإعادة توزيع القوى فيما بين مراكزها الأساسية وتشكيل العالم الرأسمالي، بكنس الاستعمار القديم وإمبراطورياته في إطار الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية والحروب الساخنة مع حركة التحرر الوطني العالمية. وعملت على تعميم الاستعمار الجديد أو الإمبريالية في أعلى مراحلها وفق الشروط الاقتصادية. وإذا لم تنفع فبفرضه بالقوة العسكرية حيناً والقوة الاقتصادية حيناً آخر. وبالسيطرة على حركة الرساميل والمديونية، بإنشاء الأسواق المالية الدولية ، والشركات متعددة الجنسيات والاحتكارات العالمية وتحرير التجارة العالمية. لتكون هذه المقدمات المادية والثقافية والسياسية قاطرة التحولات الجديدة لما سُمي بالعولمة، أي ما بعد الإمبريالية التي امتزج فيها السياسي- الاقتصادي بالثقافي، ودخلت الدولة الرأسمالية كمؤسس وراع ومساهم وحليف عضوي لهذه الأشكال الرأسمالية.

لقد أسفرت في هذه المرحلة عن طبيعتها التي كانت مموهة خلال الحرب الباردة بعد انهيار أول دولة اشتراكية في العالم بسقوط الاتحاد السوفييتي في العقد الأخير للقرن العشرين لتعود الرأسمالية المنتصرة بكل قوتها وعنفها إليه وإلى توابعه في أوروبا الشرقية. التي انخرطت في مؤسساتها الحديثة كشريك عضوي

في رسم خريطة العالم الحديث تحت قيادة الدولة الأعظم الوحيدة الولايات المتحدة الأمريكـية. رأسمالية ما بعد إمبريالية-ليبرالية- محافظة -مستبدة عدوانية شريرة بـلا قـيم ولا أخـلاق ولا أهـداف إنسانية. تعمل لبسط سيطرتها وهيمنتها ليس الاقتصادية بل العسكرية والسياسية والثقافية، فتشكلت مجموعة الدول السبع الأكثر تقدماً ثم ضمت إليها روسيا على سبيل التعويض بدون أن يكون لها أثر سياسي أو اقتصـادي على قيادتها للاقتصاد الرأسمالي في العالم والنظام العالمي الجديد الذي أعلـن الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب 1991م عن تأسيسه بعد انتصاره في الحرب الأولى على العراق في نفس العام.

كـان النظام العالمي الجديد حصيلة التطورات التي أشرنا إليها سابقاً. وقد ولـد وترعـرع في قلب النظام السابق للإمبريالية وهو تجاوز من حيث البنية والأشـكال المؤسسـاتية الحديثة. أما في الجوهر فهو نفس النظام. وقد افتتحت الدولـة العظمـى الفصـل الأول من تأسيس العولمة بإعادة رسم استراتيجيتها العسـكرية لضـمان سيطرتها الدائمة كما تتوهم على العالم ولإعادة تشكيله بما يؤمـن لها ذلك الهدف[1]. فوضعت استراتيجية الحرب الاستباقية الوقائية لمنع أية دول من تنمية قواها العسكرية والاقتصادية لتتوازن معها أو تشكل نداً قادراً علـى تهديـد سيطرتها العالمية، ومنع قيام أية حرب تحرر وطني على غرار حرب فيتنام التي هُزِمت فيها عام 1975م .

وشـرّعت لنفسها سلسلة من الحروب لتحقيق هذه الاستراتيجية. وبالتحالف والتنسـيق مع الصهيونية العالمية ودولتها المحتلة لفلسطين أعلنت الحرب على حركة التحرر الوطني العربية تحت شعار مكافحة الإرهاب. لتعلن أن كل مقاوم لاحـتلالها ولعدوانها إرهابي يمكنها أن تعتقله في أي مكان في العالم، وتأتي به لـتحاكمه فـوق أراضيها بموجب القانون الأمريكي أي إن القانون الأمريكي قد

---

[1] أعد مجلس الأمن القومي الأمريكي تقريراً حول الأمن القومي الأمريكي بعد انتهاء الحرب الباردة وانتصار الرأسمالية على الاشتراكية وأذيع التقرير في 14 آب 1991، ومما أذيع مـنه هذه الفقرات (إن الحفاظ على الأوضاع الراهنة في العالم وبخاصة حدود الدول كما رسـمتها اتفاقـيات الكبار في أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية والمعاهدات التي أنشـأت بموجبها تلك الدول، ولكن الولايات المتحدة غيرت من استراتيجيتها تلك وقامت بتفكيك يوغسلافيا والصومال والكونغو ودول أخرى لما رأت مصلحتها تقتضـي ذلك.وفي الـتقرير أن علـى الولايات المتحدة ألا تسمح ببروز أية قوة دولية منافسة لها على قيادة العالم.

أصبح هو القانون الدولي، بداية لتأسيس الدولة الإمبراطورية الجديدة.

[-فبعد الهجوم على مركزي التجارة العالميين وتدميرهما في نيويورك والهجوم على البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن) في الحادي عشر من أيلول 2001م. أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن الحرب على الإرهاب مجبراً العالم كله على السير وراءه رافضاً أي موقف حيادي من أي طرف كان بهذا الخصوص. مستخدماً الأمم المتحدة كهيئة دولية لإصدار قرار الحرب باسم الدول جميعها. وشمل قرار الحرب منظمات وجمعيات وهيئات في جميع أنحاء العالم ، وعلى رأسها منظمة القاعدة التي اتهمها بأنها المسؤولة عن هذه الهجمات، وتضمن القرار إعلان الحرب الشاملة على أفغانستان مركز القاعدة وحركة طالبان التي تؤويها، وتجميد أرصدتها المالية فيما سُمي تجفيف منابع وتمويل الإرهاب، وملاحقة خلاياها في كل أنحاء الكرة الأرضية.

(إن اتحاد الراغبين كما يقترح بريجنيسكي تسميته، وهو مجموعة الدول التي تخوض حرباً إلى حد ما مع المسلمين سواء كانت روسيا أو الصين أو - إسرائيل- أو الهند ينبغي النظر إليها على أنها شريكة طبيعية ورئيسية لأمريكا. ويجب استخدام القوة الأمريكية لإعادة ترتيب الشرق الأوسط باستخدام القوة الأمريكية باسم الديموقراطية وإخضاع الدول العربية لإرادتها واستئصال التطرف الإسلامي وجعل المنطقة آمنة لإسرائيل. والمهمة الكبرى التي ستواجه الولايات المتحدة لمدة جيل على الأقل في سعيها إلى تعزيز الأمن العالمي هي العمل على تهدئة منطقة تحتوي على أعلى تركيز في العالم للظلم السياسي والحرمان الاجتماعي والاحتقان الديموغرافي واحتمال اندلاع أحداث عنف بالغة القسوة، وإحلال السلام فيها ثم تنظيمها بشكل تعاوني، فالإسلام ككل معاد في جوهره للغرب والديموقراطية وموصوم بنزعة متأصلة نحو التطرف الأصولي فأصل المشكلة ثقافي وفلسفي، مما يشكل تهديداً إسلامياً للحضارة الغربية [1]. هذه الموضوعات التي يعتبرها بريجنسكي مبررات للحروب الاستباقية، كانت وما زالت أيديولوجيا استعمارية وإمبريالية منذ القرن الثامن عشر عصر صعود الرأسمالية وسيطرتها كنظام إنتاج عالمي، وهي لا تتغير إلا بالصياغة وترتيب الأولويات. وترى كوندليزا رايس مستشارة الأمن القومي للرئيس الأمريكي جورج بوش الثاني(إن النجاح على المدى الطويل لمحاربة

---

119 الاختيار- السيطرة على العالم أم قيادته -مرجع سابق-ص-47- 102

الإرهـــاب الإســـلامي يتطلـــب بالإضافة إلى الأعمال العسكرية وشن الحروب الاســـتباقية اســـتخدام جمـــيع عناصـــر القـــوة القومية الدبلوماسية والمخابرات والأعمـــال الخفية وتطبيق القانون والسياسة الاقتصادية والمساعدات الخارجية والسياسات العامة للدفاع عن الوطن. . ومساعدة شعوب الشرق الأوسط الكبير وشمال أفريقيا بتوفير الوظائف وزيادة فرص الوصول إلى رأس المال وتحسين معـــرفة القـــراءة والكـــتابة والتعليم وحماية حقوق الإنسان وتحقيق التقدم نحو الديموقراطية. . ولقد ضاعفنا جهودنا لمساعدة البرامج الإذاعية والتلفزيونية في الشـــرق الأوســـط بمعدل الثلث من 30 مليون دولار إلى أربعين مليون دولار وأنشـــأنا إذاعـــة ســـوا باللغة العربية ومحطة الحرة الفضائية. . سوف تحارب أمريكا وسوف تكسب حرب الأفكار. [1]

لقـــد فلســـفت الاســـتراتيجية الأمريكـــية أسباب الإرهاب بحسب قاموسها السياســـي بأنـــه ابـــن الفقـــر في العالم الذي كان مستعمراً ، وبذلك جردت من وصفتهم بالإرهابيين من أية صفة وطنية أو كفاحية أو أخلاقية وأعلنتهم عصاة مجرميـــن ومتمرديـــن علـــى الحضـــارة والثقافة الرأسمالية؛ هدفهم التخريب والتدمير، مع أن القيادات والكوادر الرئيسة لهؤلاء العصاة هم من أبناء الطبقات الميســـورة، ويقـــيمون علاقـــات متميزة مع الشركات والعائلات المالية الكبيرة ومـــنهم عائلـــة بوش(التي ورد في الأخبار المتداولة أنها تقيم علاقات معينة مع عائلـــة ابن لادن السعودية). فزعيم تنظيم القاعدة (أسامة بن لادن هو ملياردير وأيمـــن الظواهـــري نائـــبه طبيـــب ومـــثقف)، وهذا يدحض ادعاءها ويكذب أطروحـــتها. فقـــد تناســـت الظلـــم الـــذي أوقعته بشعوب هذه البلاد بسياساتها الاســـتعمارية الـــبربرية وحروبها المدمرة واحتلالها لأراضيها وتفتيت وتمزيق أوطانهـــا وإقامة الكيانات العنصرية فيها بعد تشريد أهلها كما فعلت في فلسطين ومـــا تعملـــه مـــن أجل سحق وتدمير الهوية القومية لها. فسلوك المقاومة في مواجهـــة الإمـــبراطورية باتباع أساليب حرب العصابات بالهجوم على مصالح الإمبرياليـــة فـــي جمـــيع أنحاء العالم. سواء كان باستخدام الأيديولوجيا الدينية الأصـــولية الإســـلامية أو الماركســـية الشـــيوعية الملحـــدة أو القومية الثورية الديموقراطـــية لا يغـــير مـــن طبيعة المقاومة ولا يجردها من أخلاقياتها، ومن شرعيتها من أجل تحرير الأرض واسترداد الهوية والسيادة والبحث عن طريق

---

[1] *خطاب كونداليزا رايس في معهد السلام الأمريكي –آب 2004.*

حضاري وثقافي آخر ينزع عن هذه الرأسمالية المتوحشة أساليبها غير الإنسانية ومطامعها ومظالمها والكوارث التي أنزلتها ببلدان العالم الثالث. من أجل إيقاف الاستغلال والنهب والإبادة المنهجية والمخططة لسكانه لإحلال غيرهم في أرضهم وطردهم منها كما فعل الصهاينة، ويفعلون في فلسطين ويفعل المحتلون الأمريكان في العراق.

لقد استخدم اليمين المحافظ الذي تسلم السلطة في أمريكا مع رئاسة جورج بوش الابن في بداية 2001م في معركة انتخابية شابتها الشكوك وعقدت فيها الصفقات لإعلان فوز بوش على منافسه آل غور نائب كلينتون الرئيس الديموقراطي السابق نظراً لتقارب الأصوات التي حصل الاثنان عليها كما أُعلن في حينه. استخدم هذا اليمين أحداث الحادي عشر من أيلول 2001م لتكون القابلة التي ستعلن ولادة الإمبراطورية في خضم الحرب العالمية على ما سماه الإرهاب الإسلامي. قال عنها بوش في أول خطاب له بعد حادثة تدمير برجي التجارة العالمية في نيويورك إنها حرب صليبية جديدة، وقال عنها نائب وزير الخارجية الأمريكي إنها الحرب ضد الشيطان. ووصفها أحد الجنرالات [بأنها حرب المسيحية الطهرية ضد الوثنية الإسلامية]. وأعلن جون كيري المرشح للرئاسة الأمريكية عن الحزب الديموقراطي في خطاب أمام مجلس العلاقات الخارجية(يجب علينا أن نطلق حملة واسعة مخصصة لردم الهوة التي تفصل الإسلام عن سائر العالم، إنها الوسيلة الوحيدة لنسقط ثقة الجماهير الإسلامية بالمتطرفين الذين يشجعون الإرهاب) .

وهكذا تحولت الحرب على الإرهاب إلى حرب معلنة على حركة التحرر الوطني المناضلة ضد العولمة والإمبريالية والاحتلال العسكري المباشر وهيمنة الثقافة الرأسمالية الأمريكية. وقد أخفت أهدافها تلك مستفيدة من ممارسات المنظمات الأصولية الدينية التي تخطت النضال السياسي ليكون قتالها معلنا أيضاً ضد كل مظاهر الثقافة والحضارة الغربية نوعاً من رد الفعل الطفولي الأهوج المدمر بلا آفاق سياسية ملموسة؛ مما أعطي لأساطين الطبقة السياسية الحاكمة من اليمين الديني المحافظ أيضاً في الولايات المتحدة المبررات الإعلامية والإيديولوجية لتجنيد وحشد الشعوب والدول ضدها، ولتجعل حربها على المناضلين من أجل الحرية والاستقلال في فلسطين والعراق حرباً على الإرهاب، ملغية كل الفروق والحقوق والشرعية التي نصت عليها شرعة الأمم المتحدة بحق كل شعب بالدفاع عن وطنه وأرضه وسيادته بوجه الغزاة من أين

جاؤوا، ومهما كانت جنسياتهم وشعاراتهم وذرائعهم. وهاهي تشن حرباً عالمية شاملة على العروبة والإسلام؛ جبهاتها تتخطى الحدود والدول وتشمل القوات المسلحة والاقتصاد والسياسة والثقافة تنخرط فيها أعداد كبيرة من الجنود المرتزقة والعملاء والوطنيين، وتختلط الحرب السرية فيها بالحرب المعلنة، فهي كما أرادها اليمين المحافظ الذي يقود الرأسمالية الأمريكية حرب ثقافة وحضارة ضد ثقافة وحضارة بحسب نظرية صموئيل هنتنجتون المفكر الأمريكي المعروف بنظريته حول صدام الحضارات، حرب على الثقافات المغايرة لثقافة الرأسمالية الأمريكية.

2- وتتصدر الحرب على الإرهاب الحروب الباقية، وفي مقدمتها الحرب على الفقر التي مظهرها نبيل وإنساني وحقيقتها تعميم نمط الإنتاج والاستهلاك الرأسمالي وتوسيعه وحل أزماته ، عن طريق زيادة عدد المستهلكين القادرين على الشراء لسلعها ومنتجاتها المتجددة والوفيرة في كل أنحاء العالم. كي تستطيع زيادة كتلة أرباحها وتوسيع السوق العالمية بلا حدود. قالت سوزان رايس مساعدة وزير الخارجية الأمريكية السابقة في ملاحظاتها في مؤتمر الاستراتيجية الأمريكية الجديدة للأمن والسلام في واشنطن في تشرين الأول 2003م(إن أمننا لن يتحقق طالما أن نصف سكان العالم يعيشون بأقل من دولارين يومياً، وإن لم يكن إلا من باب المصلحة الأنانية، يجب علينا أن نقر أن مكافحة الفقر لا يعني سكان العالم الثالث فحسب وإنما الولايات المتحدة أيضاً).

ويساعد في الحرب على الفقر، تأسيس مجتمع عالمي من رجال الأعمال مهمته تعميق الرأسمالية ومعالجة أزماتها بالتعاون مع الدولة الإمبراطورية. ومواجهة خطط التنمية الوطنية المستقلة في العالم الثالث لإفشالها والتخلص منها بكل الوسائل. (الحرب السرية القذرة والحرب المعلنة) وسياسات الحصار وفرض العقوبات الاقتصادية، ومنع تصدير أنواع معينة من التكنولوجيات المتقدمة. وسياسات الإفساد ونشر الفساد في الحياة العامة(الرشوة ونهب وسرقة المال العام ودفع العمولات الكبيرة لإبرام العقود والصفقات على حساب المصالح الوطنية. . . .). وحظر تدفق الرساميل التي هي بحاجة ماسة إليها، بفرض الشروط القاسية التي تمس بالسيادة ، وتصادر الإرادة الوطنية من أجل إخضاعها وإعادتها إلى حال التبعية والهيمنة. مما يزيد من الإفقار النسبي والمطلق، ويعرقل مساعيها التنموية لزيادة الدخل الوطني ومستوى الأجور

لتأميـن حـياة مقبولة لجماهير السكان فيها. جاء في تقرير مركز الاستخبارات القومي الأمريكي لعام 2005م أن الهوة بين الفقراء والأغنياء ستتسع ما لم تتبع الدول الفقيرة سياسات تدعيم التكنولوجيات الحديثة بإجراءات سياسية مثل الحكم الصالح والتعليم الشامل وإصلاحات السوق[1]

إن تحسـين الصـحة وإطالـة حـياة الفقـراء وتمكينهم من شراء السلع الرأسـمالية هـي غايـات بحد ذاتها كهدف للنمو الاقتصادي الرأسمالي، تعمل مؤسسـات الرأسـمالية على إعادة إنتاجها وفتح آفاق جديدة لاستثماراتها لتصل إلـى آلاف الملـيارات مـن الدولارات[2]. وتشكل الشركات متعددة الجنسيات العاملة فيها أكبر الاحتكارات العالمية النافذة القوة سياسياً واقتصادياً.

3- وتأتـي الحرب على (الأموال القذرة)أي الأموال التي تأتي عن طريق تهريـب المخـدرات والسـلاح خارج سيطرة ورقابة مؤسسات العولمة البنكية والمصـرفية والمالية والجمركية والأسواق المالية، ولا تخضع للقوانين السائدة في الدول الرأسمالية، ولا تمر في القنوات المصرفية العالمية؛ هذه الأموال تثير الفوضـى والاضـطراب في حركة الرساميل التي تتحكم بها المؤسسات المالية الاحتكارية، وتشكل كتلة نقدية كبيرة تؤدي إلى زعزعة أسعار صرف العملات الرئيسة، وتهدد بأزمات حادة على مجمل حركة رأس المال العالمي. فكان لابد مـن الـرقابة علـيها وفرض العقوبات على حركتها ومنع تدويرها في حركة الرأسـمال العالمـي إلا بالطـرق التي حددتها الدول قائدة العولمة، وبما يخدم مصالح تلك الاحتكارات[3].

وتـندرج هـذه الحرب في إطار الحرب المعلنة على المخدرات والتجارة الدولـية بهـا ومنتجـيها ومهربيها، وإصدار القوانين والتشريعات التي تخترق قوانيـن سـرية الحسابات المصرفية وحقوق مالكي رأس المال بإبقاء أسمائهم وودائعهـم سـرية؛ هذه القوانين التي سرعان ما تصبح قوانين دولية تفرضها

---

(1) *المرجع السابق*

(2) *فقـد بلغ الإنتاج العلمي حسب فروع المعرفة الأساسية 1985م(البيئة والصحة41,5%في أوروبـا الغربيةو40% في الولايات المتحدةو8%في كومنولث الدول المستقلة و8% في اليابان. وعلوم البيولوجيا الأساسية في غرب أوروبا 36,3% وفي أمريكا الشمالية44%.*

(3) *بلـغ حجم الأموال المغسولة حسب دراسة جديدة صادرة عام 2003م 1500مليار دولار أمريكـي أي ما يعادل 5% من الناتج الإجمالي العالمي.*

الدولـــة الإمـــبراطورية علـــى الدول التابعة وتضطر الدول المنافسة إلى قبولها والعمل بها.

4-إن الحرب على المخدرات هي أسطع برهان على نفاق وكذب الدعايات الإمبريالـــية، فقد استخدمت الرأسمالية الإمبريالية المخدرات في غزوها وفتحها للعالميـــن القديـــم والجديد لتوسيع تجارتها ونهب بلدان هذين العالمين ولتحطيم اقتصـــادها وتدمـــير القوى المنتجة فيها. وخاضت الحروب الاستعمارية تحت شعارات حرية استهلاك الأفيون والاتجار به، ففي أربعينيات وخمسينات القرن التاســـع عشـــر شنت الدول الأوروبية مجتمعة بقيادة الإمبراطورية البريطانية الحرب على الصين[1]، التي منعت هذه التجارة غير القانونية لحماية سكانها من تعاطـــي هذه المادة المخدرة وبالتالي حماية ثرواتها الوطنية، فأجبرتها على فتح أســـواقها وتوقـــيع معـــاهدة تجارية تلتزم الحكومة الصينية المهزومة بموجبها بالاعتراف بحرية الاتجار بهذه المادة المدمرة لصحة مواطنيها، وبالامتناع عن فـــرض الضـــرائب علـــى دخولها وتعاطيها، ورفع جميع القيود التي كانت قد اتخذتهـــا من قبل وذلك لتسهيل رواجها كي تجني الشركات الرأسمالية الأرباح الطائلة، لتحقيق التراكم الرأسمالي الضروري لإعادة تجديد الإنتاج وتوسعه. لقد تورط حلفاء الولايات المتحدة في أمريكا الوسطى وحلفاؤها في آسيا في تهريب المخدرات، وهناك أسباب وجيهة تفسر الصلة بين وكالة الاستخبارات المركزية والمخـــدرات، فالإرهاب السري يتطلب أموالاً خفية، والعناصر الإجرامية التي تـــتجه إلـــيها وكـــالات الاستخبارات بطبيعة الحال تتوقع تعويضاً بالمقابل، إن اشـــتراك واشنطن الطويل الأمد في عصابات المخدرات هو جزء لا يتجزأ من عملياتها الدولية لا سيما خلال إدارتي ريغان وبوش[2].

---

[1] *حـــروب الأفـــيون التي شنتها الدول الأوروبية الرأسمالية آنذاك تحت قيادة الإمبراطورية البريطانـــية علـــى الصـــين بين 1839م-1843م 1856م-1860م التي انتهت بخضوع الصـــين وقـــبولها لإملاءات التحالف الدولي الاستعماري بمبدأ الباب المفتوح أي الإعفاء الضريبي والجمركي للبضائع المستوردة من بريطانيا وحلفائها ومن المفارقات في الحرب الأمريكية المعلنة على المخدرات أنها وبعد احتلال أفغانستان من قبل القوات الأمريكية في إطار الحرب المعلنة على الإرهاب بعد أيلول 2001 زادت المساحات المزروعة بالمواد المخدرة وزاد إنتاج كميات الأفيون المهربة إلى الخارج ، عما كانت عليه في عهد حكم حركة طالبان.*

[2] *إعاقة الديموقراطية -مرجع سبق ذكره -ص142- 143*

ولقد تغيرت استراتيجيتها هذه بعد أن أصبح مواطنوها وحدهم قادرين على شراء هذه المواد، وإليها تتجه تجارة المواد المخدرة لأسباب متنوعة في مقدمتها الاستلاب والاغتراب اللذين ينتجهما نمط الإنتاج الرأسمالي والقلق والأمراض النفسية الاجتماعية المصاحبة والتي لا يمكن التغلب عليها في إطار الاستغلال وساعات العمل الطويلة والانضباط الصارم للعمل إلا عن طريق تعاطي المواد المخدرة.

5-وبعد تدويل رأس المال على المستوى العالمي والتحكم بتدويره وتوظيفه وتدفقه في الأسواق المالية وتراكمه في الشركات والمصارف العملاقة متعددة الجنسيات. كان لا بد من خطوة مصاحبة حسب قوانين الرأسمالية العالمية بتدويل قوة العمل الدولية وجيش العمل الاحتياطي على مستوى عالمي كي يتم التناسب بين مستويات الأجور في السوق العالمية للعمل. ولكن الرأسمالية المتقدمة والإمبريالية العالمية رأت في مثل هذا التطور خطراً يهدد مصالحها ومستوى الربح الذي يضمن لها هيمنتها وسيطرتها العالمية والذي يسمح لها باستغلال قوة العمل الرخيصة في العالم الثالث لجني أعلى معدل للربح. ولذلك اتخذت كافة السياسات والإجراءات لمنع تدفق قوة العمل وجيش العمل الاحتياطي في العالم الثالث إلى أسواقها المحتاجة لها، وإبقاء الأجور عند الحد الأدنى الذي يسمح بإعادة إنتاجها اجتماعياً.

وكي يظل هذا الجيش جاهزاً تحت الطلب للعمل لحسابها في أوطانه التي باشرت في نقل صناعاتها الملوثة للبيئة إليها من جهة، ولتظل ممسكة بالتوازن الاجتماعي في بلادها لخفض الصراع الطبقي إلى الحد الأدنى بما يجنبها أهوال الثورة الاجتماعية من جهة أخرى؛ أعلنت الحرب على ما سمته الهجرة غير المشروعة إلى المراكز الرأسمالية وحواضرها الصناعية والمالية، بعدما أصدرت قوانين جديدة صارمة للهجرة إليها تحد من الهجرة وتفرض الغرامات المالية والعقوبات القاسية بالسجن وإعادة التهجير لكل من يخالفها. في حين أفقرت الحواضر القديمة ودمرت الزراعة والحرف الموروثة ونهبت ثرواتها الطبيعية والمنجمية ، وشجعت حلفاءها من الطبقات الكومبرادورية وأنظمة الحكم الاستبدادية في العالم التابع على تهريب أموالهم وإيداعها في أسواقها المالية، وفي سندات الحكومات الرأسمالية ومصارفها الخاصة؛ مما ساهم في زيادة معدلات البطالة وتوقف خطط التنمية بعد تعثرها.

والمفارقة المثيرة في هذا الصدد أن هذه الرأسمالية وعن طريق اتفاقية-

الغـــات- تعمـــل و بكـــل الوسائل، فتخترع القوانين وتستخدم قوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية لتحرير حركة الرساميل في الأسواق المالية؛ مدمرة أية فرصـــة للتنمـــية القومـــية المســـتقلة، وذلك عن طريق تحرير التجارة السلعية العالمـــية، وإزالة العراقيل وفتح الحدود أمام حركة الرساميل. وفي نفس الوقت نراها تعمل وبضراوة لمنع حركة جيش العمل الاحتياطي العالمي إلا في حدود الـــدول وبموجب اتفاقيات خاصة، في حين يعمل فرع من عملائها على تشجيع تهريـــب وهجرة النساء والأطفال لبيعهم في مراكزها الزاهرة لممارسة الدعارة والأعمال الهامشية الأخرى.

6- وجـــاء إعلان الحرب على الأمراض المستعصية والوبائية والغامضة المنشـــأ، وهـــي أمـــراض زادت وانتشـــرت بفعل الاستغلال الوحشي للموارد الطبيعـــية وتدمير البيئة بتلويثها بالغازات والفضلات السامة الكيماوية؛ ونتيجة الاستهلاك الجائر لكل ما هو متاح في كوكبنا الأرضي بدون النظر في عواقب هذا التوسع في الهدر واستهلاك الموارد الطبيعية، دون اتخاذ إجراءات الحماية والوقايـــة اللازمتيـــن. وفي سبيل جني الأرباح وخلق مجالات جديدة للاستثمار الرأسمالي حصل التوسع في تأسيس شركات الأدوية العملاقة والأبحاث العلمية في مجال الصحة والبيئة. لأن تحسين الصحة وإطالة حياة الفقراء وتمكينهم من شـــراء الســـلع الرأســـمالية هـــي غايات بحد ذاتها تشكل هدفاً لتوسيع السوق الرأســـمالية العالمـــية بلا حدود. وتشكل الشركات متعددة الجنسيات في مجال الـــبحوث العلمية والهندسة الوراثية والأدوية والعقاقير الطبية أكبر الاحتكارات العالمـــية صـــاحبة النفوذ في مجال العولمة، (التي هي أوروبية وأمريكية مثل شركة روش وشركة باير واحتكار نسلة وسيبا وويلكومب. وفارمر.......).

والإمبرياليـــية كمـــا زرعـــت الفقر وأنتجته وجعلته مطلقاً في العالم التابع، زرعـــت الأمـــراض أيضـــاً كوســـيلة للتحكم الديموغرافي، فنقلت الفيروسات والجراثيم والحميات عبر السوق العالمية، ونشرتها لتصبح أوبئة تحصد الملايين من الناس، فيما هي تزيد من أرباحها في إنتاج الأدوية والمواد الطبية الصناعية والطبيعية، وتوظيفها في الفروع الصيدلانية والكيماوية كفرع رئيس وأساس في التوســـع الرأسمالي الحديث، ولتكون احتكاراتها وشركاتها متعددة الجنسيات هي الأكـــبر في هذا المجال في الرأسمالية المعولمة. فأعلنت الحرب على أمراض الإيدز وجنون البقر والسرطان والسارس وأمراض القلب في بلادها وهي حرب نبـــيلة من حيث المظهر العام. إلا أنها تخفي الأهداف الحقيقية لها فبقدر ما تنفق

مــن الأموال على صحة مواطنيها، تترك العالم المتخلف غير القادر على دفع نفقــات مكافحة هذه الأمراض ودفع فاتورة الأدوية غالية الأثمان. يتخبط ليموت أبناؤه في مخطط شيطاني لاستنزاف قوة العمل ، ومنع التراكم الرأسمالي اللازم لتنمية ممكنة في هذه البلدان.

تقــدر منظمة الصحة العالمية أن أحد عشر مليون طفل يموتون سنوياً في عــالم المنتصــرين في الحرب الباردة في(العالم النامي) من جراء عدم استعداد الأغنياء لمساعدتهم[1].

ويأتــي تخريــب البيــئة في هذا السياق بسبب الاستغلال المنهك للموارد الطبيعــية والاستهلاك والهدر المتزايد وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، ســعياً وراء الأربــاح دون التبصر بعواقب هذه الأعمال وآثارها الضارة على الــتوازن البيئي وصحة الإنسان؛ مما عرض الكوكب الأرضي لمخاطر قاتلة، وزاد مــن انتشــار الأمــراض المستعصــية بسبب ما عممته هذه الرأسمالية المتوحشة من أطعمة وأنظمة غذاء. وما استخدمت من مواد كيماوية وهرمونية لـزيادة الإنــتاج الزراعي والحيواني والصناعي، فأدى إلى ثقب الأوزون الذي تــتحدث عنه المؤسسات العلمية في الغلاف الجوي للأرض مما رفع من درجة حــرارة الكوكب، وما قد ينتج عنه من تغييرات مناخية وإشعاعية تجعل الحياة علــيه محفوفة بالمخاطر وزيادة عدد الأمراض المستعصية. كل ذلك في سبيل فتح الآفاق أمام مجالات جديدة لاستثمارات رأسمال المتراكم والذي تزداد كتلته لتشكل فقاعة مالية تهدد بالانفجار، وتهديم هذا النمط الإنتاجي غير الإنساني[2].

7- والحــرب الأشد عدوانية وبربرية هي تلك التي أعلنتها الإمبراطورية الأمريكية قائدة هذه المرحلة من تطور الرأسمالية على ما سمتها الدول المارقة، ونعتتها الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن بدول محور الشر، وهي الدول التي تحاول امتلاك التكنولوجيات الحديثة لتطوير قدراتها الدفاعية والصناعية للدخول

---

[1] *المرجع السابق ص276-ويستشهد بأقوال المدير العام للمنظمة هيروشي ناكاجيما الذي قال (بأن هذا القتل الجماعي الصامت إنما هو مأساة يمكن منع حدوثها لأن لدى العالم المتطور مــن المصادر والتقانة ما يكفي للقضاء على الأمراض الشائعة في العالم بأسره، ولكن هذا العالم يفتقر إلى الإرادة لإسعاف الأقطار النامية.*

[2] *لقد انسحبت الولايات المتحدة الأمريكية من معاهدة كيوتو للحد من انتشار الغازات المسببة لثقــب الأوزون، لأنها تقيد إنتاجها الصناعي باعتبارها أكبر بلد في العالم يستهلك وينشر هذه الغازات.*

إلـــى عـــالم الحداثة عالم القوة العسكريـة والعلم والثقافة الحديثة وامتلاك أسلحة الدمار الشامل الرادعة. وكانت الحرب على العراق واحتلاله من 20آذارإلى 9 نيسان2003 م بعد حصار طويل لم يشهد له التاريخ القديم والحديث مثيلاً، وقد اســتمر لأكثر من اثني عشر عاما من 1990-2003م هي فاتحة هذه الحروب التي لن تنتهي إلا بانتهاء هذه الرأسمالية الشريرة.

هــذه الإمبريالــية هي التي طورت أسلحة الدمار الشامل الذرية والنووية والكــيماوية والجرثومية والليزرية واستخدمتها في حروبها ضد بعضها البعض وضــد الشــعوب المناضلة من أجل حريتها في العالم التابع. فالولايات المتحدة الأمريكــية هـــي الدولة الوحيدة في العالم التي استخدمت السلاح الذري عندما ألقــت قــنابلها الذرية على مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين في آب عام 1945م لتنهي الحرب العالمية الثانية بمشاهد مروعة للتدمير والقتل لن ينساها اليابانــيون ولا العالم كله. واستخدمت الأسلحة الكيماوية والجرثومية في حربها علـــى الفيتنام في الستينات من القرن الماضي وقصفت العراق في حرب الخليج الأولـــى باليورانــيوم المنضب، وهو من أسلحة التدمير الشامل، واستخدمت في حــربها الثانــية مـــا شاءت من أسلحة الدمار الشامل دون أن يسألها أحد عن جرائمها ضد الإنسانية هذه.

هــذا الســجل الحــافل بالأعمال الإجرامية لدولة لم تعرف سوى الحرب والإبـــادة الجماعــية للشعوب التي واجهتها في القارة الأمريكية والعالم، تتصدر اليوم قيادة الرأسمالية العالمية لتحارب من أجل منع انتشار أسلحة الدمار الشامل تحت ذريعة حماية أمنها القومي كإمبراطورية وأية مفارقة هذه، الدولة صاحبة الســجل الأكــثر دموية في تاريخ العالم(أبادت قبائل الهنود الحمر سكان أمريكا الشــمالية الأصــليين ويــتراوح عددهم بين عشرة وعشرين مليونا وفي أمريكا الجنوبــية والوســطى وجنوب شرقي آسيا تاريخها حافل بالمذابح ضد الشعوب والجماعـــات) تنصّب من نفسها حامية للسلام والحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان الأساسية، فتعلن الحرب على من تريد ، عائدة بالعالم إلى شريعة الغاب والقـــوة الغاشمة. فهل يفيق هذا العالم ليقف في وجه هذه الإمبراطورية التي لم يعــد لهـــا مـــن هدف إلا خدمة أمنها القومي الذي أصبح يشمل الكرة الأرضية والفضـــاء الخارجـــي، وتعيش على حساب شعوب العالم، فتفرض الجزية على الأمـــم الــتابعة بأســـاليب شتى وتنهب الثروات القومية وتستولي على الموارد الطبيعــية لــتكون تحت حمايتها ورعايتها لتتصرف بها كما تشاء وتتصور أنه

أمنها القومي.

8-حـــروب الـهويـــات، ومـــا يمكن تسميته بالحروب الثقافية التي شجعتها وخططـــت لهـــا الإمبريالية الأمريكية في مرحلة العولمة لتفتيت وتجزئة الأمم والـــدول التـــي تعتـــبرها هامـــة لأمنها القومي ، أي تلك التي تقع في مناطق اســـتراتيجية أو غنية بالنفط أو المعادن النادرة اللازمة لصناعتها. مثال (الحرب فـــي البلقان التي أدت إلى تفتيت يوغوسلافيا، والحرب على العراق عاملة على تفتيـــته إلـــى دويـــلات طائفية وعرقية، والحرب في السودان وغيره من بلدان أفريقيا).

هـــذه الحروب وما سيتبعها من حروب بمسميات أخرى على كل ثائر من أجـــل الحـــرية والاســـتقلال والعدالة الاجتماعية والمناهض للعولمة والرافض للهيمـــنة، والمناضل من أجل بيئة نظيفة، وأولئك الذين لا يقبلون بثقافة العولمة الاســـتهلاكية المدمـــرة للإنســـان كفـــرد وشخصـــية وكجماعة ودولة قومية، ويرفضـــون المعايـــير والقـــيم الأخلاقـــية لهذه الليبرالية المستبدة والمتوحشة، والإيديولوجـــية السياسية التي تروجها كاستراتيجية لنشر الديموقراطية وحماية حقـــوق الإنســـان الأساســـية، التـــي تنتهكها في كل ساعة وفي كل لحظة في ممارســـتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية، من أجل تكريس هيمنتها وســـيطرتها كطـــبقات ونخب حاكمة، هي حروب عدوانية ظالمة وغير شرعية وغير عادلة.

هـــذه الليبرالـــية المتوحشـــة التـــي هي خليط من اليمين الديني والقومي الشـــوفيني والمحافظين الجدد والصهاينة المتلبسين لباس المسيحية، قد اخترعت لهـــا أيديولوجية لها كل سمات الدين وتعمل من خلالها على إعادة تشكيل ورسم مســـتقبل العـــالم متوهمة أنها تملك الشرعية الأخلاقية والكفاءة والمقدرة الفائقة لقـــيادة العولمة، وفرض نمط الإنتاج الرأسمالي في مرحلته ما فوق الإمبريالية في أعلى درجاتها على العالم، في حين تقوده في الحقيقة إلى الكارثة.

تفـــرض هذه الاستراتيجية العدوانية على الأمم السائرة على طريق التنمية الـــيقظة والحـــذر، وأن تنفق بعضاً من مصادر دخلها والأموال التي تتوفر لها على بناء قدراتها العسكرية لمواجهة خطر الحرب التي قد تشنها الإمبراطورية ضـــدها في أي وقت، وبأية ذريعة يمكنها أن تخترعها في أي وقت تشاء. وإذا كانـــت بعـــض أراضيها محتلة كما هو الحال في وضعنا العربي الراهن حيث الدولـــة الصـــهيونية المحـــتلة لفلســـطين تحتل أراض عربية في سوريا ولبنان

وفلسطين. فإن الوضع أكثر تعقيداً ويتطلب وضع استراتيجية تأخذ بعين الاعتبار هذه الأوضاع. ليكون الإنفاق على التنمية متوازناً مع النفقات على الدفاع وإعداد القوات المسلحة، لمواجهة العدوان. ولنا في استراتيجية حرب الشعب والمقاومة الوطنية مثال أثبت نجاحه في مواجهة تفوق العدو في الأسلحة والتقنيات الحربية الحديثة التي لا يمكننا مجاراته بها ، وهدفه الأساس إعاقة تطورنا وتنمية اقتصادنا وقوانا البشرية والعلمية والتقنية ، كي يظل متفوقاً علينا ونظل تابعين له لا نستطيع الانفكاك من قيوده وعلائقه التي يكبلنا بها نظراً لتقدمه وتخلفنا.

إن التنمية في ظل التهديد بالعدوان وشن الحروب الاستباقية ، والعلاقات الدولية المتغيرة والمرحلة الانتقالية التي تمر بها الرأسمالية ما بعد الإمبريالية، التي تهيمن على الرساميل والتقنيات، وتعمل على فرض تقسيم للعمل على المستوى العالمي بقوة السلاح والحرب، هي مسألة تحتاج إلى التفكير والتدقيق في اتخاذ القرارات الصائبة الاقتصادية والسياسية، ولكن بدون تردد مع الحزم الشديد في التنفيذ وتهيئة كل الموارد والشروط والقوى البشرية الفنية والمادية للنجاح والتحرر من التبعية، وهي الطريق الوحيد للخلاص من التخلف. فالقضية لا تتحمل الفشل ولا المغامرات الطائشة[1]، مع التأكيد على ضرورة التنمية المستقلة التي تتخلص بشكل ملموس من شروط التبعية والوقوع في فخ الديون والقروض المالية سواء من الدول المتقدمة أو من أسواق المال الدولية.

وانطلاقاً من هذه الشروط فإن البرنامج الوطني للتنمية في الأوضاع الدولية الراهنة، والتطورات العاصفة في مجال التحديث الرأسمالي والتقني، والعلمي والاجتماعي والاقتصادي، يجب أن يتضمن الخطوط الرئيسة للتنمية الشاملة ، تنمية الإنسان بالدرجة الأولى الذي لا يمكن بدونه نجاح أية تنمية وهذا يقتضي دولة ديموقراطية حديثة ومؤسسات تمثيلية منتخبة وحريات أساسية ومجتمع مدني، وتعددية سياسية وحزبية وصحافة حرة ومدرسة حديثة، وجامعات ومراكز بحوث وأكاديميات مهتمة بمشاكل المجتمع والتنمية، والفكر الحر والثقافة الحديثة، ثم تنمية الاقتصاد بفروعه الرئيسة الزراعة والصناعة والتجارة، والخدمات العامة، أي تنمية متكاملة تقيم علاقات متناسبة بين جميع أشكال وهيئات ومؤسسات الدولة والمجتمع وفروع الاقتصاد الوطني على

---

[1] *راجع سمير أمين الاقتصاد السياسي للتنمية في القرن العشرين*

المستوى القطري والقومي.

خاتمة:

سـوف تظل الدولة القومية هي الوحدة المهيمنة على النظام العالمي الجديد علـى الرغم من تحديات العولمة وهيمنة الإمبراطورية الأمريكية، وسوف يبقى نضـال الأمـم والقومـيات ضد السياسات الإمبريالية لها ولحلفائها من الدول المـتقدمة هـو الرافعة التاريخية والمحركة لتاريخ العالم الحديث. لقد اقتضى تدمـير الإمـبراطوريات العبودية وأخرها الإمبراطورية الرومانية وقيام النظام الإقطاعـي كتشكيلة اجتماعية- اقتصادية وأسلوب إنتاج، تأسيس نمط جديد من العلاقـات الاجتماعية على مستوى الدول الإمبراطورية، والملكيات والإمارات فـيما بيـنها وفي داخل المجتمعات الجديدة التي نشأت على أنقاض الجماعات المـنحلة في إطار الفوضى العامة التي أعقبت انهيار العالم القديم. وقد كرست علاقـات القـوة والغزو والفتح طبيعة تلك العلاقات القهرية والقسرية بين من يحملون السيف ويركبون الخيول يحاربون فيقتلون ويُقتلون، ويفرضون سلطانهم علـى حملـة المعـول والمحراث والمطرقة والمنشار الذين يزرعون الأرض ويربون المواشي ويصنعون أدوات الحرث، أو ينسجون أو يقيمون المباني، أي الفلاحيـن والحرفييـن وأصـحاب المهـن الأخرى ومن هم في مستواهم من المثقفيـن. ومـن ثـم ترسخت في أنظمة ومواثيق وعهود وقوانين، بين السادة الإقطاعييـن وبين من صاروا رعايا لهم ، فالأولون يملكون الأرض وما عليها مـن أدوات الإنتاج والفلاحين والحرفيين الذين صاروا أيضاً في أملاك هؤلاء السـادة يُـباعون ويُشـترون مـع الأرض أي تابعين للأرض وللسيد صاحب الإقطاعية مع ملكية محدودة لأدوات الإنتاج والقوى المنتجة .

هـذه التبعـية أسستها علاقات القوة واقتضتها شروط الإنتاج الاقتصادي، وطبـيعة الـنظام السياسي، فهي علاقات تاريخية بين غالب ومغلوب، استمرت حقبة تاريخية مديدة ناضلت فيها الطبقات والجماعات القومية والشعوب التابعة، وثـارت ضـد هـذا الشكل غير الإنساني من العلاقات بأشكال مختلفة وقدمت ملاييـن الضـحايا على طريق التحرر من هذه التبعية، وطورت خلالها ثقافتها وفكرها الاجتماعي والسياسي، واخترعت الوسائط والأدوات التي تساعدها على الخـلاص مـن الإقطاعية وسادتها الذين تحولوا مع الزمن إلى هيئة اجتماعية طفيلية لا تقوم بأي دور حيوي في عملية الإنتاج الاجتماعي، يعيشون من جباية

الريع العقاري الذي يقتطعونه إما بشكل عيني أو بشكل نقدي من إنتاج الأرض والحـرف وأجرة الأسواق والرسوم والضرائب على المنتجات الصناعية وعلى التجارة العابرة في إماراتهم.

وثـارت الشعوب ضد ملوكها أيضاً من أجل التحرر من التبعية والإلحاق ومن أجل دولة حديثة قومية وديموقراطية، وتحطمت علاقات التبعية الإقطاعية القائمـة على الغلبة في مجرى التطور الاجتماعي والسياسي والثقافي والعلمي والفكـري والاقتصـادي ، ليتأسـس شكل حديث للدولة والمجتمع . وقد ورث الـنظام الجديد الذي أسسته الرأسمالية وحملته وجعلته الطبقة الاجتماعية الجديدة التـي كان يطلق عليها اسم الطبقة الثالثة وهي البرجوازية وحلفاؤها من أعيان الـريف والنـبلاء ورجـال الدين الخارجين على طبقتيهما –نبالة السيف ونبالة الـثوب (الإكلـيروس– رجـال الكنيسة) والمفكرين الأحرار المتنورين–جعلته أيديولوجـيا سياسـية وفلسفة وأخلاق وقيم إنسانية وكافحت لتطبيقه، وانتصرت بعد الثورات الكبرى في فرنسا والولايات المتحدة وفي أوروبا كلها بعد حين.

تصـدعت التبعـية الفكـرية والثقافـية للكنيسـة الكاثوليكية، وللملكيات الإقطاعـية، فـي إطار التطور الموضوعي لأسلوب الإنتاج الرأسمالي، ولكنها وبفعـل الوعـي الذاتـي وإرادة النضال الفكري والثقافي والحركة الاجتماعية الواسـعة التي قادتها البرجوازية الصناعية وليدة الأسلوب الرأسمالي والثورات الفلاحـية والعمالية وثورات الشعوب من أجل دولتها القومية، للتحرر من هيمنة الـدول الإمبراطورية. أُزيلت الدولة الإمبراطورية القديمة وتمت تصفيتها لتبرز تبعـية مـن نـوع جديد، – تحدثنا عنها فيما سبق– التبعية التي أنتجها النظام العالمي للرأسمالية في أطواره المتعددة حتى الآن. وللخروج منها لا يكفي تشبه الغالب بالمغلوب الطريق الذي سارت فيه الدول التابعة واعتمدته إيديولوجيا لفك الروابط والعلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية، لأن شروط وأسباب هـذه التبعـية أكـثر تعقيداً وإحاطة من التبعية السابقة التي كانت قمعية قهرية وإكراه بقوة السلاح وعنف مادي عاري بلا توسطات.

التبعـية للرأسمالية هي أوسع وأعمق وتشمل الفكر والإيديولوجيا والثقافة والعلـم والتكنولوجـيا والسـلوك الاجتماعي والاستهلاك ونمط الحياة والعيش. وبالوسـائط الجديـدة المتنوعة –وسائل لاتصال الحديثة والإرسال عبر الأقمار الصـناعية وشـبكات الإنترنـت للمعلوماتية والصحافة المقروءة والمسموعة والمرئية، والمواصلات السريعة ومنجزات التكنولوجيا والثورة العلمية، والسوق

العالمية وأسواقها المتعددة المالية والصناعية والتجارية. تجعل التبعية نمط حياة الملـيارات من الناس الذين تشدهم هذه الرأسمالية إلى نمط فكرها والعيش وفق معايـيرها واستهلاك سلعها وقوانين استغلالها، وتفرض عليهم ما تشاء من قيم وتُهمّشـهم وتُغـربهم فـي أوطانهم وتخلعهم من هوياتهم، ولا تترك لهم الوقت الكافـي للتفكير بمصيرهم الذي ترسمه لهم وهم يسيرون خلفها وعلى هديها بلا قدرة على الانفكاك منها، إنها معضلة على الرغم من الثورات الطبقية والوطنية والقومـية والدينية التي حاولت وتحاول وقف زحفها. وقد قطعت بعض حلقاتها فـي مطلع القرن العشرين بعد انتصار ثورة أوكتوبر البلشفية 1917م والتحرر الوطنـي والانتصـار علـى الاسـتعمار القديم وتصفية مؤسساته وأشكاله في منتصف القرن الماضي.

ولكـن انهيار دولة السوفييت في العقد الأخير من القرن الماضي، وإفلاس حـركة الـتحرر الوطنـي ودولها المستقلة وتحولها إلى دول استبدادية زرعت الدمار والخراب في بلادها وحطمت روحها النضالية أعاد للرأسمالية الإمبريالية المنتصـرة سـطوتها، وكرس قوانينها في الهيمنة والتبعية ، لتستبيح إنجازات الـتحرر والاستقلال؛ مما أوقع حركة التحرر القومي والوطني في شباك التبعية بصـورة أشد وطأة وعنفاً. فالمطلوب اليوم البحث عن طريق جديد لتجاوز هذه الرأسـمالية، انطلاقـاً منها، وأول خطوة على هذه الطريق هو تأسيس الوعي العلمـي لهـا وبها والأدوات العلمية والمفاهيم النظرية التي تشكل ثقافة الثورة القادمة وأيديولوجيا العمل السياسي واختيارات القوى الاجتماعية والسياسية التي سـتتحمل أعباء هذا العمل على المستوى القومي والعالمي. وقد أخذت بالتشكل والاصطفاف كمنظمات وحركات مناهضة للعولمة في داخل المجتمعات المتقدم، وكقـوى سياسـية وأحـزاب معادية للتبعية ومكافحة من أجل عالم مختلف في الـبلدان الـتابعة. وعسـى أن أكون قد رسمت بعض ملامح هذا الطريق بهذه الأفكـار التي أضعها أمام القراء والمثقفين لفتح الحوار من حولها وصولاً إلى أيديولوجـيا سياسية تكون مطابقة لواقعنا ووعينا الذي به سنضع اللبنة المؤسسة لإنجازاتنا في التنمية والاستقلال على طريق تحقيق الوحدة العربية.

■■■

الفصل الثالث:
ثقافة التبرير وثقافة التغيير

إذا لـم تُستَخذ خطوات ما فإن الإنسان قد يهزمه حسه التاريخي(إن الثقل العظيم والأكبر على وجه الإطلاق للماضي يقمعه وينحيه جانباً ويعوق مسيرته كعبء خفي مشؤوم هناك درجة معينة من الأرق من التأمل من الحس التاريخي الـذي يصـيب كل شيء حي، وفي النهاية يدمره سواء كان إنساناً أو شعباً أو حضارة). الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

-1-

العقل التبريري في الثقافة العربية المعاصرة:

هـو عقـل هروبـي أنتجـته الأوقات الحرجة والأزمنة الصعبة، أزمنة الاسـتبداد والهـزائم والضـعف والتخلف. وكرست فيه مجموعة من القدرات الذاتـية، تجعلـه يتعامل مع الوقائع الجارية وأحداث العالم وقضاياه الاجتماعية والسياسـية والاقتصـادية بمنهج التبرير وبوعي عامي يخلو من التفكر العميق والـنظر الدقيق والبصيرة النافذة التي تجهد لتكوين مفاهيم علمية معرفية مقاربة للواقـع. فهـو إما أن يتخطى الوقائع الراهنة، وينطلق في مباريات كلامية إلى الأمـام لـيقدم أوهامـه وأحلامه كبرامج سياسية للمستقبل على شكل شعارات وجمل ثورية بليغة، فلا يكلف نفسه عناء البحث فيما يمكن بالفعل بلوغه وعمله فـي إطار الممكن والإمكانيات المتوفرة، وإما أن ينكص إلى الوراء في عملية المـراجعة والـنقد للأفكـار والممارسات تتخذ شكل هجائيات مدمرة وبكائيات صـاخبة لتسفيه وتشويه كل شيء، في سياق عبثي من الذم والتحقير والتشهير والـتزوير إرضـاءً للـذات المهـزومة والمأزومة في محاولة للتطهر الفردي والجماعي، ولكن الكارثي الذي لا ينتج سوى العصاب الوسواسي القهري .

وهـو كما أفترض نتاج مرحلة التبعية الطويلة التي مازلنا نعيش فيها منذ قـرون، وقد غاب عنها العقل النقدي والمنهج العلمي الحديث. وهو بالتأكيد من مفـرزات سياسـات العـنف والقوة التي ظلت تمارس على الإنسان والمجتمع العربيين سواء من السلطات المعرفية أو السياسية، يضاف إليها علاقات التبعية الثقافـية والاقتصـادية والسياسـية التـي فرضتها علينا الإمبريالية والعولمة المعاصـرة. ومـا تصدر إلينا من أفكار وقيم ومناهج، لا نستوعب إحداها حتى تمسـك بـنا أخرى جديدة وأكثر حداثة وما بعد الحداثة، فتختلط علينا المسائل والإشـكاليات وتـتعقد فلا نستطيع التمكن من العلم، فيلجأ عقلنا لتبسيط القضايا والتعامل بها ومعها على قدر ما يمكن استيعابه منها، فلا يجد أسهل من اختراع الحجـج والذرائع لتفسير حدوثها بما يعكس جوانبها السطحية ويرضي رغباته وطموحاتـه بل لنقل أوهامه أي تبرير هزائمه وانتصاراته بأكبر قدر من توهين العقـل والأسـباب وتعظـيم دور الشروط غير الملموسة. ومن موقع المهزوم والوعي الشقي الذي يفرضه التراث ، ويحدده الآخر صارت ثقافتنا إرهاصات، وردود فعـل أو مقابسـات نتـيجة عقـدة التفوق الحضاري التاريخي أو عقدة القصـور الذاتـي، وتحولات الآخر من الوحش البربري إلى الشيطان المتآمر الـذي حاك خيوط مؤامرة واسعة للإيقاع بنا وتدميرنا وتجريدنا من هويتنا، مما يـزيد من غربتنا وتبعيتنا، فإما الانفصال عنه والاحتماء بديننا الذي هو هويتنا، وإما الاتحاد به واكتناه مثله وقيمه الوصول إلى الحداثة الطريق الوحيد للخروج مـن التبعـية، وإما المراوحة بين هذين الحدين، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الـوراء فتـنغلق الآفاق أمام رؤانا ونهضتنا، ونظل أسرى هذه الإشكالية التي نجـاهد للـتحرر من شبكاتها الكثيفة دون نجاح. فالنظم المعرفية والتصريحات والبـيانات التـي نعمـل مـن خلالها لا نلتقي بها في ميدان التجربة. كما أن المضـامين الموضوعية لطرق تفكيرنا السابقة تتطلب منا أن نعيدها إلى الحياة كـي نسـتطيع تطبيقها على الشيء الحقيقي الوحيد، أي الشخص المفرد، لتكون ثقافتنا خلاقة ومبدعة، أي على الإنسان العربي الملموس الذي هو غاية ووسيلة، نتطلع إليه كأداة فعالة للتغيير والثورة، لأن الإنسان أكبر قيمة في ثقافة النهضة والتحرير، قيمة أخلاقية وقيمة معنوية ومادية.

إن بـناء منظومة أخلاقية يعادل إن لم يتفوق على معايير القيم المادية في عصـر أصـبحت فيه استراتيجية الفساد والإفساد أحد المعالم الرئيسة للعولمة

والسيطرة الكونية الأمريكية[1].

إنهـــا لمشكلة كبيرة، وليست إشكالية تكمن في بنية هذه الثقافة والعقل الذي ينـــتجها، ترجع إلى طبيعة العلاقة المؤسسة لموقعه في عملية المعرفة والثقافة المنـــتجة. فأســـاليب التلفيق بالنقل والاقتباس والتوفيق بالتسوية والمماثلة والنقل والحـــذف والـــتجاوز تجعلـــه بلا هوية. فلقد شوشت المصطلحات الموروثة أو المترجمة عن ثقافة الحداثة التي يتبارى أساتذتنا الأفاضل الذين يعتبرون أنفسهم مرجعـــيات فـــي التراث وفي الترجمة وصياغة ونحت العبارات وإنتاج الأفكار متعمديـــن إحاطتها بالغموض وإلباسها أشكالاً من التأويلات إما براعة منهم أو لعجزهم عن نقلها إلى ثقافتنا بدلالاتها المعرفية، فيعمد عقلنا التبريري إلى هدم المســـافات وملء الفجوات بما هو متوفر في الدارج من معان ومسميات لتصبح الســـاحة الثقافية مزيجاً من المذاهب والفلسفات المتهافتة، فالكل يحاول الانتساب إلى الثورة والتغيير وإلى الاستمرارية والأصالة في وقت واحد. إن التاريخ كما جـــاء في فلسفة هيغل هو في جوهره تتابع تاريخ أشكال الوعي المختلفة بالعالم وبالممارســـات الإنسانية لجعله معقولاً ومفهوماً وصياغة قوانين تطوره، بوضع الإنســـان أمام مصيره ومسؤولياته، ولا يفيد كثيراً هنا الخلط والتلفيق والتوفيق بين المذاهب المتعارضة وتقديم مركب ثقافي بلا هوية.

فالكاتب عبد العزيز حمودة على سبيل المثال عمد في كتبه الثلاثة الصادرة عـــن سلســـلة عـــالم المعـــرفة في الكويت وهي على التوالي (المرايا المحدبة 1979)(والمـــرايا المقعـــرة 1998م)(والخـــروج من التيه 2003م) إلى دراسة مستفيضة للمذاهب النقدية الحديثة وما بعد الحداثة في الغرب الرأسمالي (أوروبا وأمـــريكا) وانعكاساتها في الثقافة العربية المعاصرة. يحدثنا في بداية بحثه عن موقـــف الحداثيـــن العـــرب فيقول(ولم تكن وقفة الحداثيين العرب أمام المرايا المحدبـــة أقصر أو أقل استغراقاً ولم تكن أصواتهم أقل صخباً برغم أن موقفهم المبدئـــي أكـــثر ضـــعفاً. فالحداثة الغربية جاءت نتيجة ثقافة غربية والمصطلح الـــنقدي الحداثـــي إفراز للفلسفة الغربية خلال ثلاثمائة عام من تطورها. وعلى رغم ذلك فإن الحداثة في قلب التربة الغربية خلقت أعداءها والرافضين لها ولم يكـــن المصـــطلح النقدي الجديد أوفر حظاً. فهو يمثل أزمة متجددة لا تفقد قوة

---

[1] *الـــثقافة المقهورة والثقافة المنتصرة –محمد سعيد طالب –دار الوطنية الجديدة ص6– لعام 2000م*

دفعها في لحظة من اللحظات فما بالنا بالنسخة العربية التي نقلت النتائج الأخيرة للفكر الغربي دون أن تكون لها مقدماته المنطقية، واستخدمت مصطلحاً نقدياً يجمع بين غرابة النحت وغرابة النقل إلى لغة جديدة)[1].

ثم يعلن أنه في كتابه الثاني المرايا المقعرة حاول اختراع نظرية عربية جديدة في النقد تستند إلى الموروث العربي البلاغي (وهكذا تحولت في الدراسة الثانية، المرايا المقعرة، إلى محاولة البحث عن نظرية نقدية عربية وهي محاولة قادتني بالضرورة إلى البلاغة العربية في عصرها الذهبي ابتداءً من القرن الثالث الهجري إلى بدايات القرن الثامن على وجه التقريب وليس التحديد. لم تكن تلك العودة مجرد نبش تحت جذور الماضي كما وصفها أحد هواة النقد. كما أنها لم تكن إحياءً للمعركة التي تخطاها الزمن بين الجديد والقديم حسبما سماها آخر أساء قراءة الدراسة بالقطع، ولم تكن بأي حال دعوة إلى التقوقع داخل شرنقة الذات في دعوة انتحارية إلى العزلة الثقافية في عصر أصبحت العزلة فيه ترفاً مستحيلاً. لكنها كانت دعوة لتطوير ما أسماه العقاد في سنوات نضجه ب"الهوية الواقية"عن طريق تطوير نظرية لغوية وأدبية عربية تقوم على الاتصال الكامل بالآخر الثقافي والاستفادة من كل إنجازات العقل الغربي المتقدم مع التمسك بجذورنا الثقافية). وعلى الرغم من هذه المرافعة عن شرعية ما قام به وما نوى تأسيسه فإن المبررات التي يسوقها تعيدنا إلى ما افترضناه منذ بداية هذا البحث، من أن العقل التبر يري يظل ساكناً داخل النص وفي ذهن المؤلف وهو يناقش مسألة في غاية الأهمية، وهي كيفية حل الإشكالية الثقافية في الفكر العربي المعاصر التي أوجدتها حالة التبعية العربية للآخر المتقدم علينا والذي يسوقنا وراءه ونحن نسعى للحاق به دون أمل منظور للوصول إلى ذلك الهدف.

يذكر المؤلف ذلك وبكل صراحة في كتابه الثالث"الخروج من التيه" فيكتب(تأتي الدراسة الجديدة الحالية بعد أن انكشف المستور ولم يعد الأمر قاصراً على مجرد إشارات ومؤشرات بل أصبح أمر ثقافة مهيمنة تضيق شأنها في ذلك شأن كل الثقافات المهيمنة السابقة–بالاختلاف– فتحاول إلغاءه وإلغاء الاختلاف والتفرد يفترض قيام الثقافة المهيمنة، إما باحتواء الاختلاف عند

---

[1] *المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك د عبد العزيز حمودة عالم المعرفة –الكويت رقم الكتاب 232 لعام 1997م ص10–11*

الـــثقافات القومية، وإما بكبته لخلق فراغ تشغله قيم تلك الثقافة في نهاية الأمر، والمؤسي أن الواقع العربي أصبح اليوم أكثر من أي يوم مضى معداً لتنفيذ ذلك السيناريو. فقد تحول المثقفون الحقيقيون إلى نخب ثقافية يخاطب بعضهم بعضاً في أحيان كثيرة وتتحالف مع السلطة الحاكمة في أحيان أكثر وفي كلتا الحالتين تخلـــى هـــؤلاء المـــثقفون عن دورهم القيادي في تنوير الجماهير وابتعدوا عن الشـــارع العربـــي تاركيـــن الـــثقافة الشـــعبية MASS,OR POPULAR CULTURE. تحـــت رحمـــة الثقافة المهيمنة تفعل بها ما تشاء وتغرس قيمها الجديدة لتعيد تشكيل الوعي العربي)[1].

هذا الخطاب المثقل بكل شفافيات التبرير جعل الكاتب ينسى أن كتابه ليس دفاعاً عن الثقافة الشعبية العربية ولاعن قيم الثقافة العربية بل هو بحث منهجي في المدارس النقدية الغربية والعربية (الوافد، والتراثي) وعلاقات التبعية الثقافية العربـــية لـــثقافة الحداثة الغربية وما بعدها وهو مكرس للنخبة بل لنخبة النخبة والدلـــيل علـــى ذلك أنه كتب مصطلح الثقافة الشعبية باللغة الإنكليزية وما أظن القـــارئ العادي بقادر على فك مفهوم هذا المصطلح وهو ليس بحاجة إليه، كما أنـــه أسهب في استعراض الوافد الحداثي وحشد فيه من المعلومات ما يضيق به هؤلاء فكيف القارئ العادي الذي تذرع بمخاطبته، وأظن أنه كان في غنى عن إيـــراد مـــثل هذه المبررات. فالهوية الواقية مفهوم ملتبس في عصر يصفه بأنه عصـــر الـــثقافة الحديـــثة المهيمنة، وهذا يعني أن أسباب الهيمنة معروفة وهي خـــارج النص الثقافي في السياسة والاقتصاد والعلم والتكنولوجيات، وكان عليه دراســـتها هناك، فهي ليست ثقافية بل سياسية-اقتصادية-علمية وتقنية. فكيف تكون الهوية الواقية وفي أي مجال طالما نحن في حالة التبعية الشاملة[2].

فـــثقافة التغيـــير هـــي ثقافة الخروج عن هذا النص، والبحث عن الهوية، وإعـــادة تشـــكيلها، وهـــي الإبـــداع المعرفـــي والعلمي، ونقد التقليد والتبرير، وتجاوزهمـــا إلى فكر حديث لحل الإشكاليات المانعة من التطور وجعل الثقافة قـــوة ماديـــة مساهمة في العملية الاجتماعية والإصلاح السياسي والاقتصادي، لإنجـــاز المهـــام الرئيسة للتحرر العربي في عصر العولمة. (الثقافة هي شكل

---

(1) *الخـــروج مـــن التـــيه د عبد العزيز حمودة، كتاب عالم المعرفة رقم 298 تشرين الأول 2003م التمهيد ص 8-9-10.*

(2) *راجع كتابي الثقافة المقهورة والثقافة المنتصرة الصادر عن دار الوطنية الجديدة 2000م.*

الفكــر وفعــل الفكر، هذا معناه أن الإنسان يستطيع أن يتوقف عن العمل، وأن يعمــل ليس بحسب أهوائه وشهواته بل أن ينسحب وينطوي على نفسه ويتأمل، أن يفكــر نظــرياً، التفكير بالكلية. الإنسان اللا مثقف الإنسان الأمي مع إدراكه الوجــه الرئــيس، يســتطيع مع أفضل النوايا أن يشوه نصف دزينة من وجوه أخــرى محــتفظاً بالوجوه المختلفة، أما الإنسان المثقف فيعمل من وجهة نظر الكلية)[1].

فالــنص الثقافــي المؤسس مكتف بذاته وبأسبابه العلمية والمعرفية، وتأتي مشــروعيته لــيس مــن الأسباب التبريرية، بل من مكانته الفكرية، ومفاهيمه الإبداعية التي تعكس بأكبر قدر من الموضوعية المسائل والقضايا والإشكاليات التــي هــي جوهــر العلاقــات الاجتماعية والسياسة والاقتصادية والثقافية في المجــتمع والحلــول الممكنة لها في إطار عملية التغيير المفترضة للخروج من حالــة التبعــية والتخلف. أي المشروع الحضاري الذي يعطي للأمة هويتها من خــلال ممارســتها لبــناء ذاتهــا كأمة ودولة وسياسة واقتصاد وثقافة وجماعة وأفــراد. وفــي ندوة عقدت مؤخراً في دمشق حول تجديد الخطاب الديني، وما أكــثر مــثل هــذه الــندوات يقول أحد المحاضرين على أن هناك إجماع على ضــرورة هــذا التجديد، ويبرر هذه الدعوة بالقول:بأن هناك أصولاً راسخة في الإســلام تدعو لمثل هذا العمل، ويورد حديثاً نبوياً، ثم يتابع التبرير(إضافةً إلى أن رؤيــة للعــالم الجديد التي بدأت تتشكل مؤخراً بعد أحداث الحادي عشر من أيلــول فــي الولايــات المتحدة خلقت خطاباً على صورتها وشكلها)، وهذا هو المهــم. فالــتجديد الــذي هــو مطلب داخلي وفعالية فكرية تقتضيها التطورات الداخلــية والإشــكاليات المعرفية التي تواجه الخطاب الديني الإسلامي، أصبح نتيجة للنكوص عن حركة الإصلاح التي قادها رواد عصر النهضة(جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والطهطاوي ورشيد رضا وطه حسين وعلي عبد الرازق وآخــرون) مطلباً خارجياً واستراتيجية أمريكية تفرض على الأنظمة ومفكريها أن تــنفذه وتلــتزم بــه كشــرط أســاس لقــبولها في المجتمع الدولي أي في الإمبراطورية الأمريكية[2].

---

(1) *مختارات هيغل – ترجمة إلياس مرقص ص 59*

(2) *نــدوة تجديــد الخطــاب الديني في الجدل السياسي والثقافي–انعقدت في دمشق في أوائل الشهر السادس 2004م*

والعقــل التبريري لا يقف عند هذا الحد بل هو وبكل ثقة قادر على تسويغ أعقــد القضـــايا وإلباسها ثوب الحقيقة والصدق، بالانتقال من الشيء إلى ضده، بــأن يجمع ويساوي بين المتناقضات من المفاهيم في وحدة غير جدلية في نفس الــنص الثقافــي، بيــن الرأسمالية والاشتراكية، وبين الاستبداد والحرية، وبين الاســتقلال والاحــتلال، والخيانة والأمانة والشرف والغدر والوضاعة ، وبين التبعــية والتنمــية الوطنــية، والوحدة والانفصال، ويقدمها على أنها مترادفات ملتبسة تحتمل التأويل والتفسير المتشابه، ليدافع عن القضية وضدها في سفسطة مدروســة وبــنفس القــوة والحماس والمغالطة والأدلة وعكسها، والمساواة بين المفاهــيم، معتمداً الحذف والتجاوز كأساليب تضليلية، والتنكر لما كان قد أثبته مــن قبل في شروط أخرى كحقائق موضوعية، وكأيديولوجيا نضالية على أنها فلســفة عملــية ستوصــله للأهداف المثلى. فلا يدري القارئ أو المستمع ماذا يُصدّق من هذه الأفكار:أطروحات الثورة بالأمس؟أم أطروحات الثورة المضادة اليوم؟الماركسية -اللينينية نظرية الثورة الاشتراكية؟أم الليبرالية- الديموقراطية- الرأسمالية نظرية التحول في عصر العولمة أو الثورة الاشتراكية القادمة؟أستاذنا الماركســي- اللينينـــي الــثوري حلــيف العمال والفلاحين؟أم أستاذنا المصلح الليبرالـــي-الديموقراطـــي الذي أعلن توبته وتخليه عن أفكاره السابقة، واستعار ثــوب العولمــة الديموقراطي، ليظهر به مبشراً بالسلام والديموقراطية كخيار تاريخـــي ونهائـــي ، والدولـــة الحديــثة والحياة الجديدة في ظل الإمبراطورية الأمريكية التي ستملأ الدنيا عدلاً وديموقراطية بعد أن ملأها البعث العربي ظلماً وجــوراً!!. فالديموقراطية لا تنفصل عن الليبرالية؟. أم يصدق القومي العربي الــثوري الــذي ظل يهدد بإشعال الأرض العربية تحت أقدام الغزاة الأمريكان والصهاينة ثم عاد ليبرر الانضواء تحت عباءة المجتمع الدولي الأمريكي بسبب الظــروف المستجدة؟. أم الناكص عن العروبة وإشكالياتها الذي عاد إليه وعيه الوطنـــي وصار داعية للقطرية والإقليمية بعد غيابه في مفاهيم القومية العربية الرومانســية؟، أم المصلح الديني الإسلامي الداعي إلى إصلاح الفكر والمناهج وإلـــى الــثورة الإســلامية ضد الإمبريالية، والعودة إلى الأصول؟فإذا به الشيخ المراجع والمتبرئ من أفكاره السابقة الإصلاحية والثورية داعياً إلى التعاون مع الولايــات المــتحدة الأمريكية والأنظمة الصديقة لها ومهادنة الإمبريالية لأنها الــنظام العالمي الجديد لقطف ثمار العولمة الاقتصادية والسياسية. وكله مبرر ولــه أسبابه ويصلح للجدال والسجال. بالأمس كانت الإمبريالية الأمريكية الشر

كلـــه، فـــإذا بهذا الكلام بعد المراجعة النقدية بقوة السلاح التي قامت بها القوات الأمريكية في العراق، يصبح خطأ استراتيجياً عند بعض المراجعين الشيوعيين. أدى إلـــى الانجـــرار وإلـــى التعامل معها بطريقة شمولية عمياء وبصفتها شراً مطلقـــاً، بدلاً من مواجهتها بصفتها مرحلة موضوعية في مسار تطور البشرية، والـــتعامل معها من منظور المصالح القومية والإنسانية الملموسة وعلى أساس هذه المصالح[1]. مع أن الإمبريالية لم تتبدل، كانت وما زالت راعية الصهيونية والاســـتبداد ومضطهدة الشعوب، وها هي بعد تحولها إلى مرحلة أعلى مرحلة العولمـــة أصـــبحت مفيدة حسب منطق هؤلاء، لأن مصلحتها لم تعد مُقيّدة بدعم الطغـــيان و الشـــمولية والديكـــتاتورية فـــي الوطـــن العربي وهي تسعى لبناء الديموقراطية، ولذلك يجب الاستفادة من هذه التحولات، والتعامل معها بإيجابية.

الإمبريالـــية لم تتغير كبنية ونظام قهر وقسر واستغلال وهيمنة واضطهاد للشعوب والأمم وبخاصة الأمة العربية، فهي ما تزال تشن الحرب على العرب ثقافـــة وقومـــية وديانـــة، وأرضاً وتاريخاً وجغرافيا، ويظل الشعب العربي من ضـــحاياها. الذي تغير هو فكر المراجعين فحسب . وهكذا تفقد المفاهيم معانيها ودلالاتهـــا، فتضـــيع الحقـــيقة في المواقف التبريرية التي تتغير بحسب تطور الأوضـــاع العالمية، وليس لأسباب موضوعية وذاتية عربية. ويجادل هذا العقل بـــالقول:لقـــد انتصرت الصهيونية علينا وأقامت وثبتت دولتها باحتلال فلسطين وهي دولة العدوان الصارخ والغزو الوحشي المخالف لكل الشرائع و القوانين، واســـتطاعت فـــرض هيمنـــتها علـــى الوطـــن العربي بتحالفها مع الإمبريالية الأمريكـــية. ولم نقدر نحن العرب أصحاب الحق الواضح والمعتدى علينا حتى الآن مـــن تحقـــيق نصـــر استراتيجي عليها بسبب عدم واقعيتنا وتمسكنا بأوهام المقاومـــة والجهـــاد. ولذلـــك وكما يقول العقل التبر يري: نحن قد أخطأنا في الـــتعامل مـــع قضيتنا، ولم نستفد من الجانب الإيجابي في الظاهرة الإمبريالية لإدارة معركتـــنا مـــع الصهيونية الغازية[2]. فلنكف عن هذه المواجهة الخاسرة ولنســـلم بالوقـــائع الجارية أي إننا لا نستطيع ضمن موازين القوى الراهنة أن

---

[1] *مشـــروع الموضوعات التي طرحها الحزب الشيوعي السوري بزعامة رياض الترك نقلاً عن الجريدة الداخلية (الرأي العدد26)*

[2] *مـــنذ أربعين سنة كان علينا أن نتعلم من هزيمتنا الساحقة أمام إسرائيل أن سر تفوق العدو يكمن فـي سر العلاقة العضوية بين الحداثة والتحديث)د عبد الرزاق عيد المرجع السابق*

نحقق شيئاً عن طريق المقاومة والحروب، فلنرضَ بما يُعطى لنا كي لا نخسر أكثر في إطار هذه المقاومة العبثية. ولنراجع أفكارنا وثقافتنا الجهادية الإسلامية والعربية الكفاحية لتنسجم مع استراتيجيات سادة العصر الأمريكي- الصهيوني ولنقبل بما يُعطى لنا. وكل مغالطة تؤدي إلى مغالطات بحسب تبدل الظروف والأوضاع الدولية.

إن الهروب من مواجهة الأحداث والوقائع الجارية والدراسة العلمية والتحليل النقدي لتكوين مفاهيم مقاربة ومطابقة، إلى التبرير وسد الذرائع بالتحايل واستخدام ما هو متوفر و وافد إلينا من مراكز إنتاج الثقافة وصنع الرأي العام في الدول المتقدمة، وتبني المناهج والاستراتيجيات التي تضعها مراكز الدراسات والبحوث الأكاديمية المتخصصة فيها والممولة من قبل الجهات السياسية والأمنية، لن يزيد إلا في تضليل الإنسان العربي الذي يحاول جاهداً أن يفهم لماذا تجري الأمور على هذا النحو، أي إلى مزيد من الهزائم والتبعية و التخلف عن العالم. وعقل التبرير هو المسؤول عن هذه الانهيارات الثقافية. إذ تتحول من خلاله ثقافة التغيير إلى ثقافة القبول بما هو قائم انطلاقاً من القول المأثور (اليوم أحسن من بكرة واللي بتعرفه أحسن من اللي تتعرف عليه). يذكر الأستاذ أكرم الحوراني في مذكراته حول موقف البعثيين من حل الحزب استجابة لشروط عبد الناصر لقبول الوحدة مع سورية ما يلي(بعد أيام من قرار حل الحزب جاءني عدد من الحزبيين وعلى رأسهم الدكتور مدحت البيطار وقال بأنه لا يجوز أن يصدر قرار حل الحزب دون توضيح أو تبرير مكتوب يعمم على الفروع في سورية والأقطار العربية الأخرى). فتبرير الحل هنا ليس له هدف معرفي ثقافي بل إعلامي لتسويغ القرار دون الدخول في دراسة تقويمية تتضمن النواحي الإيجابية والسلبية، والنتائج التي يمكن أن تنجم في الحالتين.

إن منطق التبرير تراجعي يعتمد على التداعيات النفسية، التي هي رد الذات المأزومة لاستعادة توازنها الذي تصدع نتيجة إنكساراتها في الواقع، وهو لذلك ليس معرفياً، ولا يستهدف نقد الذات ولا دراسة الظواهر لتكوين مفاهيم علمية عنها ، وهدفه الأساس تفريغ الشحنات الانفعالية عن طريق الاعترافات والملاحظات الجزئية لمنع المزيد من الانهيارات في الذات المهشمة. ومن هنا كان التلفيق وسيلة دفاعية مثلى للرد على واقع مأزوم تتزايد الضغوط في مجالاته ومستوياته المتداخلة وهذا هو منطق التسويف.

-2-

صور وأشكال عقل التبرير.

يتصــف العقــل التبريري بأنه: -عقل تبسيطي- وتوفيقي -وواحدي - سلطوي -وتلفيقي- ذرائعي- و وضعي- بنيوي- ومذهبي- عقائدي.

أ-فهــو تبسيطي وتوفيقي لأنه أحادي البنية، لا إشكاليات معرفية فيه ولا علاقــات جدلية، والتوفيقية هي الجمع بين منهج تجريبي علمي غربي وعقائدية إيمانــية موروثة بالتقليل من أهمية المتناقضات والتضاد بين المنهجين، وما قد ينــتج عن التوتر بينهما مما يؤدي إلى انهيارات الموضوع المبني عليها بالكامل . فالحقــيقة الإيمانية تدرك بالحدوس وليس بالتفكر والعقلانية النقدية والمنهجية العلمــية والفرضــيات وصــياغة النظري والسعي لمعرفته. فلدى عقل التبرير مســلمات معــروفة وهي بديهيات لا تحتاج لإثبات تفسر كل شيء مثل نظرية المؤامــرة في السياسة، ونظرية العدالة في الفلسفة القانونية والحقوقية، ونظرية الأمة المختارة في المسألة القومية والهوية الإسلامية والعقاب الإلهي . . . التي يمكــن الانطلاق منها والاستناد إليها لتفسير كل النكبات والكوارث. فبمجرد أن يضــع هــذا العقل فكرته عن الحدث أو الشيء فقد أصبحت لديه واقعاً ملموساً ويتصــرف علــى هــذا الأساس مع حلفائه ومع أعدائه ويتخذ منهم المواقف. فقضــيته عادلــة ســلفاً لأنه مؤمن بها وهذا كاف لتبريرها، والممارسة وسيط تنفــيذي، يلعــب دوره بميكانيكية مفترضة يجب أن توصل إلى النتيجة الكامنة مسبقاً في الفكرة.

والفكــرة عــند هيغل هي المفهوم المطابق ، الحق الموضوعي، أو الحق بوصــفه الحق. حين تكون لشيء ما حقيقة، تكون له بفكرته، فأن تكون لشيء مــا حقــيقة، فهــي فقط بما هو فكرة شيء، وإذا كانت الأفكار شيئاً ما عرضياً وذاتياً فهي بالطبع عندئذ ليس لها قيمة(1). وإذا لم تصل إليها فهي خاطئة نتيجة لعوامل خارجية غير محسوبة. وهنا يدخل التوفيق كمبدأ لتسوية الأمر باختراع معــادل آخر عن طريق القياس والمماثلة وتجري عملية الاستشهاد بالتراث أو الوافــد لإعــادة صياغة الفكرة وليس دراستها موضوعياً. والممارسة النظرية والعملــية كمــا نعلم فعل بشري مشروط وتتحكم فيه الدوافع والأخلاق والثقافة

---

(1)مختارات هيغل مرجع سابق ص 154-155-156.

والمصـــالح الخاصـــة والعامـــة، كما تحدد الظروف والإمكانيات المعطاة كيفية تحققـــه أو فشـــله. ولا يعيد العقل التبريري دراسة هذه القضية على أساس أنها صـــادقة أو كاذبـــة أو أنهـــا ناقصة وغير مكتملة المفاهيم، فالمهم عنده إصدار أحكـــام القـــيمة، من حيث كونها عادلة أو ظالمة، فهو .لا يتعامل بالمنهج النقدي العقلانـــي، ويقتصـــر علـــى المنهج الوصفي الغائي في التحليل والتركيب الذي يجـــريه وبالتالـــي العناية بأسلوب الصيغة وبالجملة كي يعطي للبيان الأثر الذي يـــتوخاه فـــي نفوس المتلقين الذين يُفترض أنهم المُخاطبون. فهو لا يملك نسقاً معرفـــياً وهدفـــه لـــيس إنشاء المعرفة بل التحدث عن جزئيات متنافرة يجمعها منطق الترادف والتراصف، لتأليف خطاب لا هو بالأيديولوجي ولا هو بالفلسفة السياســـية أو الإبســـتومولوجيا المعرفية. خطاب المماثلة والتشبيه والاقتباسات الداعمـــة، القائمة على حذف وتجاوز ما هو معارض ومخالف، وتسوية ما هو غير مفهوم وغامض في المضمون والإشكاليات. فنحن أمام عقل سطحي أُحادي الـــنظر والفكـــرة توفيقـــي الملابسات عامي المعرفة غارق في جهله ومع ذلك متعال على واقعه مهتم بالبيان والإنشاء البلاغي غير المبلغ عملياً.

ب-**وهـــو عقل ذرائعي -تلفيقي**:يتوسل بأوهى الأسباب والحجج، والمنطق الاســـترجاعي-التلفيقي المرتبط بالنتائج العملية، والمنافع المادية التي نتجت في الممارســـة كذرائـــع لإثـــبات صـــحة وكذب الأفكار والمعارف التي افترضها كموجهـــات لنشـــاطه الاجتماعـــي والفكري والاقتصادي والنظري. فإذا فشلت الماركســـية وانهارت دولتها في الاتحاد السوفييتي بعد سبعين سنة من قيامها ، وهـــي أول دولـــة ماركســـية -لينينية، فهذا كاف للحكم عليها بأنها وعي غير مطـــابق إمـــا شائخة لم تعد تتماشى مع حاجات العصر الرأسمالي، وإما طفولة يســـارية أو خيالـــية غير صادقة لم تبلغ سن الرشد بعد ، بما يؤهلها لأن تصبح حقـــيقة ملموســـة ، وواقعـــاً قابلاً للتحقق على الرغم من مشروعيتها الأخلاقية كـــنظام إنـــتاج اقتصادي إنساني وكفلسفة للثورة والتغيير وثقافة تعلي من شأن الإنســـان والعمـــل الإنساني. ولذلك يجب البحث عن نظرية جديدة تكون قابلة للحـــياة ، وهـــذا أمـــر مشروع ، ولكن بعد أن يكلف نفسه عناء البحث العلمي الرصـــين لتحليل أسباب النهوض والانهيار وشروط الممارسة ومطابقة الأفكار والأعمال التي قام بها لحقائق العصر والوقائع الجارية.

أما إذا استمرت الرأسمالية في الوجود كنظام إنتاج وكدولة واقتصاد وثقافة وسياســـة وظلت تتطور وتتقدم وتتمكن في العالم بالانتصار على ما عداها من

المذاهـب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، فهذا دليل على صحتها وصـدقها مهمـا كانـت تناقضـاتها وقوانينها وممارساتها الاستغلالية المدمرة للإنسـان والبيـئة والفكر ذاته. واستناداً إلى بديهياته المستجدة، يعلن هذا العقل مبرراته للعودة عن اختياراته السابقة تحت شعار المراجعة والنقد والنقد الذاتي، ليـتخذ منها مدخلاً لدراسة الرأسمالية من وجهة نظر إيجابية ويتلقى من ثقافتها مفاهـيم المراجعة والمصادر الأصلية للأفكار السياسية والفلسفية للعولمة، حيث التكنولوجـيا الحديـثة والمجتمع المتقدم والدولة الديموقراطية، والمؤسساتية(في أوروبـا الغربـية والولايات المتحدة الأمريكية) لاقتباس ما يمكن لتلفيق نظرية جديدة تجمع بين الاشتراكية والدولة البرجوازية الديموقراطية، ومفاهيم التحديث الرأسـمالي والتنمـية والتغيير في الوطن العربي، في إطار الهيمنة الإمبريالية الأمريكـية بالتركـيز علـى المماثلة والقياس، لإثبات قدرته على صحة دعواه وتجاوزه لأخطائه الفكرية والنظرية وممارساته السالفة وتبرير جموده العقائدي السـابق، وهو في كلا الموقفين تبريري وغير علمي. فما يصح في بلد ما قد لا يمكـن تطبـيقه فـي بلد آخر؛ فدراسة أية ظاهرة يجب أن تكون كلية لا تهمل جوانـبها الإيجابية أو السلبية ولا العملية الجدلية بين مستوياتها من أجل فهمها علمـياً ومعرفـياً. أما إذا انطلقنا من أيديولوجيا التوفيق كما يجادل عقل التبرير مفترضـاً أن الأفكار والأساليب والطرائق الاجتماعية والسياسية والثقافية التي يـنوي اقتباسها ، يجب أن تنجح عندنا مثلما نجحت في موطنها الأصلي؛ يكون هذا العقل قد وقع في الخطأ مرتين وغالط نفسه ويتناسى أنه جرب هذا القياس مـن قبل في اقتباسه عن الاشتراكية السوفييتية وفشل . وهو يعود اليوم مبررا ومكرراً مسلكه التلفيقي معلناً أن تجاوز حالة الهزيمة التي تعيشها الأمة العربية ممكن شريطة أن نستفيد من الحالة الإمبريالية الحديثة (العولمة).

أي إن تطبـيق الديموقراطـية الرأسمالية التي نجحت في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية واليابان وبلدان جنوب شرقي آسيا(النمور الآسيوية ومالـيزيا) سوف يكون طريق الخلاص مما نحن فيه من تخلف وتبعية واستبداد وضـعف. فعليـنا أن نستفيد من هذه الفرصة ونجعلها رافعة للنهوض القومي والوطنـي نحو الحداثة والمعاصرة وتحقيق أهدافنا في التحرر والتقدم والاتحاد والوحدة العربية. وعقل التبرير بهذه الإطروحات وهذا الجدل يحذف و يتخطى الوقـائع الملموسـة والظروف الدولية والشروط الاقتصادية والسياسية والثقافية التـي أدت إلى التشكيل الحديث في جنوب شرقي آسيا. وهي أن ما جرى في

اليابان وما أطلقت عليه وسائل الإعلام الإمبريالية -النمور الآسيوية- ليس إلا صناعة استراتيجية أمريكية، استهدفت في اليابان بناء أمة يابانية تابعة ودولة حديثة وفق المقاييس والثقافة والمصالح الأمريكية. فقد أضاعت اليابان هويتها وثقافتها وسيادتها كأمة بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية واحتلال أراضيها من قبل الجيش الأمريكي. وفرضت عليها دولة الولايات المتحدة المنتصرة معاهدة استسلام مهينة ومذلة، وألزمتها بالانصياع لإرادتها وشروطاً قاسية على ممارستها لسيادتها كدولة. وقد عملت انطلاقاً منها على إعادة تشكيلها كدولة حديثة تتكيف وتتلاءم مع المفاهيم الأمريكية ، وتعمل لخدمة مصالحها الإمبريالية، دولة تابعة منفصلة عن تاريخها أعادت صياغة ثقافتها ودورها العالمي ومكانتها الاقتصادية كشريك متمم لاقتصادها الإمبريالي. وهي اليوم تنتج لحساب الشركات الأمريكية متعددة الجنسية والسوق الأمريكية وفق استراتيجية الدولة الإمبراطورية وسياساتها الكونية . ولا تستطيع معارضتها و إلا تعرض اقتصادها الذي هو ثالث اقتصاد في العالم بعد أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية إلى الأزمة والانكماش وربما الانهيار بسبب ارتباطه العضوي بالاقتصاد الأمريكي. (مثال ذلك أزمة الركود والانهيارات المالية والمصرفية في تسعينات القرن الماضي التي ما زال الاقتصاد الياباني يعاني منها حتى اليوم. إن اليابان في هذه الأيام تشبه المريض الذي أكثر من استخدام المضادات الحيوية(antibiotics)بحيث لم تعد تلك المضادات قادرة على إعطاء التأثير المطلوب. وتستخدم طوكيو الآن من الحوافز المالية و النقدية أكثر مما استخدمته في الماضي. . ومع ذلك فما تحصل عليه من الفوائد والمنافع هو أقل من أي وقت مضى)[1]. لقد كانت الإمبراطورية الأمريكية تريد إعادة صياغة مراكز القوة في الاقتصاد العالمي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة وتفردها كدولة إمبراطورية في قيادة العالم أو ما تسميه مرحلة (العولمة) تبعاً لسياسات الليبراليين والمحافظين اليمينيين الجدد حكام أمريكا والساعين لجعل الإمبراطورية حقيقة ملموسة أمام كل الأمم المعادية منها أو الصديقة التابعة.

أما النمور الآسيوية فقد كانت اختراعاً مدبراً من جانب الشركات الأمريكية

---

[1]مجلة الثقافة العالمية العدد 124 مايو 2004م من مقال بعنوان اقتصاد اليابان المتجدد دوماً بقلم ريتشارد كانز ترجمة حسام حسني بدار.

مـتعددة الجنسيات في فترة الحرب الباردة. ففي حين تهاوت التجارب التنموية الاشتراكية والتنمية المستقلة نتيجة فساد الدولة البيروقراطية الشمولية فيما سُمي بـدول الـتحرر الوطنـي والدول الاشتراكية التي انتهجت النهج السوفييتي من جهة، وتحت تأثير سياسات وضغوط الإمبريالية الأمريكية وحلفائها الأوروبيين الغربييـن المالية والاقتصادية والسياسية وحروبها على حركة التحرر الوطني العالمية من جهة أخرى. فقد عمدت هذه الشركات بالتنسيق والتعاون مع الدول الإمبريالـية على تشكيل وتمويل وتصنيع بعض الدول العميلة، التي تتواجد فيها القواعـد العسـكرية الأمريكـية لـتكون محوراً للدعاية للرأسمالية المنتصرة بالمقارنـة مع فشل التجارب التنموية الاشتراكية، وإفلاس دولها، وعلى رأسها الدولـة العظمـى القـائدة لهـذه الاختراقات للرأسمالية العالمية أقصد الاتحاد السوفييتي.

وفـي نقـده للفكـر القومي انطلق عقل التبرير من أن فشل تجربة الوحدة العربـية بيـن مصر وسوريا 1958م-1961م، سبب كاف لإصدار حكم مبرم علـى أن فكـرة الوحـدة العربية خاطئة ولا تتوفر لها شروط الحياة في الواقع العربـي الحديـث المجـزأ، والذي تزداد الفروق بين أقطاره نتيجة التطورات الجاريـة التـي تفرضها الإمبريالية عليه. ويعمد إلى مصادرة المسألة تاريخياً بـالقول إن العـرب لـم يشـكلوا دولـة واحـدة فـي التاريخ إلا في العصر الإمبراطوري في الخلافة الأموية والعصر الأول العباسي وهي فترة قصيرة في التاريخ العربي المديد ولا تشكل أساساً تاريخياً للوحدة. وبناءً على ذلك فالوحدة هـي أيديولوجـيا صاغها الفكر القومي العربي في عصر النهضة الحديث دون تأصـيل فكري وعلمي ونظري ، ولذلك أخفقت كاستراتيجية وسياسات للتوحيد أو للاتحـاد القومـي العربي، حيث لم تتوفر شروط تحققها في الواقع العربي . ولذلـك علينـا أن نبحـث عن تركيبة نظرية وفكرية تأخذ بعين الاعتبار هذه الحقـائق وتقـدم توليـفة مـن الممارسات لتحقيق أي شكل من أشكال التقارب والـتعاون الاقتصـادي والسياسي والثقافي وصولاً إلى شكل معين من الاتحاد الكونفيدرالي فحسب اقتداءً بالاتحاد الأوروبي. وتتويجاً لذلك كتب رئيس تحرير جـريدة البعـث(وعلـيه لا يمكـن الخـوض في عملية توحيد العرب، إلا بعد

الاعـتراف الفعلـي بانفصالهم أي بكياناتهم المستقلة)[1] . إنه هروب يائس من مواجهة الوقائع والأسباب، بالالتجاء إلى تبريرات غير منطقية، فالانفصال قائم برعاية وتخطيط وتصميم الدول الإمبريالية، وهو ليس بحاجة لاعتراف العرب بـه لـيكون الطـريق لأي شكل من أشكال التنسيق والتعاون بينهم. وما يمنع ويحول دون الوحدة والاتحاد ليس الانفصال الشكلي-الرسمي الذي تعمل الدول الإمبريالـية على تكريسه بل سياسات هذه الدول وحروبها على الأمة العربية، لمحـو هويـتها وثقافـتها مـن التاريخ القديم والحديث بكل ما لديها من أسلحة وتقنيات.

إن التـبريرات كثيرة والمحتوى واحد وهو تسويغ الواقع والقبول بالتبعية والانفصـال والصلح والاستسلام للصهيونية في احتلال فلسطين والهيمنة على الوطن العربي.

هـذا العقـل البراغماتي الذرائعي: في شكوكه الكلبية التي تؤلف منظومة فكـرية غير متناسقة، يرفع اليوم شعارات المراجعة والنقد والتصحيح والتنقيح والنقد الذاتي لتبرير هروبه من المواجهة الصعبة مع منطقه وأدواته المعرفية ، وأفكاره ومفاهيمه ومنهجه الكلامي التبريري . كيلا يتعب نفسه في الكشف عن مشكلات الواقع العربي الحقيقية، باتباع المنهج العقلاني النقدي والمادي الجدلي، وبـناء أدواته المعرفية، لنقد ذاته ومنظومته الفكرية التي شاخت ولم تعد ملائمة لفهم التطورات الحديثة في العالم وفي الواقع العربي، ولإعادة بناء مفاهيمه على أساس علمي ونقدي، من أجل إنتاج ثقافة التغيير، ثقافة الإصلاح والنهضة، التي هـي الأساس في مواجهة العولمة الأمريكية. ولو فعل ذلك ربما اكتشف عندها الأساس المعرفي لانهيارات وهزائم المجتمع العربي على مدى القرون السابقة . ولـو فعل ذلك وصفى حسابه مع الماضي لأدرك أن الاستيلاء على أفكار الغير ومـا ينتجه العالم المتقدم دون تأصيل وتفكر، وادعاء ملكيته والدعوة لتطبيقه لن يزيد إلا في التبعية ومرارة الهزائم اللاحقة.

<u>ج- ولكونه عقل مذهبي- دوغمائي وعقائدي</u>: بامتياز، مشبع بالعصبوية والتحـيز، لا يرى الوقائع والأحداث إلا من زاوية القبول أو الرفض، التأييد أو الكره، الحب أو البغض، داخل وخارج. فالداخل هو الحق المطلق والخارج هو

---

[1] جريدة *البعث* -دمشق-ملحق حوار تاريخ 2004/8/2م-دكتور مهدي دخل الله رئيس تحرير جريدة *البعث* .

الشــر المســتطير، وإذا أفســح فــي المجال لمنزلة بين المنزلتين فهذا استثناء ومواضعة منه كي يتخلص من المتناقضات وما هو عصي على الفهم. فالمذهب - والــد وغمــا- أهــم من الصدق والحقيقة والواقع، المهم البرهنة على صحة المذهــب ولــو جرى لي عنق الوقائع وأُدخلت قسراً إلى بيت الطاعة المذهبي فعلــيها أن تنحنــي لمساجلات الأنصار، بتجاوز الكثير من المشكلات المعرفية والمنطقــية لتــبرير صــحة الأفكــار والممارسات الدوغمائية، ونصرة أصول المؤسس وفروعه.

لقــد ســاد هــذا العقل في الثقافة العربية-الإسلامية في عصر الانحطاط الطويــل من القرون الوسطى العربية حتى العصر الحديث، وما زال متمركزاً فــي الفكــر الديني الفقهي الإسلامي فيما أُطلق عليه اسم فقه التبرير، وموروثاً مؤثــراً فــي الــثقافة السياســية السائدة وانعكاساتها الفكرية والثقافية الحديثة النهضــوية فــي تــيارات القومــية العربــية الثورية والماركسية الإصلاحية والأصــولية الإســلامية التــي تسترشد بالنص وتجعله المرجع الفصل في فهم الواقــع وحــل معضلاته، وتستبدله بالواقع الذي يتحول إلى مجرد مقولات تعاد صياغتها وترتيب مقدماتها ونتائجها كلما حدث تطور جديد فيه.

يستند هذا العقل في منطقه المثالي غير الجدلي إلى قضية أولية وهي عدم صحة فكر الآخر على الإطلاق ، وعلى هذه القاعدة يجري الحوار المغلق معه لهــدم مقولاته ومفاهيمه وموضوعاته وتشويه منطلقاته، وتلبيس أوهامه(هو)ما يظن أو يعتقد أنها مغالطاته ومخالفاته لخصمه لإبطال دعاويه وحججه، وإسقاط كل ما عنده من مفارقات على ذلك الآخر. مثلما فعل أبو حامد الغزالي في كتابه تهافــت الفلاســفة في تفنيد و دحض الفلسفة كفكر وثقافة ومنطق وإعادة تفسير الأشــياء والمفاهــيم بما يخدم أغراضه للإضرار بخصومه الفلاسفة ، من أجل حمايــة عقلــه هــو من الانهيار والسقوط، وثقافته من الابتذال أمام جدل الحياة والممارســة وقــوة عقــل الخصــم. فهو لا يقدر على رؤية صورته وعقلانية مدركاته ومفاهيمه أو لا عقلانيتها كعقل مكوَن، وتهافت أطروحاته وبناء قضاياه ومســائله ومفاهــيمه الأساســية، وعدم صلاحيتها لإنتاج ثقافة مطابقة إلا في الســجال والجــدال لهدم الآخر وتسفيه أفكاره، ولتبرير صحة عقائده هو كفكر يمــتلك الصدق والحقيقة والمعرفة . وهو كعقل دوغمائي لا يرى العالم وأحداثه ووقائعــه إلا مــن خــلال العقيدة التي ينزلها منزلة العالم ، ويحيطها بهالة من الــتقديس والتبجــيل، ونصوصها منزلة القوانين الخالدة الثابتة التي تقاس صحة

أحداث العالم بموافقتها لها أو قربها منها.

إن المنظومة الفكرية والمنطقية والثقافية التي تشكل هذا العقل متهافتة ابتداء لأنها تقوم على الكذب المنهجي والمبدئي، والافتراء والدحض الكلامي، وتشويه الآخر بصياغة أنماط متوهمة عنه وعن فكره لتخدم دعاويه بصحة عقائده المطلقة وكذب الخصم المطلق، فهو استبدادي في الممارسة وعنيف في الحوار والجدال، ضيق الأفق أسير هواه وتحيزه؛ مساحة الاتصال التي يقيمها أو يفترضها للعلاقة مع الآخر تقوم على التناقض غير القابل للحل والتي تتناقص وتتقلص لتنتهي بإعلان الحرب عليه لاستئصاله، وإما بقهره بوسائل السلطة المادية الإكراهية وإلزامه وإخضاعه لعقائده الإيمانية ، التي لا يقبل الجدال فيها وحولها . الخارج والداخل مفصولان في بنيته ولا يمكن العبور من وإلى أحدهما ، إلا بالإكراه والعنف، واستسلام الخصم. فإن كان أصولياً إسلامياً فهو لا يرى ولا يسمع ولا يفكر ولا يقبل الحوار إلا من خلال رؤيته المذهبية وفهمه الخاص للإسلام ، فهو صاحب رسالة عليه تأديتها لهداية الكافرين والضالين الذين هم بالنسبة له خارج، حتى لو كانوا مسلمين مثله. ولكنهم يختلفون عنه في بعض الممارسات والاعتقادات في الفروع، ولهم فهم وتفسير مخالف لفهمه وممارساته. إنهم فاسقون وكفار يجب هدايتهم بالدعوة الحسنة وإن لم تفلح فبالسيف. وإن كان ماركسياً عقائدياً(هذا قبل سقوط الاتحاد السوفييتي) فالماركسية-اللينينية هي العلم الكلي في الطبيعة والمجتمع والفكر، وهي الفلسفة الإنسانية والثورية التي ستخلص العالم من ويلات الرأسمالية والإمبريالية وشرورها، ومن التخلف ومن العقل الميثولوجي ، وتحرر الإنسان من الاستلاب والاستغلال والفقر والاضطهاد القومي والديني والطبقي. وهي أيديولوجيا التحرر الوطني والثورة الاشتراكية لبناء العالم الحديث. وعلى عمال وفلاحي العالم والأمم والشعوب المضطهدة من قبل الإمبريالية الاتحاد للنضال لهزيمة الرأسمالية العالمية، لإقامة دولة الكادحين الشيوعية. وسحق البرجوازية الرأسمالية مالكة رأس المال وأدوات الإنتاج والمصانع، وحلفائها من ملاك الأراضي والعقارات ، وديكتاتورية البروليتاريا هي السبيل لتحقيق ذلك. ولهذا وفي سبيل هذه الهدف لا بد من تدمير الثقافة البرجوازية والإقطاعية، كي لا تفرخ من جديد فكراً طبقياً يبيح الاستغلال والظلم القومي والطبقي، الفردي والجماعي . والعمل من أجل بناء الثقافة العمالية الماركسية – اللينينة على أنقاض تلك الثقافة. وكل من يعارض هذا البرنامج بالرأي والقول والتعبير أو

بالتفكير فهو عدو رأسمالي وخائن معاد للثورة يجب سحقه. فالالتزام بالعقيدة كما تقرها القيادات العليا هو معيار النضج والفاعلية والنضال، أما النقد والنقد الذاتي فيجب أن يتوجها إلى الممارسة الفردية والجماعية لتصحيح أخطاء وانحرافات القواعد لإعادة تأهيلها كي تكون في مستوى فكر وإطروحات البرنامج السياسي و الموضوعات الثقافية التي يبدعها المستوى القيادي . وإذا حصل وأثبت التاريخ ومجرى العملية الثورية صحة الأفكار المعارضة واعترفت القيادات بأخطائها وهذا نادراً ما يكون، فقد تجري إعادة الاعتبار لمن اضطهدوا وجرت تصفيتهم بعد موتهم أو في حياتهم بسبب آرائهم وفكرهم المخالف. والأمر سيان فقد ضاعت الفرصة والأمل بإمكانية الإصلاح الذي ربما كان جنب الكثير من الأخطاء والهزائم. أما بعد سقوط الاتحاد السوفييتي وانهيار الاشتراكية فقد تخلت الأكثرية من الماركسيين عن الماركسية-اللينينية، وبدون تقييمات فكرية مهمة حتى الآن.

وإن كان قومياً عربياً، فالقومية العربية والأمة العربية والرسالة الخالدة والوحدة العربية، والوحدة والحرية والاشتراكية هي أقانيم فكرية ثابتة وبديهيات يجب الإيمان بها لأنها هوية الأمة، والآخر الذي لا يؤمن بها هو العدو الشعوبي والأممي والعدمي. وإذا كان ناصريا أي من أتباع الرئيس جمال عبد الناصر فعبد الناصر بطله القومي وممارساته وثورته وأفكاره هي الحق وهي طريق الوحدة وكل ما من عارضه فهو متواطئ مع أعداء الأمة ولو كان قومياً عربياً. إن ضيق الأفق والتقوقع في الشعارات تجعل الحوار سجالاً عقيماً لا ينتهي إلا إلى تدمير الذات والحليف والخصم المفترض. ومنطق العقل الدوغمائي مقلوب ينطلق من العقيدة وتعليماتها التي تكرست في مذهب المؤسس أو المؤسسين وشراحهم للبرهنة على صدق الواقع والأحداث الجارية فيه ، بدل أن يكون هذا الواقع وتطوراته هو مرجع أية أفكار أو نظريات ، وهو معيار صحتها وكذبها.

ولما تعثرت مسيرة الثورة القومية العربية للأسباب الفكرية والسياسية والثقافية والممارسات الخاطئة لأنظمة الحكم الثورية وأحزابها السياسية التي كثر الحديث عنها في الأدبيات النقدية الإصلاحية، وحصلت الانهيارات السياسية و الاجتماعية والهزائم الكثيرة وفي مقدمتها هزيمة حزيران 1967م أمام الصهيونية . وزادت التبعية العربية للدول الغربية المتقدمة صناعياً، وتراجعت فرص التنمية الاقتصادية ليتفاقم تخلف الوطن العربي اقتصاديا وتكنولوجياً . وتكسرت مقولات وأفكار العروبة بفعل الممارسات والضغوط

الإمبريالــية، وهشاشــة البناء المفاهيمي. وجهرت القوى المضادة للعروبة في الأرض العربــية بآرائها. وبدأت تهاجم الفكر القومي بكل هوياته ، وجاءت من عواصــم الإمبريالية في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية المشاريع الفكرية المناهضة للعروبة تحت شعارات الأقليات القومية والدينية المضطهدة ، والقومــيات الإقليمــية التاريخية التي يبعثها علم الآثار الإمبريالي من حفرياته. ارتد بعض قادة هذا الفكر عن القومية العربية إلى أيديولوجيا القطرية والإقليمية من جديد، وإلى الإسلام وإلى الليبرالية – الديموقراطية الغربية، وإلى الرأسمالية لــيجدوا فــيها كمــالهم المفقود، وليطلّقوا فكرهم القومي القديم طلاقاً بائناً وقد اصطنعوا المبررات الكثيرة لذلك.

في المقدمة أن الفكر القومي بمفاهيمه وأطره ومؤسساته القديمة هو بحسب رأيهــم الجديــد كان سبب النكسات والهزائم، وما جرّ على العرب غير الدمار والخــراب والــتخلف والديكــتاتورية. ودون أن تســاورهم الشكوك في صدق عقائديــتهم الجديــدة، فقد تحالفوا مع الليبراليين العرب النهضويين الجدد الذين جعلــوا خطــابهم السياســي وأدبــياتهم التبريرية منبراً ليس لنقد الفكر القومي فحســب، بــل لتسفيهه وهجائه على أنه فكر غير واقعي وغير علمي لم ينتج ســوى الديكــتاتورية والطغــيان والقمــع الذي عانى ويعاني منه العرب منذ الخمســينات من القرن الماضي، مع أن أكثر الأنظمة العربية قمعي واستبدادي، وهــي لا تتخذ من القومية العربية أيديولوجيا سياسية أو فكرية بل تعاديها فكراً وممارســة، بعضها يرفع شعارات إسلامية و بعضها يتمسك بالإقليمية والآخر بالليبرالــية والبرلمانية الغربية. فالواقع يكذب ادعاءاتهم إذ لا علاقة سببية بين الاستبداد والفكر القومي العربي.

ثــم أخــذوا يــرددون بأن هذا الفكر هو المفرّخ للإرهاب حسب توصيف المنظريــن الاســتراتيجيين الأمريكيين ومن تبعهم من المثقفين العرب المرتدين عــن الماركســية وحملة الليبرالية الجديدة . ولأن النقد بحث فكري موضوعي يستهدف إعادة البناء بالتركيز على الأسس والمنطلقات لتشريح وتحليل وتركيب الفكــر والــنظرية والممارســة لــتقويم الأخطاء ووضع المعادل الموضوعي المقارب، فإن العقل التبريري الذرائعي من جديد ، والذي لا يريد الوصول إلى مــثل هــذه الغايــات، وهو بدون شفافية ولا مقدمات مقبولة يقوم بتنزيل إيمانه الجديــد فــوق الإيمان القديم، في خطوة دعائية ليس إلا ليبرهن للآخر أنه مع الحداثة الإمبريالية وجاهز لمباشرة دوره الإصلاحي في الوطن العربي المتخلف

وفق منظورات الاستراتيجية الأمريكية ومخططاتها المرسومة لعلها تعيد تشكيل ثقافتنا، وفكرنا، كما فعلت في اليابان وفي ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية لتدخلنا عالم الحداثة والديموقراطية من الأبواب الإمبريالية الواسعة. ودون تأصيل فكري أو نقدي أو السعي لإعادة إنتاج فكر عربي حديث يؤسس للحداثة المفروضة، ينادي بضرورة استعارة ونقل ما هو منجز من قبل منتجي الثقافة في المراكز القائدة للعولمة في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وما هو مطبق هناك كعلاج سحري لأزماتنا ومشاكلنا فهو لا يطرح على جدول أعماله مشاكل معرفية تقتضيها مرحلة الانتقال التي يدعو لها وهو غير معني كذلك بإعطاء أسباب عقلانية لنكوصه عن عقائديته السابقة، لأن المسائل الإيمانية لا تحتاج لمثل هذا الجدل العقلاني.

د-وبما أنه <u>عقل سلطوي</u> متماه مع الشمولية والاستبداد السياسي، فهو لا يؤمن بالحوار لفتح آفاق معرفية وثقافية لإغناء المهد الثقافي وتنويع أفكاره وخياراته للوصول إلى أفضل الحلول للمشاكل والقضايا القومية والوطنية، فإنه يلجأ إلى الإكراه والعنف لفرض معتقداته على الآخر، لأن كل معارض أو مخالف هو عدو مفترض يجب تهديم فكره، والسجال معه ليس لبناء موقف مشترك انطلاقاً مما هو عام وقومي ووطني متفق عليه، بل لتسفيه وفضح ما يظن أنه الخطأ الجسيم في الرأي المعارض لأفكاره، والتي هي جريمة يجب أن تدان و يفرض العقاب على مرتكبها. ولا يتورع عن طلب المساعدة من السلطات السياسية والأمنية والمعرفية لتحريمه وجعله خارج القانون إن عجز عن مواجهته فكرياً. ولا بأس من سحق أشخاصه، لأن هذا هو المنهج القادر على الحفاظ على الوحدة الوطنية ووحدة العقيدة ووحدة الأمة، لأن الوحدة لا تكون عنده إلا بالتشابه والتماثل والإيمان بأصول فكرية وثقافية واحدة، وتستند إلى ترديد نفس الأقوال والشعارات، وهذه واحدية الجمود والموت، وهي العقائدية التي لا تعترف بحرية الفكر وبتعددية الرأي والمنهج وتناقض المصالح وتعارض الأفكار نتيجة لتنوع المشاكل والقضايا التي تفرزها الحياة والممارسة والنشاط الإنساني العقلي والعملي والسياسي والاقتصادي والثقافي، وينتجها الواقع الاجتماعي بكل تناقضاته. وهذا العقل المعادي في جوهره للتطور والتجديد والتحديث ، وإن رفع شعاراتها، يعتبر الصراع بين الأفكار خروجاً على وحدانية الحقيقة، وتمهيداً للفتنة والانشقاقات والنزاعات، مع أن التنوع والتعدد والاختلاف في الأنواع والأجناس وفي الطبيعة هو مصدر غنى وخلق

وتطــور وارتقــاء، بيــنما الوحدة هي ختام مرحلة وبداية أخرى، هي مرحلة الــتوازن، وبدايـــة صــــراع المتناقضات التي تفصح عن نفسها في مرحلة تفتح وانكشـــاف أعلـــى لتحولات كيفية اقتضتها الممارسة والعملية الفكرية والنشاط العملـــي ومجمل الحركة الاجتماعية. (إن ما وجد عند الابتداء التاريخي للأشياء لــيس الهويـــة المانعة المنيعة التي لا تنتهك أصولها بل إنه الخلاف مع الأشياء الأخــرى إنـــه الــيأس) هــذا مـــا يقوله(نيتشه) رائد ما بعد الحداثة في الثقافة الأوروبية.

والعقل السلطوي واحدي، وبما أن الحياة ضد الواحدية وترفضها فإنه يلجأ إلـــى القمع والقوة لفرض هذه الواحدية، فيصطنع لذلك مبررات وذرائع وغايات خارجـــية يقحمها لفرض هيمنة دخيلة، مما يعرقل التطور الطبيعي ويشوه الفكر والــثقافة ويـــبعدهما عــن الحاجات الأساسية للإنسان والجماعة، خدمة لأهدافه الخاصـــة، فيشـــيع الفوضـــى والاضـــطراب ويخلق الشروط للجمود العقائدي والتخلف الفكري، لأن الحرية هي قانون الوجود الإنساني الأول والذي تكيفه تطورات الاجـــتماع الإنساني والثقافة والاقتصاد ليكون في خدمة نمو وارتقاء الإنســـان كفردية وكجماعة. ولذلك كان عقل التبرير هو عقل السلطة المغتصبة التـــي تحـــاول بشتى السبل و الوسائل تسويغ الاغتصاب بخلق المبررات لجعله يكتســـب شرعية بالقهر والاضطهاد وكبت الرأي المعارض، وسحق أشخاصه، لإخفـــاء آثـــار الجريمة التي ارتكبتها بحق الجماعة والشعب والأمة والإنسانية جمعاء.

لقد أثبتت الأحداث الجارية والعلم و التطورات الاجتماعية والاقتصادية أن الـــرأي الآخـــر المعـــارض والمخـــالف يكون أكثر قرباً من الحقيقة من أوهام العقائديـــة الرســـمية وأفكارها المكرسة من قبل العقل السياسي المرجعي وأقدر علـــى حـــل المشكلات التي ظهرت وتظهر في سياق عملية التحول الاشتراكي والاقتصـــادي والثقافـــي، لأنـــه يعـــبر عن فكر حر لا تقسره الأطر المرجعية السلطوية ولا المصالح الخاصة. .

هــــ-<u>وهـــو عقل بنيوي وضعي في الجوهر</u> على الرغم من ادعائه بأنه مـــادي-جدلـــي أو جدلـــي مثالي وإكثاره من هجاء الوضعية و البنيوية وتبرؤه مـــنهما، فهـــو يـــنظر إلـــى القضايا الأساسية للأمة العربية على أنها جزئيات متراصـــفة لا علائـــق بينها ولا روابط كلية، تتطور كل منها بإيقاعاته الخاصة وبأسبابه ومسبباته البنيوية الذاتية لا تؤثر فيها الممارسة العملية أو النظرية، ولا

تحكمهـــا قوانين الكلية الاجتماعية ، بل تنظمها قوانين وضعية خاصة جعلتها ما هي عليه. فالوحدة والحرية والاشتراكية والاستقلال والبناء الاجتماعي والثقافي والاقتصـــادي والسياســـي مـــع أنها شبكة من العلاقات المتبادلة ، هي وحدات مســتقلة فـــي نظره يمكن العمل على إحداها وإهمال الباقيات. و يرى أن هذه اســتراتيجية عملية يجب التركيز عليها في المستقبل لتحقيق إنجازات ملموسة، بـــدل الضياع في عالم النظرية والشعارات. هذه الشعارات التي لم تتحقق خلال هـــذه الحقـبة الزمنـــية التي اتسمت بالنضال المرير والكفاح الوطني والثورات والانقلابـــات والتغيـــيرات الديموغرافـــية والسياسية والاقتصادية، بل والثقافية الكبيرة التي حصلت في الوطن العربي والعالم.

ونتـــيجة لذلك فقد توصل هذا العقل إلى حكم قاطع بأن هذه الشعارات غير قابلـــة للتحقق لأن هناك خطأ في المفاهيم وفي التركيب النظري الذي ألف بينها ودمجها في كلية نظرية للنهضة أو الثورة العربية. لم يقرها الواقع وقد دحضها الـــتاريخ الحديث الذي لم يقدر على التأليف بينها في الممارسة النضالية، أو أن يشـــكل منها وحدة ملموسة في الثقافة والحياة، فجعل قوانينها تتكسر أمام الوقائع الصـــلبة للجغرافـــيا والســـيولوجيا والجيو-سياسية في الوطن الذي افترضناه عربياً، فما العمل؟.

-3-

عقل التبرير نكوصي وتراجعي:

يـــبرر هذا العقل نكوصه عن الفكر القومي والنهضة والثورة، مجادلاً بأن علينـــا إعـــادة صـــياغة أفكارنا انطلاقاً من الوقائع الراهنة، وليس من الأماني المـــتوقعة، ولا من الماضي البعيد أو القريب ولا من التراكيب الذهنية المجردة والمـــتوهمة عـــن ذلك الماضي التي قد أصبحت عتبات فكرية مانعة أمام التقدم العربـــي المنشـــود، فحقائق العالم المعاصر يشكلها الاقتصاد و السياسة والثقافة الحديثة، وليس التاريخ مهما كان زاهراً وعظيماً.

إن الرأســـمالية والإمبريالـــية وما أنتجتاه من حضارة وعلم وثقافة ومدنية وسياســـة وفلسفة وتقنيات حديثة، تجعل ذلك الماضي الزاهر عقبة أمام التلاؤم مـــع التطورات العاصفة التي غيرت العالم، فكأنه عالم جديد ونشأة مستأنفة كما قـــال ابـــن خلدون في مقدمته، مما يجعلنا ندور في حلقة مفرغة من المقاربات

والانعطافات والتراجعات، فلا الوحدة تحققت بل جرى المزيد من التجزئة، ولا الحرية تقدمت، بل إن الاستبداد قد رسخت جذوره بقوة في جميع مناحي حياتنا العربية المعاصرة حتى سد كل أمل بالتحرر من الظلم والعدوان على الإنسان العربي وعلى المجتمع المدني العربي. ولا العدالة الاجتماعية أو الاشتراكية أُنجزت بل إن التفاوت الطبقي في تصاعد مستمر والإفقار المطلق والنسبي للجماهير العربية في ازدياد، بينما تتجمع الثروة بيد القلة التي أخذت تشكل أوليغاركيات حاكمة على مستوى الوطن العربي كله، عائلية وعشائرية وقبلية وطائفية ومذهبية. ودُمرت الطبقة الوسطى حاملة المشروع الوطني والقومي. كما أن الثقافة الحديثة لم تتوطد لا في الفكر ولا في الوجدان أو السلوك والممارسة. وعلى العكس فقد أنتجت الانهيارات والهزائم السياسية مزيداً من الارتداد إلى الخلف إلى الثقافة التراثية وإعادة بعثها والتمسك بها، والعمل بتحديثها لفظياً وإرسائها دينياً كهوية للأمة، كأنها إذا حاولت تحديثها فقدت روحها . ويبالغون في وصف هذا الاتجاه المدمر، ويقولون بأن لا آفاق ملموسة بعكس الاتجاه طالما أن هذه الثقافة هي النافذة السلطان.

ولا يرى هذا العقل إلا التغييرات الكمية والمادية جديرة بالاعتبار عند تقويم إنجازات التاريخ العربي الحديث والمعاصر، و ثقافة النهضة والثورة. ولا يتحرى التغييرات الكيفية، إذ لا تقدم من وجهة نظره إلا في الميادين التقنية، فالعلم التجريبي هو الأساس وفيه ومنه القواعد المؤسسة للعقل الحديث، ولا ثورة إلا في ميدان الاقتصاد الرأسمالي والبنية الصناعية، والتطبيق التكنولوجي. أما الجانب الروحي فهو تابع ولا أثر عكسي له على مجمل البناء الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، فالبناء المادي هو المرجعية المؤسسة لكل ما هو روحي وحضاري وثقافي، ولذلك فليس للعرب ما هو ملموس في الحضارة الحديثة. ويمضي في سجاله ليقول بأن علاقات الجدل بين هذه المستويات ليست على قدر كاف من الأهمية لجعلها محوراً ثقافياً ونظرياً ونقدياً، وإنشاء مفاهيم نقدية مقاربة انطلاقاً منها. وهذا الاضطراب المنطقي البنيوي يجعل هذا العقل متخلفاً عن الواقع وصيرورة التغييرات الجارية، ويوحده في الهوية مع العقل التراثي والمذهبي، ليشكلا مركباً لا عقلانياً يقطع مع الحاجات الحقيقية للمجتمع العربي. فيتحول التاريخ العربي الحديث لديه إلى مزبلة تتلقى فقط أجداث النظريات والأفكار غير الوضعية المتساقطة على مذبح الجهل وسوء الفهم وقلة المعرفة، وتودع فيه سجلات الحركات الاجتماعية والسياسية المهزومة، والتي لم تستطع

إنجـــاز مـــا يمكن تسميته ثقافة الحداثة والنهضة أو خطوات ممهدة على طريق تحقـــيق بـــرامجها السياسية القومية الوحدوية والتحررية، ليقوم فرسان العقلانية البراغماتـــية والذرائعـــية والوضعية والتبريرية الحداثيون بتنظيف اصطبلات أوجـــياس[1] مـــنها، مـــن أجل فتح الطريق إلى الليبرالية الديموقراطية للعولمة الرأسمالية الأمريكية كي توحد العالم وتجعله وطناً للإنسان من كل جنس ولون متمـــتعاً بكافة الحقوق وبرغد العيش ، لأن رسالتها الإنسانية تقتضي ذلك. فإذا ســـقطت الاشتراكية ولم تستطع تحقيق ذلك الحلم فما سوى الرأسمالية لها. وهم ســـيقومون تـــبعاً لذلـــك بأداء الرسالة وهي إنتاج فكر وثقافة العولمة والحداثة العربـــية مستلهمين التجارب الناجحة في الغرب الرأسمالي وتوابعه كي يعيدوا للتاريخ العربي الحديث اعتباره ومفاهيمه الإبداعية الصحيحة، في إطار العولمة الجاريـــة في العالم لقطف الثمار اليانعة بدون تضحيات وجهود وآلام التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي دفعتها الأمم التي أسست للحضارة الحديثة وسارت بهـــا عـــبر ثورات التحرر والديموقراطية والاستقلال حتى أوصلتها إلى مرحلة النضـــج الراهـــنة، ويرحبون بالاحتلال الأمريكي للعراق على أنه فاتحة لعصر عربـــي جديد للتحرر والتحديث. ويوصون بوجوب تكريس هذه الوصلة للعبور مـــنها إلـــى الحريات وحقوق الإنسان الأساسية والتمتع بخيرات هذه المرحلة، وتحقـــيق الازدهـــار الاقتصـــادي والمعرفي المعلوماتي بالانفتاح الشامل على العولمـــة، بعـــيداً عن أساطير القومية العربية و الوحدة العربية والثقافة العربية الأصـــيلة وتحريـــر الأرض العربـــية من الصهاينة في فلسطين، والعراقية من المحتلين الأمريكيين!!

إنـــه الاســـتلاب الكامل بل لعله من كوابيس التردي الفكري والعقلي الذي أنتجـــته حقـــبة الاستبداد والطغيان الداخلي والقهر الإمبريالي والصهيوني على الإنســـان العربـــي. وهـــيهات هيهات ، فالتبرير والتلفيق والاقتباس والاغتراب والاستلاب، والاستيلاء على فكر الآخر و استيراد ثقافته وسلعه المادية، وادعاء ملكيـــتها ســـوف لـــن تنتج سوى حطاماً من الفكر التراثي ليس القومي العربي

---

[1] أوجـــياس فـــي الأسطورة اليونانية هو ملك (إليس) وكان لديه قطيع من ثلاثة آلاف ثور لم تـــنظف حضائرها منذ ثلاثين سنة، وقد فرضت الإلاهة جونو على هرقل تنظيفها، فحوّل نهري الفيوس وبينوس إلى الزرائب ونظفها في يوم واحد. موسوعة الأساطير الميثولوجيا اليونانـــية- الرومانـــية والاسكندنافية تأليف: إدموند فولر ترجمة حنا عبود ص 93- دار الأهالي – دمشق – ط أولى 1997م.

الإســـلامي بل الغربي- الأوروبي- الأمريكي، تعاد صياغته وترتيب عناصره ومواده الثقافية لتخدم أيديولوجيا متهافتة، فهل تنفع تسميتها بثقافة التغيير، وهي ليســت إلا تقلــيداً بائساً لا يلامس القاع الروحي للأمة التي ظلت عبر تاريخها تنتج ثقافتها الخاصة بالتفاعل والحوار والصراع والمقابسة مع الآخرين . فإنتاج ثقافــة التبعــية لن يغير من طبيعة العلاقات داخل المجتمع العربي وخارجه مع الدول المتقدمة التي تصدر إلينا مع سلعها الصناعية والتكنولوجيا التي تسمح لنا باقتــنائها قــيمها وأخلاقهــا وفكــرها وثقافــتها دون أن يكون لنا القدرة على مواجهــتها، فتظل ثقافتنا صدى لما يجري هناك تابعة وغير أصيلة وغير فاعلة أو مساهمة في رفد الثقافة العالمية بأي عنصر من مكوناتها، لنعيد تفسير وشرح وتبرير ما نستورد وما نستهلك.

إن العقل التبريري الذي يسف بعد كل هزيمة أو نكسة تلم بالأمة العربية، متخلــياً عما أُنجز في مراحل سابقة، وكأنه يسابق الزمان التاريخي العربي في انهــياراته، لهــو علامــة ودلالــة علــى عمق أزمة الثقافة العربية المعاصرة والحديــثة. فعندما تفقد الأسس المرجعية المكونة لها مشروعيتها في الممارسة وأهليــتها كعقــل يعيد صياغتها بمنهج نقدي عقلاني ليكمل ما ظهر أنه ناقص وغــير مطــابق وملائم، وليستوعب التجريبي والظرفي في إطار نظري جديد يمكّن ويثبّت الاتجاهات الإيجابية كي يتم البناء عليها وانطلاقاً منها لتكون هوية تغتني بالإبداعات والأعمال الفكرية المنهجية المؤسسة. بدل أن يتم الحكم عليها بمقاييس الحداثة البراغماتية الغازية التي تنتهي مدة صلاحيتها كأية سلعة أخرى مســتوردة، ليصــبح النقد الذاتي شيزوفرينيا، وعصاب وسواسي قهري يلاحق الــتاريخ العربــي لــيدمر شخصية الأمة الحضارية والقومية تحت وطأة تفاقم المشــكلات النفســية والعقلــية لأولئك المثقفين الذين يعتبرون أنفسهم أصحاب رســالة التحديث والتغيير، والذين تنهار مشاريعهم النهضوية و تتهافت أفكارهم بســبب مــا اعتقدوه وظنوه مطلقاً وصحيحاً ومطابقاً، وقالوا إنه فلسفة النهضة والــثورة. فإذا هم يعلنون براءتهم منه ويصطنعون بديلاً هجيناً، ويعكفون على تــرويجه. وتــنهال مــنهم الاتهامات للشعب العربي بالتخلف والجهل وصنمية الــتراث وللنخــبة بالخضوع للسلطات المعرفية وخيانة المسؤولية. وتبدأ عملية المــراجعة عندهم بروح الثأر والهدم وتسفيه كل فكر عربي لا يوافق معتقداتهم الجديدة، وهم في ضلالاتهم الوافدة أشد بؤساً مما اعتبروه ضلالات قديمة كانوا قد ساهموا في خلقها ونشرها على الناس.

إن العبور من ثقافة التبرير إلى ثقافة التغيير ليس مسألة شكلية أي تبديل شكل ثقافي بآخر، أو الانحياز والانتقال من مدرسة فكرية للحداثة والتحديث الغربيين إلى مدرسة منافسة ومعارضة، مثلاً من البنيوية إلى الإبستمولوجيا(والقطيعة المنهجية)أو إلى التفكيك، ومن الماركسية إلى الوجودية والهيغيلية، أو النيتشوية. ومن المنطقية الوضعية إلىالألسنية إلى الألسنية البنيوية، ومن مدرسة فرانكفورت لعلم الاجتماع إلى المدرسة الأمريكية، ومن صراع الحضارات ل(هنتنجتون) إلى نهاية التاريخ (لفوكوياما) . . . هذه الانعطافات والتحولات ستظل سطحية لأنها لن تلامس المشاكل الرئيسة والحقيقية للأمة العربية والمرحلة التاريخية التي تعيشها.

-4-

-ثقافة التغيير، ثقافة الإصلاح والمقاومة.

ثقافة التغيير تعني ثقافة المقاومة وثقافة التحرر القومي من التبعية السياسية، و الاقتصادية، والثقافية للإمبريالية الرأسمالية الأوروبية والأمريكية في حقبة العولمة، هي ثقافة وعي الذات و تفعيل الهوية في مواجهة الآخر. هي ثقافة إبداعية تستبدل المقايسة بالمشاركة استناداً إلى الفعل التاريخي لقوى المقاومة العربية في فلسطين والعراق وكل مكان من الأرض العربية. هي ثقافة النهضة الإنسانية العقلانية الأوروبية الحديثة، وأيديولوجيا اليقظة العربية في مواجهة العنصرية والشوفينية والإمبريالية والصهيونية ، زائد ثقافة ما بعد الحداثة التي أنتجتها الثورة التقنية في مجال الاتصالات والمعلوماتية الحديثة. وهي ليست ثقافة الإنترنت، لأن ثقافة الإنترنت بقدر ما توفر من فرص للوصول إلى المعلومات، بقدر ما تؤدي إلى الانعزال والشيئية والاستلاب المجتمعي، وتخلق فضاءً من الفردية المحاصرة بهوس الحصول على المعلومة وليس توصيلها إلى الآخرين. والحوار والتواصل الجماهيري هو الذي يعطي للأفكار قوتها المادية المؤثرة في صنع السياسات والمواقف والأحداث، ويوقد شعلة العمل والأمل من أجل التغيير.

إن جوهر ثقافة المقاومة هو الديموقراطية الثورية، بناء الإنسان الفاعل و المسؤول والمشارك والقادر على تحديد اختياراته في ساحة العمل النضالي، من خلال بناء المجتمع الديموقراطي الذي تحكمه وتنظم فعالياته الاجتماعية

والسياسـية والاقتصادية والثقافية المؤسسات العامة المهنية والشعبية التي تشكل مجتمعه المدني إلى جانب المجتمع السياسي الذي تجسده الدولة التي تتولى إدارة شـؤون خدماتـه العامة، وتتولى فيه قيادة مجمل النشاط الاجتماعي -السياسي والقانوني والمالي-الاقتصادي والأمني -العسكري، منبثقة عن الشعب بالاختيار الديموقراطـي الحـر مـتجاوزة الأطر المجتمعية القديمة والتقاليد العتيقة لبناء المستقبل من أجل الإنسان العربي الجديد.

-5-

النظرية البرجوازية للعولمة الإمبريالية الأمريكية غبراء.

وبينما يتخبط المثقفون العرب في متاهات الأفكار المستوردة من بلد المنشأ التـي تسـاقطت وانقضـت مدة صلاحيتها بعد التحولات العميقة التي أصابت الاقتصـاد والسياسـة والتكنولوجـيا هناك. وهي خليط متنافر من الاشتراكية الإصـلاحية والماركسـية المـنقحة و الليبرالية المحافظة والراديكالية اليمينية، أيديولوجـيات بلا أفاق معرفية أو فلسفية لعالم جديد تقوده طغم مالية وعسكرية وصناعية (في الفروع الأكثر حداثة -المعلوماتية- والاتصالات- والبيولوجيا- الهندسة الوراثية) تشكل مجمعاً إمبريالياً- عالمياً- سياسياً بلا معايير أخلاقية أو أيـة نـزعة إنسانية، ولا مثل عليا اللهم سوى الحفاظ على مصالح رأس المال المالـي الـذي تديره كونياً . وهي تعمل لتأسيس إمبراطورية عالمية، ولكنها لا تملك القدر الكافي من الهوية الاجتماعية بما يؤهلها لإنتاج منظومة فكرية تجسد تطلعـات وأهداف طبقة اجتماعية حاملة لمشروع حضاري جديد. مهما حاولت أن تقدم نفسها كطليعة للمرحلة الحالية من تطور رأس المال المالي التي أطلقت علـيها اسـم العولمة. ودليلنا على فقرها الفلسفي وخوائها الفكري هو اعتمادها علـى مقـولات صـموئيل هنتنجتون البائسة عن صراع الحضارات وبخاصة صـراع الـثقافة المسـيحية -اليهودية مع الثقافة العربية الإسلامية على أساس دينـي، وأفكـار فوكويامـا الفجة حول نهاية التاريخ، وعلى الرسالة التاريخية العدوانـية لليميـن المسيحي لتعميم ثقافتها الاستهلاكية والليبرالية الجديدة التي تحتوي الكثير من أفكار الفاشية والاستعلاء القومي والديني.

إن عصـر النهضة والثورات البرجوازية الرأسمالية في أوروبا والولايات المـتحدة الأمريكية التي أنتجت الفلاسفة العظام أصحاب المذاهب الفلسفية التي

شكلت الأطر المعرفية للثقافة الحديثة والأيديولوجيات السياسية للأنظمة الديموقراطية الليبرالية التي تأسست في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية منذ الثورات الكبرى في القرن الثامن عشر والتي أطاحت بالملكيات والإمبراطوريات الإقطاعية والإمبريالية في أوروبا (الثورة الأمريكية 1776م و الثورة الفرنسية 1789م). وما تبعها من ثورات في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين مثل (فلسفة الأنوار الفرنسية والفلسفة الحسية الإنكليزية والفلسفة المثالية الألمانية والماركسية، وما تفرع عنها من مدارس في علم الاجتماع وفي الفلسفة، والفلسفة البراغماتية الأمريكية). هذا العصر قد انتهى وتوقف الفيض الثقافي ليصبح عالم البرجوازية مقفراً ومرعباً بعد حروبها المدمرة فيما بينها وضد الشعوب في قارات العالم القديم والحديث لاستعمارها واحتلال بلادها والهيمنة عليها. لتظهر فلسفات ما بعد الحداثة (النيتشوية و الوجودية والألسنية، والظواهرية والوضعية المنطقية والبنيوية وما بعدها وفلسفة الأديان وفلسفة العلم والفلسفة التفكيكية. . . .) المنددة بالعقل والعقلانية وبالثقافة الإنسانية الكلاسيكية للبرجوازية، وبالماركسية وريثة الفلسفات السابقة كنظرية ثورية وكسياسة وفكر. ليبرز الليبراليون والمحافظون الجدد واليمين الديني الأمريكي البروتستنتي المشبع بأفكار الصهيونية الدينية والسياسية، كي يقودوا العالم إلى الفوضى والكارثة، متنكرين للتراث الفكري الإنساني والديموقراطي لعصر النهضة الأوروبية، جاعلين من النزعة العلمية والتنموية والتقنية الحديثة التي مثلتها ثورة الاتصالات والمعلوماتية والإنترنت والهندسة الوراثية منطلقات لهيمنة الدولة الرأسمالية الإمبراطورية على العالم وتعميم ثقافة السلعة والسوق والاستهلاك والقيم الأمريكية للعيش وفق النمط الأمريكي لما يعتبرونه الديموقراطية؛ إذ لا يوجد فرق عند الأمريكي العادي بين الديموقراطية والحكومة الدستورية أو الممثلة أو النيابية، ولا فرق بين الديموقراطية والمشروع الحر. فالمشروع الحر على الطريقة الأمريكية هو الديموقراطية.

فنحن إذن أمام عصر الاضطراب الكبير في المفاهيم والتحول من نمط حضاري إلى نمط جديد لم تتضح معالمه بعد، لا يعرف المثقفون العرب ولا السياسيون كيفية التعامل معه ومواجهته في ظل النظام العربي الاستبدادي الذي أسسته الولايات المتحدة الأمريكية في فترة الحرب الباردة لضمان السيطرة

على النفط العربي في مواجهة الاتحاد السوفييتي. وظلت ترعاه حتى بعد زوال هـذا القطب الأعظم -الاتحاد السوفييتي-في إطار استراتيجيتها الصهيونية في الوطن العربي، التي تتمحور حول إقامة السلم الأمريكي -الصهيوني بما يضمن تفـوق دولة الصهاينة المحتلة لفلسطين، ويضمن أمنها كدولة معترف بها جزءاً مكوناً لخريطة الشرق الأوسط الصغير ثم الكبير في المشروع الأمريكي الجديد للرئـيس الأمريكـي جـورج بـوش الابـن، بعد أن تمحي من أذهان العرب والمسـلمين فكـرة القومية العربية والإسلام المجاهد كإطارين للتوحيد السياسي والثقافـي وللمقاومة ، ومن خريطة العالم الوطن العربي والعالم الإسلامي، في سعيها لبناء إمبراطوريتها الجديدة على أشلاء التاريخ القديم والحديث والجغرافيا والحضارة والثقافة العربية الإسلامية والمسيحية في هذه المنطقة من العالم التي لم تعرف غير تاريخ عريق ممتد في الزمان و المكان.

فـيظل المـثقفون والكـتاب العـرب مشغولين بما تطرحه الإمبراطورية الأمريكـية من جدول أعمال لتنفيذ استراتيجيتها وسياساتها العربية بعد احتلال العراق، وبما تسميه برامج الشراكة من أجل السلام والديموقراطية والتنمية في الشـرق الأوسـط الكبير، والإصلاح السياسي والاقتصادي والثقافي والتربوي والتعليمـي والعقـائدي العربـي والإسـلامي بما يتفق واستراتيجيات الهيمنة والسـيطرة الأمريكـية والصـهيونية علـى الوطن العربي، متلقين وشارحين، ومفسـرين ومؤولين للوصول إلى معرفة أهداف هذه الاستراتيجية. على الرغم مـن أن كولن باول وزير الخارجية الأمريكية أعلنها صريحة أن هذه الشراكة ترمي إلى تغيير خريطة الشرق الأوسط وثقافته لتجفيف منابع الإرهاب العربي والإسـلامي الـذي تشـن الولايات المتحدة الحرب عليه منذ أحداث 11 أيلول 2001م.

وقـد تغير المشهد ها هنا فالمثقفون العرب الليبراليون الجدد أعلنوا تأييدهم المضـمر أو المعلـن لهـذه الاستراتيجية، انطلاقاً من أنها وسيلة ضغط على الأنظمـة العتـيقة الشائخة في الوطن العربي التي كانت السبب الرئيس للتخلف والتبعـية و الانهيارات السياسية والعسكرية من أجل التحول نحو الديموقراطية وإصلاح النظام السياسي الاستبدادي الشمولي، وإعادة الحياة السياسية والحريات العامـة وحقـوق الإنسان الأساسية وبعث مؤسسات المجتمع المدني والمشاركة الشعبية في صنع القرار السياسي. ووضعوا آمالهم كلها في الضغوط الأمريكية

والأوروبـية ومشاريع الإصلاح التي تعددت أوروبية و دانيماركية وألمانية إلى جانـب الأمريكية. وقد ميزوا أنفسهم عن أولئك المعارضين المؤيدين للسياسات الأمريكـية بـلا تحفظـات أو شـروط، وأعلنوا بأنهم يرفضون الإصلاحات المفروضـة مـن الخـارج الإمبريالي، ويريدون إصلاحات نابعة ومنبثقة من الداخـل ويناشـدون الأنظمة العربية للمباشرة بالإصلاح وهم على استعداد تام للتعاون والتحالف معها لمقاومة الضغوط الأمريكية- الصهيونية.

ولكـن الإصلاح لم يبدأ حتى الآن لأن الأنظمة العربية لا مصلحة لها في الإصـلاح الـذي سـيغير من بنيتها ومهامها ، وهي لذلك تفاوض الأمريكان والأوروبيـن لتقديم التنازلات لهم لإعادة التحالف معهم كي يصرفوا النظر عن هـذه الإصلاحات، في حين لا تلتفت إلى دعوات المثقفين ومنظماتهم السياسية والاجتماعية والمدنية وإلى أحزاب المعارضة ومنظمات حقوق الإنسان العربية المطالبة بالإصلاح والمصالحة الوطنية.

والإشـكالية هـنا والمـأزق الذي لا مخرج منه هو تعارض المشروعين الإصلاحيين، المشروع الإمبريالي الأمريكي والأوروبي الذي يهدف إلى تعزيز التبعـية والهيمـنة والسـيطرة على الثروات النفطية العربية وتعزيز الاحتلال الصـهيوني لفلسطين وجعل التجزئة العربية حقيقة واقعة لا يمكن تغييرها ووأد فكـرة الوحـدة العربية. ومشروع المعارضة الليبرالية العربية الذي يريد تغيير الأنظمـة العربية عن طريق المشاركة الشعبية وصناديق الاقتراع ، وبناء دولة ديموقراطـية حديـثة على النمط الأوروبي والأمريكي. وحالة الاستعصاء هذه سـببها الأساسي هو حالة الانفصال بين الليبراليين العرب الجدد وبين الجماهير العربـية التي لا تعلم الكثير عن برامج هؤلاء السياسية والاقتصادية وسياساتهم تجـاه قضـايا الـتحرر العربي وبخاصة قضية فلسطين، ومواقفهم من العولمة والتبعـية. فهـي لا تـثق بتبريراتهم، وما تزال ثقافتها المرجعية هي القومية العربية والإسلام ضد الغرب الإمبريالي وما يأتي منه.

إن المقـالات الصـحفية والضـجة في الوسائل الإعلامية لا تشكل ثقافة ديموقراطـية حديـثة. فالمهمـة الرئيسـة لأي بـرنامج للإصـلاح السياسي والاقتصـادي والاجتماعي هي إيجاد المهد الثقافي الذي يجب تأسيسه لتنبت فيه الديموقراطـية الـثورية العربية الحديثة التي هي ثقافة المستقبل العربي. وهي عملـية إبداعـية، على العقل الثقافي العربي أن يعمل بكل مسؤولية لإنجازها.

وبـــدون ذلـــك ســـتبقى دعوة الإصلاح والحداثة سطحية، وتتسكع على أبواب الاســـتراتيجيات العظمى للإمبراطورية الأمريكية التي لاتهمها سوى مصالحها كدولـــة عظمـــى وحـــيدة تقود العالم لخدمة هذه المصالح وحسب. وفي التاريخ العربـــي الحديـــث دروس وعـــبر منذ بداية القرن العشرين (فقد تحالفت قوى النهضة العربية في المشرق العربي مع بريطانيا العظمى لإقامة دولة عربية بعد الانفصال عن الدولة الاتحادية العثمانية، وإعلان الثورة العربية من قبل شريف مكة 1916م. وكانت النتائج التي تمخضت عنها كارثية وما زال العرب يعانون مـــن مـــا كرســـته الدولتان الاستعماريتان فرنسا وبريطانيا من تفتيت وتجزئة للمشرق العربي، ومن إقامة الوطن القومي للصهيونية في فلسطين حتى اليوم).

في كتابه التراث والحداثة يتساءل الدكتور محمد عابد الجابري(لماذا كانت المحـــاولات الفلســـفية فـــي الوطـــن العربـــي الحديـــث تـــنحو كلهـــا منحىً لاعقلانياً؟ويجيـــب طـــبعاً هذه مفارقة، مفارقة غريبة، أن تجد الفلسفة في فكر نهضـــوي هـــو الفكر العربي الحديث من عصر النهضة إلى اليوم. وهي التي يفـــترض أن تكون رائدة الفكر في اتجاهه العقلاني، نجدها على العكس تتمسك بمســـبقات لاعقلانية، وأحياناً بالميول والتطلعات اللاعقلانية. طبعاً نتحدث عن جوانـــية عـــثمان أميـــن ورحمانـــية الأرسوزي ووجودية عبد الرحمن بدوي، بالإضـــافة إلـــى اتجاهـــات أخرى وهي كلها محاولات لاعقلانية لإنشاء فلسفة عربية أو فلسفة في إطار الفكر النهضوي العربي، وهي لاعقلانية بشكل صريح فهـــي تنتمي وتؤكد انتماءها وتعلن عنه إلى الغزالي وبرغسون أساساً، أي إلى القطاع اللاعقلاني في تراثنا الفلسفي والقطاع اللاعقلاني في التراث الغربي[1]. والمســـألة هـــنا كما عرضها الجابري تتعلق كما أرى وحاولت في هذا البحث تندرج في محاولات عقل التبرير للتأكيد على منهجية مختلفة للثقافة العربية في التفلسف وخصوصية مفترضة لعقلنا العربي تميزه عن العقل الغربي في النظر إلـــى العـــالم وقضاياه ومشاكله، ظناً من هؤلاء أن هذا هو الطريق للتحرر من التبعـــية الفكرية للعقلانية الغربية ، وهي بالطبع محاولة فاشلة ما أنتجته لم يكن إلا مـــزيداً مـــن الضياع والبلبلة الفكرية لأن الفكر الفلسفي العقلاني هو تراث ثقافي للإنسانية كلها .

---

(1) التراث والحداثة -د-محمد عابد الجابري ص-247

أفكار موجهة لنظرية عربية عن التبعية والعولمة.

في مواجهة العولمة الأمريكية لم تعد تكفي دعوات العصيان والجهاد التي تعلنها جماعات الأصوليين الإسلاميين والقوميين العرب والماركسيين الثوريين، لمحاربة الإمبريالية والعولمة وشن حرب العصابات عليها والخروج من دوائر نفوذها، وإن كان هذا شرطاً أساسياً لبناء حداثة عربية. لأن المطلوب هو التأسيس لمشروع ثقافي وحضاري عربي يكون البديل للمشروع الإمبريالي-الصهيوني للعولمة، وهو جوهر أية ثقافة للتغيير المجتمعي والسياسي والاقتصادي.

إن ثقافة التغيير تمثل الثقل الفكري المقابل لمجمل الاقتصاد الرأسمالي للمجتمع الحداثي المتأخر، أي القوانين التي تحكم تطور المجتمع والفكر الإنساني، وهذه لا يكشف عنها سوى طرح برنامج كامل ومفصل تماماً ومستقل في روحه عن التغيير المطروح في صيغ الحداثة المستوردة، والتناقض الكامن في بنيته في صيغة الانفصال غير المتكاملة من التحليل المادي والجدلي . وهي لذلك يجب أن تستند إلى :

1- التأكيد على القومية العربية وأيديولوجيا الوحدة العربية كمرجعية وكمكون أساس للفكر العربي الحديث وللتوحيد القومي. وإعادة الاعتبار لفكر النهضة القومية العربية الحديثة على أسس الديموقراطية والعقلانية والمنهج النقدي - الفلسفي-الاجتماعي، وبناء فكر عربي حديث مخالف في تطلعاته وأخلاقياته لفكر الحداثة الإمبريالي ، بما يؤهله ليكون فكراً مؤسساً لثقافة جديدة، وحضارة مغايرة.*

2-الارتكاز على مفهوم أوسع للثقافة العربية-الإسلامية يشمل مساهمات العرب غير المسلمين، والمسلمين من غير العرب، والموروثات من الثقافات القديمة التي سبقت، والأدوار السياسية التي قامت بها الشعوب التي دخلت في الإسلام، وشكلت أسراً حاكمة في الوطن العربي(الفرس والأمازيغ والترك والأكراد). وحملت شعلة الحضارة والعلم والمعرفة والثقافة العربية الإسلامية، فصارت لها هوية وتطورت في كنفها وبمساهمات متميزة منها لتصبح ثقافة عالمية، ولتشكل مركباً تاريخياً وجغرافياً اندمج في مكوناته هذا الكم الهائل والمتنوع والمتعدد والمختلف من المعتقدات الدينية والأفكار والقيم والأخلاقيات و السلوكيات والمواضيع العلمية والثقافية، بما شكل الشخصية الحضارية

والثقافية والإنسانية للأمة العربية. وهذا يعني العمل المنهجي الهادف إلى تحديد نقــاط الاتصـــال والانفصال، الانقطاع والاستمرار بين هذه المصادر المرجعية لثقافتـــنا، كي نعيد تأسيسها وصياغتها في عصر الحداثة والتحديث الذي تفرضه علينا ثقافة الغرب الرأسمالي المتقدم، وتجاوزها إلى فكر مؤسساتي حديث.

3-رفـــع رايـــة العقل والعقلانية كمعيار للنشاط الفكري القادر على إنتاج وعـــي مطـــابق و معـــرفة علمية مقاربة للواقع، وثقافة حديثة للتغيير والنهضة والـــتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ثقافة قومية عربية ووطنية حديثة تـــنأى بمـــنطلقاتها عن ثقافة التبعية والثقافة التقليدية، ترتكز على العلم والتقنية والمعلوماتـــية والحرية والعقلانية، وتنبذ الصراعات الأيديولوجية بين الموروث والوافد وبين التقليد والحداثة، هدفها تكريس بناء شخصية المواطن العربي الحر الفـــاعل كفـــردية تـــتطلع إلـــى المســـتقبل بعيداً عن الدوغما وصنمية التراث والوضـــعية، وتـــبعات الـــتاريخ الزاهر لبناء شخصية الإنسان العربي المكافح، وسط الشعارات الصاخبة والعولمة الغازية، والسعي لتحقيق تكامله مع الآخرين فـــي مجتمع عربي حرٍ ووطن ودولة واقتصاد حديث نام. يكفل مواجهة التبعية وتطـــوراً علـــى جمـــيع الأصعدة لبلورة طريق التحرر القومي في ممارسات واســـتراتيجيات مؤثـــرة تعمل على حل المشكلات التاريخية المتراكمة، وجعل التغيير سياسات ملموسة في حياة الإنسان العربي.

4-العمـــل الإنساني الاجتماعي هو مصدر جميع القيم المادية والروحية، والإنســـان هـــو القوة المنتجة الوحيدة الأكثر تقدماً، وهو الأساس في كل تطور علمـــي وتقني وعملي في العلم والاقتصاد والسياسة والثقافة، ولذلك فإن الإنسان الفـــرد هو أغلى وأرفع شأناً من كل أدوات الإنتاج. وفي المجتمع تتجسد فعاليته وقدراتـــه كإنســـان عاقل منتج وتصبح له قيمة الخلق والإبداع خاصية متميزة يكتســـبها نتـــيجة تقسيم العمل الاجتماعي. وإلى هذا المعنى يجب أن تتجه كل الجهود التربوية والتعليمية والثقافية لتطوير حياته وفكره وعقله وقدراته المادية والمعنوية ليكون عضواً مشاركاً وفاعلاً.

5 -وانطلاقـــاً مما سبق فإن الحفاظ على حياة الإنسان وحقوقه الأساسية ككائـــن عـــاقل و سياسي، وناطق ومفكر وعامل هو جوهر كل ثقافة للتغيير. ومحور هذه الحقوق هو الحرية التي بها يعبر الإنسان عن رأيه ومعتقده وفكره، ويحـــدد خـــياراته كوجود وكشخصية وكفرد وكعضو في المجتمع المدني وفي

المجتمع السياسي. فالحرية هي قانون وجوده الأسمى والتي هي المعطى الأول في كونه إنساناً اجتماعياً.

6-وتأسيساً على ذلك فالحق في الحرية وإن كان في الأصل مطلقاً ومجرداً في النظرية كمفهوم، فإنه حق ملموس أي بحاجة إلى تحديد وتعيين كقانون وكمؤسسات وثقافة في المجتمع لممارسته كنشاط هادف وفعالية مادية وروحية. فكانت الديموقراطية هي النظام الأمثل لهذه الممارسة القانونية والحقوقية والعملية . والحرية كمفهوم فلسفي هي حرية الآخر، والرأي المعارض والمخالف وكمفهوم سياسي هي حرية التعبير والقول والتجمع وتشكيل الأحزاب والصحافة الحرة والنقد المنهجي والأيديولوجي وتداول السلطة والمساواة في الحقوق والواجبات والعدالة الاجتماعية، وممارسة السياسة في إطار القوانين المقررة من قبل ممثلي الشعب المنتخبين.

7-والديموقراطية كنظام اجتماعي وسياسي وثقافة وفلسفة للحكم تعتمد الحوار والنقد والاختيار والمشاركة الواعية والانتخاب لتسلم المسؤوليات وتشكيل مؤسسات الدولة والحكم وفصل السلطات والرقابة على الحكومة وحجب الثقة عن الحاكم المستبد أو الفاسد والمنحرف لضمان سلامة القيم الاجتماعية والثقة العامة، وتطبيق القوانين وتشريعها لتلبية الحاجات المادية والروحية للجميع بما يضمن المساواة والعدالة والرفاهية والسعادة ويحقق التطور والتقدم ويمنع الظلم والعدوان.

8-التنمية الوطنية والقومية للإنسان العربي وتنمية الموارد الطبيعية وتنمية الاقتصاد واستغلال الثروات الطبيعية ومصادر الطاقة لصالح تنمية مستديمة ومستقلة تعتمد مبدأ الاعتماد على النفس، وتحقيق ثورة في التصنيع والزراعة، وتحديث البنيات الأساسية للاقتصاد في مرحلة العولمة، بالتركيز على التقنيات الحديثة بما يحقق الخروج من التبعية، والدخول في السوق العالمية كشركاء منتجين وليس كمستهلكين فقط كي يصبح مبدأ الاعتماد المتبادل حقيقة وليس شعاراً في علاقتنا بالسوق العالمية. فالتنمية هي الحرية وهي الاستقلال وهي الطريق إلى التحرر الوطني والقومي، وأن يصبح التعليم فلسفة وأهدافاً وآليات مكرساً لتنمية القدرات الإبداعية للإنسان العربي في مجالات العلم والتقنية، والاقتصاد والعمل. وصياغة نظرية اقتصادية-ثقافية-سياسية حول التبعية هي في الجوهر نظرية النهضة العربية في عصر العولمة،

ديموقراطـية المحـتوى والمضـمون ثورية الأساليب ديناميكية الأفكار تؤسس لاسـتراتيجية اقتصـادية و سياسـية تقوم على الاندماج بالسوق الرأسمالية و الانفكـاك عـنها فـي نفـس السياق، وتحقق معادلة متوازنة عن طريق التقدم التكنولوجي والعلمي في قطاعات محددة في الاقتصاد الوطني والقومي وصولاً إلـى تغيير جذري في العلاقات مع السوق العالمية للرأسمالية المتقدمة. ولا بد مـن التذكير بأن تجديد إنتاج علاقات الإنتاج بمعظمها يتم بواسطة البناء الفوقي – الحقوقـي، والسياسـي والأيديولوجي أي بممارسة سلطة الدولة عبر أجهزة الدولـة القمعـية مـن جهة وأجهزة الدولة الأيديولوجية من جهة أخرى حسب نوعـية تقسيم العمل. ولذلك فإن بناء الدولة الحديثة يصبح على رأس أولويات عملـية المشـروع الثقافـي والحضاري القومي العربي، لتنفيذ سياسات التنمية المستقلة.

إن ظهـور الإنتلجنتسـيا يشـكل لحظة هامة في تاريخ تطور البلدان غير الأوروبـية، مـا قبل الرأسمالية الذي دمر الاستعمار والإمبريالية بناها التقليدية كلـياً أو جزئياً من خلال السيطرة المباشرة أو غير المباشرة للدول الأوروبية– هذا الظهور– سبب نفوذ أفكار الحداثة من حيث كونها تصنيفاً اجتماعيا في هذه البلاد. فالإنتلجنتسيا هي نتاج نموذجي لتأثير إيجابي أو سلبي لصيرورة التحديث أو الـتأورب، وهـي متجددة بحسب تطورات التكنولوجيا والثورة العلمية، وقد صـاحبها في العصر الراهن بروز رجال الأعمال الذين أصبحوا ينافسون على التحديـث ويـتحالفون مع هذه الإنتلجنتسيا لجعل بلادهم تنتهج سياسات انفتاحية غـير مشـروطة على السوق العالمية والانضمام إلى مسيرة العولمة، في إطار مـبررات اقتصـادية وثقافية يتذرعون بها تحت شعارات التقدم والمشاركة في الفرص المنافع والمغانم التي توفرها هذه العولمة. إن الاختلال الذي يعاني منه العـالم ما قبل الرأسمالي يتركه من الآن فصاعداً للنخب بما تنتجه من تراكيب جديـدة، فـتعكس الأيديولوجيات نظريات أوروبية في الأوساط الأقل استعداداً لتقبلها لتحل محل المكونات الكونية القديمة.

إن رجـال الإنتلجنتسيا اختطفوا من قبل أيديولوجيات يعيشونها بشكل ديني ويـنخرطون فـيها، لكـنها توضع في نظام مغلق(ليبرالية رأسمالية، داروينية، وماركسية، أو ماوية)، وهي بالأساس لم تكن أكثر من فرضيات عمل، وحقائق جزئـية ونسبية، لكنها وبموجب عقل التبرير توضع في إطار نظام فكري مغلق لتصـبح عقـائد إيمانية؛ مما يزيد الأمر غموضاً، ويخلق إشكاليات حيث عبادة

المعــنى تلتحف بغطاء أرثوذكسي بحسب العبارة المرة لأنجلز عن الماركسيين الــروس الذين يستشهدون بنصوص ماركس كما لو أنها نصوص كلاسيكية من العهد الجديد[1] . ونلمس ذلك في الإنتاج الثقافي العربي الذي أصبح بعد هزيمة حزيــران 1967م تابعــاً، يجسد بشكل محزن حالة الاختراق الإمبريالية، التي مازالــت تســم معظــم هذا الإنتاج، و الجزء الأكبر منه ليس استجابة لحاجات ومتطلبات حقيقية ولا يعالج واقعاً راهناً ولا يقدم حلاً نظرياً لمشكلات واضحة، وإنمــا هــو شغف فكري بالغرب وبتياراته الفكرية، وإذا كانت تيارات ما بعد الحداثــة فــي الغــرب تــبريراً أيديولوجياً للاستسلام للرأسمالية والاندماج في مجــتمعها الجماهــيري، فإن تيارات ما بعد الحداثة العربية في المشرق العربي تقــع فــي نفــس المطب، والمأزق التاريخي نفسه إنها تجرد نفسها من وسائل المقاومة[2].

إن حالة الاختراق والانكشاف والفوضى الفكرية التي تسيطر على الساحة الثقافــية العربية، وتظهر بأشكال ومضامين متنوعة ومتباينة. يمكن أن نجمعها فــي تياريــن رئيســين :الأول تيار تحديث التراث (الديني الإسلامي واللغوي العربي، والعقلي العربي والإسلامي).

والتــيار الثانــي تــيار القطيعة المعرفية والمنهجية مع هذا التراث، تيار العلمانية والحداثة العقلاني والنقدي. وكلا التيارين يتباريان في سجالات خطابية غير منتجة ويتغذيان من مراجع معرفية غربية. فلقد أخذت الحرب الشاملة على مــا ســمته العولمــة الأمريكــية والصهيونية الإرهاب الإسلامي طابعاً ثقافياً وحضــارياً. فالإســلام برأي زبيغنيو بريجنسكي ككل معاد في جوهره للغرب والديموقراطــية وموصــوم بنزعة متأصلة نحو التطرف الأصولي . إن أصل المشكلة ثقافي وفلسفي فالإسلام العالمي يشكل تهديداً حقيقياً للحضارة الغربية[3]. والطــريق الثالــث بيــن التياريــن غير مسموع الصوت في هذه المرحلة، أي الطــريق الــذي يحاول من جديد بعث تيار النهضة القومي العربي في مشروع ثقافــي وحضــاري، والذي تقف ضده العولمة الأمريكية وحلفاؤها الأوروبيون

---

[1] *سـليمان مخادمـة مساهمة في نقد العقل المكون لفكر النهضة العربية-مجلة الفكر العربي المعاصر عدد74-75-1975م.*

[2] *الدولة التسلطية في المشرق العربي -د-خلدون حسن النقيب ص 326-327.*

[3] *الاختيار- السيطرة على العالم أم قيادة العالم ص153 .مرجع سبق ذكره.*

والصـــهاينة والعـــرب التابعون من الحكام والنخب الحديثة من الليبراليين الجدد والقطريـيـــن والإقليميـيـــن، والـــنزعات الإثنية والمذهبية التي تعمل بالتنسيق أو بالتوازي مع استراتيجيات التفتيت الإمبريالية.

ومـــا الحـــروب الشاملة التي تشنها العولمة الأمريكية على الأمة العربية، ويـــتركز مظهـــرها الرئيس اليوم في المجال الثقافي، إلا الحروب على الهوية الثقافية للأمة وعلى مفهوم القومية العربية وعلى الإسلام المكون الرئيس لثقافتها على وجه التخصيص ابتداء بتغيير الاسم من الوطن العربي إلى الشرق الأوسط الصـــغير ثم الكبير، مروراً بتجاوز ألفاظ العرب والعروبة وحذف ما يشير إليها أيـــنما وجدت لصالح كلمات وأسماء الأقاليم والأقطار العربية(الشام أو سوريا، العراق، الخليج بدون نسبة-عربي-أو غير ذلك، ومصر ، واليمن ، والسعودية، والمغـــرب ، والجزائر. . . . . .)، وتغيير مكونات الثقافة العربية الإسلامية، بـــتجاوز وطـــي والســـكوت عن مفاهيم الجهاد والقومية والحقوق العربية في فلســـطين التـــي يحتلها الصهاينة تحت ذريعة أنها تولد الإرهاب والعنف وتعكر صفو السلام الأمريكي الصهيوني. وتغيير مناهج التربية والتعليم، بما يزيل أية مـــواد تشـــير إلـــى الهوية القومية والإسلامية الجهادية، وصولاً إلى الاعتراف بـــالأمم التي ورد ذكرها في أسفار التوراة اليهودية، وبعثها من رمادها ليستعيد تـــاريخ العالم مساراته كما يتصوره المحافظون الجدد والمسيحيُّون المتصهينون تمهـــيداً لإقامة دولة المسيح اليهودية على أرض العرب للخلاص والقيامة، كما ورد فـــي تنـــبؤات أنبـــياء اليهود التوراتيين. وهي في الحقيقة تطلعات وآمال الرأســـمالية الإمبريالية المالية الأمريكية والصهيونية لإخضاع العالم المعاصر لجـــبروتها وتشـــكيله لخدمة مصالحها وتحويل أممه وشعوبه إلى العبودية من جديد.

تقـــوم الولايات المتحدة الأمريكية(بإيصال المبادئ والقيم التي تشكل أسس سياســـتها وتحـــدد طبيعـــتها كدولة عبر البرامج التقليدية وعبر جميع الأدوات التكنولوجـــية بمشاركة القطاعين العام والخاص، وتعمل في الوقت نفسه لزيادة الـــتفهم والاحترام المتبادل بين شعب الولايات المتحدة وشعوب البلدان الأخرى وبحسب باتريشيا هاريسون مساعدة وزير الخارجية الأمريكية للشؤون التعليمية والثقافـــية قد وسعت بعد 11 أيلول 2001م من اتصالاتها إلى أبعد من النخب، إلـــى المجموعـــات الاجتماعية الاستراتيجية التي تضم الشباب والقيادات الدينية ابـــتداء مـــن وزارة التربـــية إلى الأساتذة ورجال الدين والمدربين الرياضيين

والأهالـــي، وتعمل على استضافة ما يزيد على 30 ألف زائر في برامج التبادل الثقافي مع 1500 منظمة عالمية وتعمل على تمويل برامج تعليم اللغة الإنكليزية للشــباب وتستخدم كل الوسائل الإعلامية من الإنترنت إلى المطبوعات، وأقامت العديد من اللجان مع العالمين العربي والإسلامي للتنسيق والتواصل في مقدمتها اللجــنة الجديدة للتواصل مع العرب والمسلمين المعتدلين لتطوير أجندة الفرص، وقامت بتأسيس مواقع عربية على الإنترنت وزادت أعمال الترجمة اليومية من العربــية مـــن ثلاثة أو أربعة آلاف كلمة في اليوم إلى اثني عشر وخمسة عشر ألــف كلمـــة فـــي اليوم، والشراكة من أجل التعليم p41 عام 2001م وما زالت منتجات التليفزيون و الفيديو أدوات استراتيجية قوية للاتصال في تبليغ الرسالة السياسية الخارجية الأمريكية، وتبلغ ميزانية هذه النشاطات الموجهة إلى الشرق الأوســط 25% مـــن مجمـــوع الميزانية العامة لتمويل هذه النشاطات الداعية للتسامح الديني والتنوع الإثني[1].

■■■

---

[1] بين الدبلوماسية والاختراق الثقافي.سياسات ثقافية ودبلوماسية أمريكية نحو العالم العربي والإســلامي .نــص كلمــة ألقــتها باتريشيا هاريسون مساعدة وزير الخارجية الأمريكية للشؤون التعليمية والثقافية، أمام لجنة الشؤون الدولية لمجلس النواب الأمريكي في 19 آب 2004م.

فهرس المراجع

1-مقدمة ابن خلدون-دار إحياء التراث العربي-بيروت -لبنان -الطبعة الرابعة بلا تاريخ

2-التعريف بابن خلدون شرقاً وغرباً -ابن خلدون تحقيق محمد تاويت الطنجي 1951م

3-التنمية حرية أمارتيا سن -ترجمة شوقي جلال-كتاب عالم المعرفة الكويت 2004م

4-الصليبيون في الشرق -ميخائيل زابوروف-دار التقدم موسكو

5-خطط الشام في ثلاث مجلدات محمد كرد علي -دار العلم للملايين -بيروت 1389هج-1969م الطبعة الثانية مصححة بقلم المؤلف

6- الروضة الغناء في دمشق الفيحاء-نعمان أفندي قساطلي- طُبع في بيروت 1876م

7-الكامل لابن الأثير في ثلاث عشر مجلداً -دار إحياء التراث العربي-لبنان

8-تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن-مكتبة الأنجلو -مصرية

9-الاختيار زبيغنيو بريجنسكي-ترجمة عمر الأيوبي-دار الكتاب العربي- الطبعة الأولى 2004م

10-الهيمنة أم البقاء-نعوم تشومسكي ترجمة سامي الكعكي -دار الكتاب العربي 2004.

11-صموئيل هنتنجتون -الحداثة والتنمية والسياسة 1971م والنظام السياسي في المجتمعات المتغيرة 1968م ترجمة ونشر-دار الكتاب العربي- بيروت 2004م.

12-من الحداثة إلى العولمة-كتاب عالم المعرفة- الكويت ترجمة سمر الشيشكلي رقم 309-تشرين الثاني 2004م

13-نهاية التاريخ والإنسان الأخير -فرانسيس فوكوياما- ترجمة مركز الإنماء العربي بإشراف مطاع الصفدي -ترجمة الدكتور فؤاد شاهين والدكتور جميل قاسم ورضا الشايبي بيروت 1993م

14-مجلة الثقافة العالمية عدد100 مايو-أيار 200م

15-بعيداً عن اليمين واليسار- أنطوني جيدنز ترجمة شوقي جلال- كتاب عالم المعرفة-الكويت تشرين الأول 2002م

16-الحركة الصليبية في العصور الوسطى في مجلدين دكتور سعيد عاشور مكتبة الأنجلو - مصرية- الطبعة الأولى 1963م

17-الروضتين في أخبار الدولتين -أبو شامة المقدسي cd-R كومبيوتر-

18-عجائب الأخبار في التراجم والآثار -عبد الرحمن الجبرتي cd-R كومبيوتر
19-ماهية الحروب الصليبية-د-قاسم عبده قاسم -كتاب عالم المعرفة الكويت
20-الثقافة المقهورة والثقافة المنتصرة-محمد سعيد طالب -الدار الوطنية الجديدة دمشق 2000م-الطبعة الأولى
21- النظام العالمي الجديد -محمد سعيد طالب- دار الأهالي -دمشق 1994م
22-نزعة الأنسنة في الفكر العربي الإسلامي-ترجمة هاشم صالح دار الساقي -لندن 1997م
23-مجلة عالم الفكر- الكويت عدد يوليو -تموز مجلد 42-2003م
24- البنك الدولي -شيريل بالبيار ترجمة أحمد فؤاد بلبع-دار سينا للنشر 1994م
25-أسطورة الإطار- كارل بوبر-ترجمة د-يمنى طريف الخولي-كتاب عالم المعرفة الكويت-2003-رقم 292
26-نحو نظرية للثقافة دكتور سمير أمين-دار الفارابي-بيروت
27- الاقتصاد السياسي للتنمية في القرنين العشرين والحادي والعشرين-دار الفارابي بيروت 2002 ترجمة د-فهمية شرف الدين
28- الطبقة والأمة في المرحلة الإمبريالية والتاريخ- سمير أمين -ترجمة د فهمية شرف الدين -دار الطليعة بيروت -الطبعة الأولى 1980
29 -التطور اللامتكافئ-د سمير أمين ترجمة د -برهان غليون- دار الطليعة بيروت 1974م الطبعة الأولى
30-رأس المال -كارل ماركس-ترجمة أنطون حمصي-وزارة الثقافة دمشق 1971-1978- في ستة مجلدات
31-جغرافية التخلف -إيف لاكوست-دار الحقيقة بيروت 1970
32-الاقتصاد السياسي للتخلف-بول ماران وإيف لاكوست أسباب التخلف- دار الطليعة بيروت 1970م
33-فخ العولمة-هانس بيتر مارتين- هارولد شومان-ترجمة عدنان عباس علي مراجعة وتقديم الدكتور رمزي زكي -عالم المعرفة الكويت
34-إعاقة الديموقراطية- الولايات المتحدة والديموقراطية -نعوم تشومسكي ترجمة وإصدار مركز دراسات الوحدة العربية 1992م
35-في نمط الإنتاج الكولونيالي -مهدي عامل - بيروت طبعة أولى 1971م.
36-الإمبراطورية الأمريكية -كلود جوليان ترجمة دار الحقيقة بيروت 1970م
37-العولمة وآفاق المستقبل في الوطن العربي سيد الصديقي -مجلة المستقبل العربي-عدد تموز 1003.
38-مجلة الثقافة العالمية العدد 85-نوفمبر-ديسمبر 1997م
39-العولمة وخيباتها-جوزيف استيغليتز-ترجمة ميشيل كرم-دار الفارابي بيروت-بلا تاريخ.

40-مجلة العلوم الاجتماعية -جامعة الكويت مجلد 17

41-مجلة المستقبل العربي العدد 296- الشهر العاشر 2003

42-الصـــراع على القمة ليستر ثارو-كتاب عالم المعرفة 1995 م عدد202- الكويت ترجمة أحمد فؤاد بلبع.

43-مجلة الثقافة العالمية عدد أيلول تشرين الأول 2003م.

44-تقرير الأمن القومي الأمريكي بعد انتهاء الحرب الباردة أذيع في14 آب 1991م

45-تقرير مركز الاستخبارات القومي الأمريكي لعام 2005م ترجمة وإعداد الخليج الإماراتية 2005/1/21م

46-المـــرايا المحدبـــة مـــن البنيوية إلى التفكيك-د-عبد العزيز حمودة -كتاب عالم المعرفة الكويت رقم 232لعام 1997م

47-الخـــروج من التيه-د-عبد العزيز حمودة -كتاب عالم المعرفة الكويت رقم298 تشرين الأول 2003

48-مختارات هيغل -ترجمة إلياس مرقص-دار دمشق-1989م

49-الإيديولوجـــيا العربية المعاصرة -د عبد الله العروي -ترجمة محمد عيتاني دار الحقيقة بيروت 1970م.

50-مجلة الثقافة العالمية عدد 124- مايو أيار 2004

51-جريدة البعث -ملحق حوار تاريخ 2004/8/2

50 التراث والحداثة-محمد عابد الجابري- مركز دراسات الوحدة العربية 1991م

52-مجلة الفكر العربي المعاصر عدد74-75 لعام 1975م

53-الدولة التسلطية في المشرق العربي -د-خلدون حسن النقيب-1991م

54-مجلة الفكر العربي -بيروت آذار 1986م

55-ما بعد الرأسمالية المتهالكة-دكتور سمير أمين -دار الفارابي بيروت-2003م

56- موســـوعة الأســـاطير - الميثولوجـــيا اليونانية- الرومانية- الاسكندنافية، تأليف أدموند فولر، ترجمة حنا عبود، دار الأهالي- دمشق- طبعة أولى 1997م.

■■■

فهرس الموضوعات

■■■

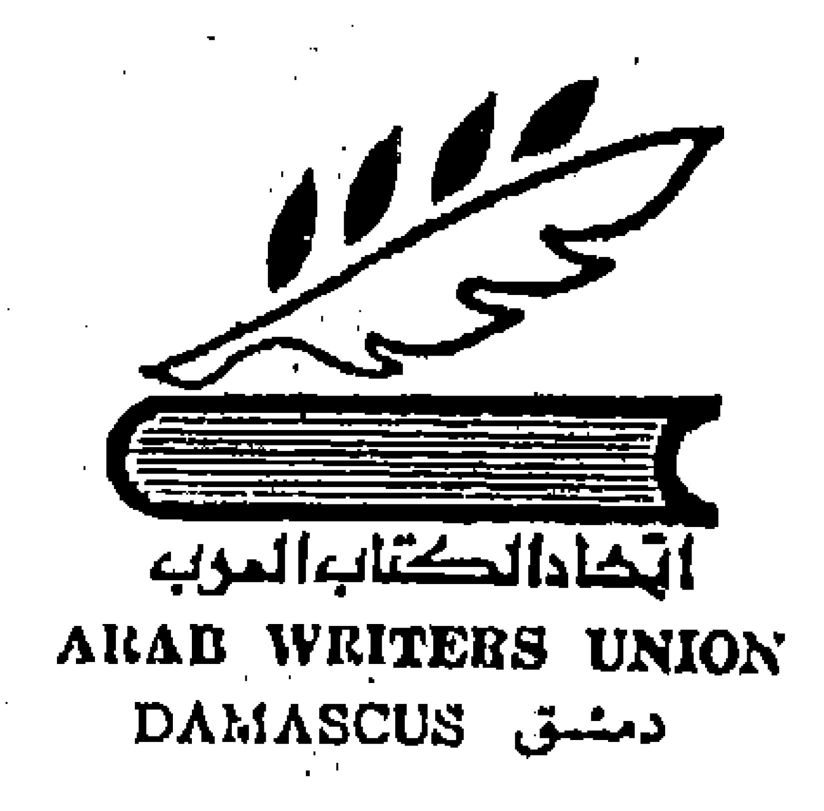
رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

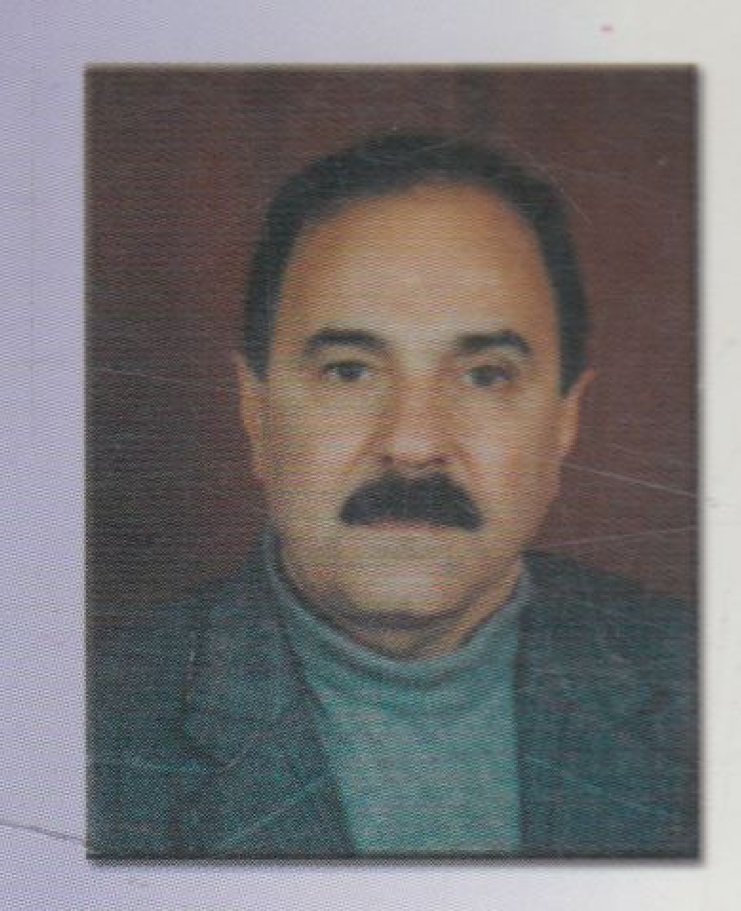
الثقافة و التنمية المستقلة في عصر العولمة: التخلف العربي ثقافي أم تكنولوجي: دراسة / محمد سعيد طالب .ـ دمشق : اتحاد الكتاب العرب، 2005 .ـ 209 ص ؛ 25 سم .

1- 303,40956 ط ا ل ث
2- العنوان 3- طالب

ع- 2005/4/372 مكتبة الأسد




اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق



محمد سعيد طالب

- من مواليد قرية جباثا الزيت في الجولان المحتل 1936.
- عضو اتحاد الكتاب و الأدباء العرب، كاتب و باحث في القضايا السياسية و الفكرية و الثقافية.
- يحمل إجازة في الآداب - قسم التاريخ من جامعة دمشق،و شهادة الدبلوم العام في التربية، و الدبلوم الخاص في الدراسات الاجتماعية.

صدرت له المؤلفات التالية:

1- النظام العالمي الجديد و القضايا العربية الراهنة 1994
2- الدولة و الدين - بحث في التاريخ و المفاهيم 1997
3- الدولة الحديثة و البحث عن الهوية 1999
4- الثقافة المقهورة و الثقافة المنتصرة 2000
5- ابن خلدون رائد الفكر الحديث 2001
6- الحداثة العربية، مواقف و أفكار 2003



مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

ثمن النسخة 300 ل.س في القطر
350 ل.س في أقطار الوطن العربي